

أردنا بمناسبة اليوبيل الذهبي لإنشاء المعهد المصري للدراسات الإسلامية ، وبعد خمسين عاما من الجهد الأمل الرامي إلى الحفاظ على واحد من أهم عمده ، مجلته الغراء ، تكريم هؤلاء الذين حولوا هذا الحلم الواعد إلى واقع ملموس .

وإيماننا منا بالدور الذي قامت وتقوم به مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية باعتبارها نقطة وصل وتواصل بين المشتغلين بالدراسات العربية من الإسيبان والإسبانية من العرب ، نرى أنه بات علينا أن نستغل معطيات عصر التكنولوجيا لتخليد شهادات وأبحاث ثقافة الفكر والقلم من العرب والإسيبان المدونة على ما يربو على ثلاثين ألف صفحة في ثلاثين مجلدا ، تراث ثرى غائر الأعماق من الإبداع والدرس والبحث في ثمار واحدة من أهم الحضارات التي ورثتها البشرية: الحضارة الإسيبانية العربية ...

إن هذا القرص ، الذي تحمله بين يديك أيها القارئ الكريم ، الذي يضم في ثنايا موجاته المغناطيسية كنزا تراكم على مر خمسين عاما ، يرنو إلى أن يكون احتفاء بالمستقبل وبالأجيال الجديدة التي تواصل مهمة إثراء هذا الكنز المعرفي الذي نهديه لك ولأنفسنا ولكل المعنيين بالتراث العربي الأندلسي في هذا القرص الصغير في حجمه الكبير في معناه .

ولنا اعتناب هذه المناسبة لنعرب عن عميق امتناننا ، وجزيل شكرنا لكل من شاركنا وأسهم في هذا الجهد طوال السنوات الماضية .

أ.د محمود السيد على

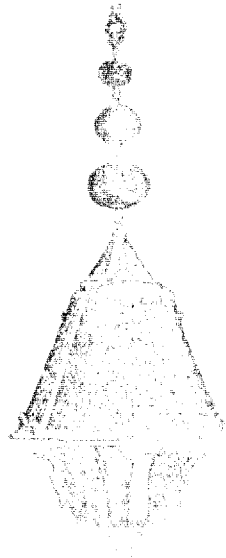
المستشار الثقافي لجمهورية مصر العربية

مدير المعهد المصري للدراسات الإسلامية

مدريد في الثاني عشر من أكتوبر ١٩٩٩

مَجَلَّةُ الْمَعْهَدِ الْمُصْرِيِّ لِلدِّرَاسَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي مَدْرِيَدَ

مدن الأندلس : « طليطلة »



مَجَلَّةُ الْمَعْهَدِ الْمِصْرِيِّ لِلدِّرَاسَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي مَدْرِيَدَ

مدن الأندلس : « طليطلة »

يصدرها المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد
رئيس التحرير : مدير المعهد

فهرس القسم العربى

صفحة

الدكتور سليمان العطار

٧ تقديم

الأبحاث والنصوص

الدكتور سليمان العطار

٩ نصوص عربية كلاسيكية عن طليطلة مختارة من نفح الطيب والذخيرة

٢٣ ١ - طليطلة وأساطير فتح الأندلس بين الحقيقة التاريخية والقولكلور

٥١ ٢ - أدباء طليطلة وحكامها ووقائع تاريخية ارتبطت بها

١٥٣ ٣ - جغرافية طليطلة

الأستاذ اكنائيو فيراندو

١٦١ اللغة العربية في مدينة طليطلة بعد الفتح النصرانى ووثائق المستعربين

الدكتور خالد سالم

١٧١ الحضور الاسبانى في شعر عبد الوهاب البياتى

طبعـت بمطبعة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد
١٩٩٨

INSTITUTO EGIPCIO DE ESTUDIOS ISLAMICOS

العنوان :

Francisco de Asís Méndez Casariego, 1

Teléf. 91 563 94 68 - Fax 91 563 86 40

28002 MADRID (España)

e-mail:iegipcio@mundivia.es

تقديم

في سلسلة الأعداد المخصصة لموضوع المدن الأندلسية يصدر هذا العدد الثالث من المجلة عن مدينة **طليطلة** تلك المدينة العريقة التي حافظت الى اليوم على خططها القديمة وعلى شوارعها الملتفة الحصينة وعلى معمار يستلفت النظر ويعيدنا الى تاريخها العربى .

تضمن هذا العدد عددا من المقالات التى تتناول أوجه الحياة المختلفة في **طليطلة** حديثا وقديما ، هذه المقالات التى يتضمنها القسم الاسبانى أما القسم العربى فيدفعنى الى كلمة عتاب الى علماء الاسبانيات العرب الذين لم يقدموا اسهاماتهم عن هذه المدينة وفي الواقع هو أمر متكرر ، فقد تبين لى أن هذه المدينة لم تلق من اهتمام المؤرخين القدماء العرب القدر الذى تستحقه كما لم تلق اليوم من اهتمام علماء الاسبانيات مشاركة في هذا العدد . ولذلك فقد اتجهت النية الى تخصيص الجزء العربى من المجلة الى بداية مشروع ربما يطبق على كل المدن الأندلسية ، وبشكل أوسع في المستقبل كما سنرى .

هذا المشروع هو تجميع النصوص القديمة المفرقة عن المدينة ودراستها والتعليق عليها بعد محاولة وضعها في سياق بصرف النظر عن المصدر الذى تؤخذ منه . وأقول بداية مشروع فيما سبق لأننا لم نستطع أن نجتمع كل النصوص القديمة العربية عن **طليطلة** فضلا عن النصوص الاسبانية وربما الفرنسية أو الإيطالية وذلك لضيق الوقت فعدد المجلة ينبغي أن يصدر في موعده وبالتالي فقد قررنا أن نجتمع النصوص الأكثر تمثيلا وافادة من المصادر العربية دون غيرها . وكانت تلك النصوص ما ورد عن **طليطلة** في كل من النفخ والذخيرة بجانب نص صغير من معجم البلدان لياقوت . وقد تم التقديم لهذه النصوص وخلال التقديم تم ايراد بعض النصوص الأخرى من مصادر أخرى لأهميتها الخاصة . بهذا العدد توضع **طليطلة** في مكانها الرفيع في الحضارة الأندلسية وتكشف عن وجه جميل وعريق غطاء النسيان . هذه المدينة لعبت دورا مركزيا أيضا في حضارة العالم الغربى فهي قاعدة نقل الحضارة العربية والمشرقية الى الغرب . لقد صنعت النواة الأساسية التى لولاهما لتأخر قدوم الحضارة الغربية مدى لا يمكن تحديده الآن . ولكن في التاريخ لا توضع افتراضات لأن **طليطلة** لم يكن لديها بديل الا القيام بهذا الدور الذى أهلها له مكانها الجغرافى المركزى في شبه الجزيرة الايبيرية ومكانتها التاريخية الفريدة عبر التاريخ القديم والأندلسى ، ثم عبر تاريخ حروب توحيد اسبانيا والمجهودات التى بذلت لذلك والتى انتهت بفرض المسيحية دينا وسيادة القشتالية لغة ، كما اختفت العربية وهاجر الاسلام .

لقد كانت **طليطلة** مثلاً للتسامح وتعايش الاسلام واليهودية والمسيحية . كانت أيضاً مثلاً لتعايش اللغة العربية مع غيرها من اللهجات الرومانثية اللاتينية . لقد ظلت **طليطلة** فترة من الزمان ربما أطول من باقى الأندلس مثلاً لهذا التعايش الفريد بين الحضارات والأديان واللغات .

وضربت مثلاً عن هذه الامكانية الفريدة التى زرعها الوجود العربى والاسلامى فى شبه الجزيرة الايبيرية ، أما الصراع بين الحضارات والأديان الذى عرفته اسبانيا بل وعرفه الأندلس بعد الوجود المرباطى فلم يصل الى **طليطلة** الا متأخراً جداً مما يكشف عن اصالة هذه المدينة بل وتجذر هذه الروح الأندلسية العربية فى ربوعها .

لعل الهدف السامى وراء هذا العدد من المجلة هو اعطاء هذه المدينة بعض حقها الذى لا يكاد يذكر الا فى سياق آخر دون تركيز ودون تعمق ، وكان خروج هذا العدد نتيجة مجهود طليطلى نبيل قاده ميغيل ارناندو دي لاراميندى مدير مدرسة المترجمين **بطليطلة** وساعده فى ذلك الصديق خيسوس كاروبلس سانتوس وجهاز المدرسة التى هى الآن وجود رمزى لدور **طليطلة** الذى يعد فاصلة بين حلقتين من أهم الحضارات التى عرفتھا الانسانية ؛ الحضارة العربية والحضارة الغربية . وهى فاصلة عبور واتصال ينبغى أن نستوحى منها الدروس الى اليوم وما أحوج العالم العربى اليوم الى مدرسة للمترجمين أشبه بمدرسة **طليطلة** القديمة فى عصر الفونسو الحكيم لكى ينقل حضارة الغرب ويطورها ويمنحها من جديد هذه القيم الرفيعة التى انبتتها الحضارة الأندلسية فى ظل الوجود العربى الاسلامى .

نقدم هذا العدد للقارئ لكى يستمتع بأخبار ومعارف حول هذه السيدة الجميلة التى اسمها **طليطلة** التى ترتدى ثوب المدينة العريقة التى وان كانت وراء حضارة عظيمة فى العالم الاسبانى تارة وفى الغرب تارة أخرى الا أنها لم تغير صورتها ولم تتخل عن دورها الخير فى التقاء الحضارات التقاء ود وتعارف ونماء .

ولا نملك الا أن نقدم الشكر لمدرسة المترجمين **بطليطلة** والى بلدية **طليطلة** والى الجمعية الملكية **بطليطلة** لدورهم الهام فى اخراج هذا العدد بجانب المعهد المصرى للدراسات الاسلامية الذى شارف الآن عامه الخمسين فى خدمة الالتقاء الحميم بين الحضارة العربية والحضارة الاسبانية وهو نفس الدور الذى لعبته **طليطلة** ردحا من الزمان . كما نقدم الشكر لكل من ساهم فى هذا العدد من الباحثين البارزين .

سليمان العطار

نصوص عربية كلاسيكية عن طليطلة
مختارة
من نفح الطيب والذخيرة

مقدمة

أبدأ هذه المقدمة بإيراد هذين النصين - فضلا عن النصوص التي تلى هذا التقديم - لما لهما من أهمية خاصة في فهم دور **طليطلة** الخاص جدا في تاريخ الأندلس وتاريخ اسبانيا .

النص رقم (١)

وهو مقتطع من كتاب تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية :

أخبار الحكم بن هشام

ثم ولى الحكم بن هشام ، رحمه الله ، فكان جميل السيرة في رعيته . متخيراً لحكامه وعماله ، مؤمناً للسبل ، متكرراً بالجهاد .

واستقضى أول ولايته خير قضاة الأندلس وأعدلهم : محمد بن بشير .

وكان محمد بن بشير في حداثته ، كاتباً للعباس بن عبد الله المرواني ببجاية عامل هشام ، رحمه الله ، يسيراً ، ثم رحل الى المشرق وحج البيت ، وسمع من مالك بن أنس سماعاً يسيراً ، وانصرف ، فاستكتبه مصعب بن عمران الهمداني ، المتقدم ذكره ، وهو قاضى الجند بقرطبة ، فكان كاتبه الى أن توفي ، واجمع الوزراء على توليه بعده ، فولى القضاء أكثر خلافته ، ثم توفي .

وولى القضاء بعده ابنه سعيد بن محمد بن بشير ، وكان أيضاً من أخصار القضاة .

وكان المتغلب على أمر الحكم طول أيامه حاجبه عبد الكريم بن مغيث ، وكان من العقل وحسن الرأي بمكان كبير .

وكانت للحكم بالأندلس ثلاث وقائع عظيمة ، فمنها : وقعة **بطليطلة** ، وذلك أنهم كانوا من الاشارة والطفيان والاستخفاف بالعمال ما لم تبلغه قط رعية من ولايتها ، وكان عندهم غريب الطليطلى الشاعر ، وكان من أهل الحكمة والدهاء ، وكان أهل **طليطلة** يسندون الى رأيه ، فلم يطمع الحكم وفيهم أيام غريب ، فلما توفي استقدم عمروس ، المعروف بالمولد ، من وشقة ، وهو جد بني عمروس

الصيديين ، فاختره ، وقرب مكانه ، ثم استراح اليه بما في نفسه في أهل طليطلة ، وقال له : انه لم يقم لي أمل في الانتصاف منهم الا على يدك ، ان رجا ميل أهل طليطلة اليه للدعوة التي هو منها ، فوافقه على ذلك ، فولاه طليطلة ، وكتب الى أهلها كتابا يخدعهم عن عقولهم ، ويقول : اني اخترت لكم رجلا من أهلكم وأعفيتكم من موالينا ، ومن يتصرف في عمالتنا ، وحد لعمرس حدودا رجا بها بلوغ أمله فيهم ، فكان مما حد له أن قال : اذا أنس أهل طليطلة اليك ، وأحلوك محل واحد منهم ، باظهارك لهم في الباطن أنهم أحب اليك من بني أمية ، ومن كل من عرفتكم ، وأنتك على كراهة لجميعهم ، أن تقول لهم : اني رأيت هذا الشر الحادث بينكم وبين عمال السلطان ، انما هو بمدخله الحشم لكم ولبنيتكم ونسائكم ، فكنت أرى أن أبني قسبة في جانب من المدينة يسكنها الحشم فيكونون بمعزل عنكم ، وتسلمون من شرهم ، فأجابوا الى أن تكون القسبة في وسط المدينة ، ولا تكون في جانب . فاختروا الجبل المعروف بجبل عمروس الى يومنا هذا ، فبنى فيه قصراً ، واستخرج ترابه من حفرة في وسطه .

فلما تم القصر ورحل اليه وسكنه أعلم الحكم بذلك : فعهد الى بعض قواده في الثغر بأن يحاط بحركة العدو اليه ، ويسأل الجند والنفير ، فاستنفر الناس بقرطبة وغيرها ، وأخرج ابنه عبد الرحمن ، وهو حينئذ ابن أربع عشرة سنة ، وأخرج معه ثلاثة من وزرائه ، فلما جاوز طليطلة ، وقد كتب الحكم ، كتابا مع أحد الخلفاء ، وأمره أن يدفعه الى الوزراء عند اجتماعهم بعمرس ، فلما صار العسكر بطليطلة لموضع يعرف بالجيارين ، تلقاه الخبر بانصراف العدو ، فقال عمروس لأهل طليطلة : انه يلزمني الخروج الى الولد ، أبقاه الله ، وواجب عليكم مثل ذلك ، فخرج وخرجوا معه حتى أتوه ، فلما وصلوا اليه أمر الولد بايصالهم الى نفسه ، وبسط لهم من حسن رأيه ما أنسوا اليه .

ثم خلا عمروس بالوزراء ، ودفع الكتاب فقرءوه ، فاذا فيه أن يشير عمروس على أهل طليطلة بأن يستجلبوا الولد الى طليطلة ليكرمهم بذلك ، وليكونوا من خواصه ، ويظهر الولد لهم التعاضى والاباية في دخول طليطلة حتى يعزموا عليه ، فاذا عزموا تعاد لهم ، وصار في داخل القسبة ، نظر في اقامة صنيع لهم ليطعمهم ويكسوهم ويصطنعهم بذلك ، وكان في عهده الى عمروس اذا بنى القسبة أن يكون لها بابان ، فسأل القوم ذلك ، فتعاصوا ، ثم أجابوه .

فرحل الى المدينة ، ودخلها وصار في القسبة ، ثم أمر بأن يحضر ما يقوم منه الصنيع في اليوم الثاني ، وأمر باحضار وجوه أهل طليطلة في الحاضرة والبادية ، فحضره ، وأمروا بالدخول من باب ، وصرفت دوابهم الى الباب الثاني ليخرجوا منه ، ووقف السيافون على شفير الحفرة ، وكل من دخل ضربت رقبتة ، حتى

أتى القتل منهم الى خمسة آلاف وثلثمائة ونيف . وأثبت عبد الرحمن بصره في السيف ، فلم تزل به غمزة في عينه الى أن مات .

ويحكى أن حكيما من **طليطلة** لما أتى الباب الذى منه الدخول ، ولم يلق في اقباله أحدا خارجا ، وقد تعالى النهار ، فقال لمن حول الباب من أهل **طليطلة** : يا أصحابنا ، وأين أصحابنا الذين دخلوا من غدوة ؟ فقليل له : على الباب الثانى يخرجون ، قال : لم ألق أحدا منهم منقلبا ، ثم رفع بصره فنظر الى بخار الدم ، فقال : يا أهل **طليطلة** ، السيف والله يعمل فيكم ، هذا بخار الدم لا دخان المطبخ ، فكان قوله سبب افتراق الناس وبقاء من بقى منهم .

ثم استقامت طاعتهم بقية أيام الحكم ، وأيام عبد الرحمن ابنه كلها ، الى أن توفى عبد الرحمن وخلعوا .

وسياتى ذكر ذلك في موضعه ان شاء الله .

ثم ظهرت بالجزيرة خارجية تشبه مذاهبهم مذاهب الخوارج أيام ثورتهم على علي ومعاوية ، رضى الله عنهما ، ومن بعدهم ، فكتب عباس بن ناصح الى الحكم شعرا يغرى بهم ، ويحرض على انكار ما أحدثوه ، وفي الشعر :

صل بالافيل الذى ربوا لفتنتهم من قبل أن يرحلوه نحونا جذعا

فقال الحكم : اى والله ، نفعل ، وخرج بنفسه حتى أتى الجزيرة ، ونزل على بابها ، وحمل السيف على أكثر أهلها .

ثم حدث بقرطبة حادثة الهيج ، وذلك أن قوما من أعلام قرطبة أنكروا عليه أشياء رابتهم ، فأرادوا خلعه ، وقصدوا الى ابن عمه له ، يعرف بابن الشماس ، من ولد منذر بن عبد الرحمن بن معاوية ، فحاضوا معه في ذلك ، وأرادوا تقديمه وخلع الحكم ، فأظهر لهم الاجابة وقال لهم : عرفوني بمن معكم في هذا الأمر ، فواعدوه ليوم بعينه ، ثم قصد بنفسه الى الحكم وأعلمه بذلك ، فقال له : أردت أن تغريني بأعلام بلدى ، والله لتصححون هذا عندى أو لأضربن رقبتك ، فقال له : ابعث الى أمينك ليلة كذا ، فبعث اليه فتاه برنت ، وكاتبه ابن الخداء ، جد بنى الخداء ، فأقعدهم بمكان يسمعون ما يدور بينه وبينهم ، فأتوه وأداروا الأمر ، فقال لهم : من معكم في هذا الرأى ؟ فقالوا : فلان ، والكاتب يكتب خلف الستارة ، فأملوا عددا كثيرا حتى خشى الكاتب أن يسمى ، فصوت بالقلم في الرق ، فثار القوم وقالوا : فعلتها يا عدو الله ! فمن خرج من وقته ذلك وفر نجا ، ومن توقف قبض عليه .

فكان فيمن فر عيسى بن دينار ، فقيه الأندلس ، ويحيى بن يحيى ، وغيرهما .
وقبض على ستة من أعلام القوم المآخير ، فصلب منهم يحيى بن نصر اليحصبي ،
من ساكنى قرية شقندة ، وموسى بن سالم الخولاني ، وولده ، فثار أهل الربض
بسبب ذلك ، وشهروا السلاح ، ودارت الحرب بينهم وبين الجند ، فلما تكاثر
عليهم الحشم صاحوا بالطاعة ، فأشار بعض الوزراء بألا يقبل ذلك منهم ، وأشار
بعضهم الى قبول ذلك منهم ، وقال : ان منهم المسيء والمحسن ، فأخذ برأى من
أشار بالصفح عنهم ، وأذن لهم بالخروج عن قرطبة .

وافترقوا ولحقوا بساحل بلد البربر ، وصاروا أهلها ، وانخزلت منهم طائفة
كبيرة نحو الخمسة العشر الألف ، وركبوا البحر حتى أتوا الاسكندرية فملكوها ،
وذلك في أول ولاية الرشيد ، وسطوا بأهلها سطوة منكرة ، وحملوا السيف على
أكثر أهلها ، وذلك أن جزارا ضرب وجه رجل مسلم منهم بكرش ، فأنفوا لذلك ،
فحملوا السيف على أكثرهم .

فلما بلغ الرشيد خبرهم أخرج ثمة ابن أيمن الحاجب ، ليستصلح أمرهم ،
فابتاع المدينة منهم بمال كثير ، ثم خيرهم في النزول حيث شاءوا من عمل مصر
وجزائر البحر ، فاخترأوا جزيرة اقريطش ، فنزلوها ، وهم فيها الى يومنا هذا .

النص رقم (٢)

وهو مقتطع من كتاب جذوة المقتبس للحميدى يتحدث عن أحد الداخلين من
المشرق الى الأندلس :

محمد بن عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد بن الليث بن سليمان
ابن الأسود بن سفيان ، أبو الفضل التميمي ، بغدادى .

سمع من أبى طاهر محمد بن عبد الرحمن « المخلص » . جزءين ، ومن ابن
الصلت « المحبر » ، ومن بعده .

كذا أخبرنى الشيخ الفقيه أبو محمد رزق الله بن عبد الوهاب بن عبد العزيز
ابن الحارث ، وهو ابن عمر ، وقال لى : ان مولده سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة .

وهو من أهل بيت علم وأدب .

خرج أبو الفضل الى القيروان فى أيام المعز بن باديس ، فدعاه الى دعوة بنى
العباس ، فاستجاب له ، ثم وقعت الفتن ، واستولت العرب على البلاد ، فخرج
منها الى الأندلس ، ولقى ملوكها وحظى عندهم بأدبه وعلمه ، واستقر بطليطلة ،

فكانت وفاته بها في سنة أربع وخمسين وأربعمائة ، على ما أخبرني به أبو الحسن علي بن أحمد العابدی .

وكان له نظم رائع ، ونثر بديع ، ومن نظمه ، ونسخته ، وأقرأته من خطه ، رحمه الله ، على الشيخ الامام أبي محمد ، ابن عمه ، قال : أنشدني أبو الفضل محمد بن عبد الواحد لنفسه ، من قصيدة طويلة أولها :

أبعد أرتحال الحى من جو بارق تؤمل أن يسلو الهوى قلب عاشق
وفيها :

<p>سوى أسن من مائها متماذق لفقد خليل أو حبيب مفارق ركابى على قلب من الدهر خافق وصابا زعافا ان عرى البين ذائقى صواها وعيسى من ربال النقانق واسمر خطى وأجرد سابق وأدنين من بعد المنى كل باسق الى حتفها بين القنا والفيالق ولا معتقا عن محمل السيف عاتقى</p>	<p>أنسا ابن السرى لا بل أبوها كأنما شربت سلاف السير تعطب كأسه إذا أظلماتنى الحادثات ولم أجد صفا تحت كف البين ان ظل غامزى ألقت الفيافي فهى تحسب اننى وعلقت آمالى بأبيض صارم فقربن من نيل كل شاسع فلا تعذلىنى فى تسرع مهجتى فلست مريحا من قنا الخط راحتى</p>
---	--

* * *

افتتاحنا هذا الجزء العربى من مجلة المعهد المخصصة لمدينة طليطلة - والذي تضمن بعض النصوص العربية القديمة عن مدينة طليطلة - بالنصين السابقين المختارين من كتابين هامين يهدف الى الكشف بشكل مباشر عما يرد فى النصوص التالية تحت السطور مرات ومرات وما يرد فيها بشكل بارز مرات قليلة ونادرة . ومع ذلك عند هذه المرات الأخيرة يبتسر الخبر ولا يحمل الكثير من المعلومات .

هذا الأمر المستور مرات ومرات والمكتشف فى نوادر الخبر وفى كلمات قليلة هو اتصاف أهل طليطلة بالتمرد وصعوبة شكيמתهم مما جعل ضبط تلك المدينة رمزا لقوة الدولة وانضباطها كما يصدق العكس تماما . بل ان سقوط هذه المدينة فى يد ملوك الشمال كان بداية النهاية لاسبانيا التى تغلب عليها الحضارة الناطقة بالعربية والتى أقامها ملوك الجنوب ودوله ، كما حدث العكس من قبل عند افتتاح الأندلس . ونقصد بملوك الشمال وملوك الجنوب شيئا مخالفا تماما للتقسيم التقليدى للأندلس بين شرق وغرب وموسطة . قد يكون هذا التقسيم

جغرافيا صحيحا لكنه من الناحية الديموجرافية غير صحيح . فالشمال غلبت عليه اللهجات اللاتينية العامية وان عرف العربية كما غلبت عليه المسيحية وان عرف الاسلام أما الجنوب فقد سادته العربية وان عرف اللهجات الرومانشية واحتفل بها في حياته الفولكلورية كما غلب عليه الاسلام وان عرف المسيحية المستعربة وغير المستعربة .

وكان تاريخ الأندلس أو اسبانيا العربية اللسان عبارة عن صراعين مستمرين صراع أساسى حاسم وصراع هامشى خدم الصراع الأساسى عن عمد أو غير عمد . الصراع الأساسى كان بين ممالك الشمال وخلافة الجنوب ثم بين ممالك الشمال وممالك الجنوب أو باستعمال المصطلح التقليدى بشئ من التوسع بين طوائف الشمال وطوائف الجنوب ، لكن طوائف الشمال كانت تتجه لتكوين دولة على نمط خلافة الجنوب بينما انفرطت خلافة الجنوب الى طوائف على نمط طوائف الشمال . وكما كانت الغلبة للخلافة المتوحدة والقوية صارت فيما بعد الغلبة لطوائف الشمال المتجهة للتوحد والقوة .

أما الصراع الهامشى فكان بين طوائف السكان في الجنوب مضرية ويمنية وعرب وبربر وغير ذلك من صقالبة وسودان ومستعربين ومولدين بل كان بين مالكية واتجاهات أخرى عقائدية سرية وعلنية منها التصوف والتشيع أو حتى اتخاذ مذهب سنى غير المذهب المالكي ثم أخيرا بين سكان الجنوب الأصليين وسكانه الوافدين من المغرب تحت أعلام مرابطية أو موحدية للدفاع عن الاسلام تارة ولأهداف امبراطورية تارات . ونجد مثل هذا الصراع في الشمال لكنه صراع بين أسر ملكية داخل كل أسرة أو بين أسرة وأخرى . وقد تعقد الصراعات الأساسيان واستمررا قرونا دون توقف للصراع ؛ الأمر الذى يثير الاستغراب ويستوقف الفكر طويلا . وقد فكر في هذا الأمر كثيرا أستاذى العظيم عبد العزيز الأهوانى وانتهى الى رأى لم أجد من بعد بديلا له . ذلك الرأى يعزو استمرار الصراع حتى بعد سقوط غرناطة الى ما أطلق عليه «الوقود الأدمى الخارجى» . فلم يتوقف تيار هجرة العرب المشارقة والمغاربية بجانب البربر الى الأندلس لنصرة أهله أو لأسباب أخرى لكن في الحالتين كان وقودا يجبر ضعف الجنوب ويسد ثغور الخلل كما حدثت هجرات الى الشمال من فرنسا وإيطاليا وغيرهما لنصرة المسيحية من ناحية ولعلائق النسب بين الأسر الحاكمة .

كانت هذه الدماء الجديدة الدافقة عوناً لكلا الجانبين على الاستمرار في الصراع دون حسم وقد ساند هذا التيار تدخل دول ومؤسسات في جنوب الجنوب وشرقه ومثله من شمال الشمال وشرقه وغربه تقدم العون المتعدد أو حتى الاحباط والعرقلة . وكان عون شمال الشمال يزداد ويقوى وعون جنوب الجنوب يضعف ويقل الى أن حسم الشمال الصراع الرمزي الى اليوم ضد الجنوب .

وأضيف عنصرا هاما لاستمرار الصراع قرونا متطاولة هو دور المرأة الحاسم ، فقد أخذت على عاتقها الى حد كبير ولا سيما في الجنوب ادارة الحياة المدنية في جوانب متعددة منها الاقتصاد والتعليم والعمل ، مما وفر أعدادا أكبر من الرجال للتعبيّة للمعارك دون قلق على أسرهم التي تحفل برعاية نساء قويات الشخصية لهن تصرف غير محدود في الحياة المدنية ، ولعل خاتمة الخاتمة لهذا الصراع على يد الملكة ايزابيلا لاكاتوليكا يرمز لأهمية المرأة وقوة شكيمنتها في بلد خاض حروبا لم تتوقف داخل حدوده لمدة قرون ثمانية .

في هذا الصراع تقوم **طليطلة** لفترة طويلة بدور هام لم تقدره المصادر التاريخية العربية حق قدره رغم خطورته وحسمه بل نكاد نعرف القليل عن دور هذه المدينة لأسباب تتعلق بتأخر معظم المصادر الهامة حيث، كتبت بعد سقوط تلك المدينة من يد ملوك الجنوب الى يد ملوك الشمال . كذلك هناك سبب آخر هو التركيز على مقر السلطة وهو قرطبة ومن بعد فيما يبدو أن أشبيلية قد حلت محلها الى حد كبير ، ثم أخيرا غرناطة ، أما **طليطلة** مخالب العقاب كما وصفها أحد أمراء الموحدين عند ما شبه الأندلس بهذا الطائر ، فلم تحظ بما تستحق من مكانة استراتيجية عند حكام الجنوب ففقدوها وفقدوا معها كل شيء .

ومن هنا تأتي أهمية النص الأول المأخوذ من تاريخ ابن القوطية الذي يصف أهل **طليطلة** - خلال سياق ثلاث وقائع عظيمة خاضها الحكم بن هشام تمثل أهم أحداث التمرد في عصره ، وعلى عكس الشائع عن أن واقعة التمرد الربضى الذي أعطاه لقباً « الحكم الربضى » كان أهم وقائع التمرد في عصره يأتى تمردا **طليطليا** في المقام الأول بل ويفسر واقعة مذبحه القلعة التى دبرها محمد علي ضد الماليك في مصر في القرن التاسع عشر - ؛ أقول يصف أهل **طليطلة** « ... أنهم كانوا من الاثارة والطغيان والاستخفاف بالعمال ما لم تبلغه قط رعية من ولاتها » .

ان هذا الوصفبالغ الأهمية والطرافة ومثير للاستطلاع : كيف يمكن أن يوصف شعب مدينة ما أو اقليم ما بأنهم أكثر الرعايا - على الاطلاق - اثارة وطغيانا واستخفافا بولاتهم . انه وصف قبل أن أقع على هذا النص قد تصورته وأردت أن أسجله في هذا التقديم نتيجة قراءتى للنصوص التى اخترتها عن **طليطلة** . فلم يحدث تمرد في زمن الحكم العربى للأندلس الا بدأ في **طليطلة** أو انتهى اليها بهرب بعض أقطابها الى رحابها ما عدا - بالطبع - بعض الاستثناءات التى على ما أظن أيضا كانت **طليطلة** وراءها عقائديا . فمثلا أول تمرد عقائدى مشهور هو تمرد ابن مسرة الذى حملته أثين بالاثيوس وزر كل التمرد العقائدى في الاندلس في كتابه الشهير «ابن مسرة ومدرسته» يكاد تهب

رياحه من طليطلة التى طبقا للنصوص التالية سترى شيخا طليطليا أستاذًا لابن مسرة وشيخا آخر مصاحبًا له فى حجه الذى انتهى تقريبا بطقوس مسرية غاية فى الغرابة فى قطر سنن مالكي .

ومن ثم تلك المذبحة التى حذا حذوها محمد علي بدقة شديدة والتى دبرها الحكم بأفضل مما فعل من بعد محمد علي مع المماليك تقدم من القتل خمسة آلاف وثلاثمائة ونيف حتى أن ابن الأمير الحكم «الربضى» صار «رمضيا» حيث أثبت بصره لقطع الرقاب فلم تنزل به غمزة فى عينه الى أن مات .

هذه القسوة التى لا يعدلها الا تمرد أهل طليطلة فرضت عليهم سكينه دامت قليلا «ثم استقامت طاعتهم بقية أيام الحكم وأيام عبد الرحمن ابنه كلها ، الى أن توفى وخلعوا» . انها عبارات قصيرة لكنها تصور استمرارية التمرد بين الطليطليين . السؤال : لماذا ؟ .

فى رأى أن طليطلة التى كانت فصلا من فصول السنة فى حكم اسبانيا فى أقل الحالات نفوذا وعاصمة لاسبانيا فى معظم الأحوال وحصنا بموقعها أقوى من كل القلاع لم تلق ما تستحق من عناية . انها لا يمكن فى تلك العصور الوسطى أن تبخ لحاكم الا بارادتها لتعذر فتحها . ان تمرد أهل طليطلة ينم عن وعى بالحصن الحصين الذين يعيشون فيه ، مما يجعلهم يستجيبون لدواعى الميل للحرية فطريا عند الانسان ، لكنه قط لم ينم عن وعى بالدور الذى كان يمكن أن تلعبه هذه المدينة فى حماية الوجود العربى للأندلس لا عند سكانها ولا عند حكام قرطبة ، فصارت مأوى للمتمردين من جميع أنحاء الاندلس ومن سدتها أديرت الفتنة فى قرطبة التى قضت على الدولة الأموية . أيضا فقدت أهداف التمرد المتجانسة فأصبح التمرد عند انفراط عقد الدولة عادة لا تكتيكًا نحو استراتيجية محددة ، فصارت صورة مصغرة للاندلس فى عهد الطوائف حتى انقلبت من طائفة الى طوائف صغيرة فتحت الأبواب أمام سقوطها وتحولها مبدئيا الى عاصمة للشمال تدرك دورها الاستراتيجى لأول مرة منذ فتحها على يد العرب ، ثم تمارسه الى أن ينتهى الأمر بتصفية السلطة الجنوبية لحساب سلطة الشمال بسقوط غرناطة .

هذا ما نفهمه من (النص ١) أما (النص ٢) فيقدم نموذجا متكررا فى معاجم الرجال يثير الخوف على مصير أى مدينة تفتح أبوابها للمتمردين فكريا وسياسيا . ان نموذج محمد بن عبد الواحد بن الحارث بن أسد بن الليث بن سليمان بن الأسود بن سفيان ، أبو الفضل التميمي بغدادى نموذج متكرر فى معظم الوافدين الى طليطلة سواء من الأندلس أو المشرق وقد اخترنا هذا النموذج لوضوح دلالة لجوئه الى طليطلة . انه صاحب دعوة الى بنى العباس وينجح نسبيا فى دعوته ثم

تقوم الفتن في القيروان فيلجاً الى **طليطلة** . وما يعيننى فوق ما سبق مقطوعة الشعر الواردة التى أولها عقائدى تصوفى :

أبعد ارتحال الحى من جو بارق تؤمل أن يسلو الهوى قلب عاشق
ثم آخرها حديث يمكن طبقاً للنص رقم (١) والنصوص التالية أن ينطبق على
كثير من رجال **طليطلة** :

فلا تعذلىنى فى تسرع مهجتى الى حتفها بين القنا والفيالق
فلمست مريحا من قنا الخط راحتى ولا معتقا من محمل السيف عاتقى
انها روح التمرد والحمية التى لا تتصف بالروية والعقل .

بعد هذه السطور نطرح فكرة هذا العمل الانتولوجى . اننا نقدم مجموعة من النصوص المأخوذة من نفح الطيب والذخيرة ونصا صغيرا من معجم البلدان لياقوت حول **طليطلة** تكساد تجمع معظم ما أوردته المصادر العربية فيما يتعلق بهذه المدينة . وقد استعرضت مصادر أخرى فلم أجد بها خروجاً عما أوردته تلك الكتب الثلاثة لأنها فى الأصل تجمع كل ما ورد عن المواضيع التى تعالجها . ومع ذلك فهناك كثير من الرجال الذين ينتمون الى **طليطلة** فى كتب التراجم عزفنا عن ايرادها حتى لا تفسد سياقاً حققته بالفعل النصوص التى أوردتها النفح والذخيرة .

وقد كان النص الذى أوردته ابن القوطية عن الحكم بن هشام نادراً فى دلالة عندما وصف أهل **طليطلة** . ولذلك أوردناه كاملاً رغم أنه يتجاوز **طليطلة** وأهلها الى وقائع تمرد أخرى . وفيما يبدو فى مخالفة للمعروف حتى الآن أن تمرد **طليطلة** المشار اليه فى هذا النص كان أخطر بكثير من تمرد الربض ، ويشير الى خطورة وضع **طليطلة** بل ويمهد تماماً لسقوطها وسقوط باقى الأندلس من بعد . ان **طليطلة** حامية الثغور مشغولة بتمرد لهاية عن وظيفتها ، أى أنها بوعى وبغير وعى تعمل فى اتجاه حرب الاستعادة تؤيد الشمال ضد الجنوب بشكل غير مباشر حتى تصير قاعدة الشمال الحصينة فى غزوه للجنوب .

أما باقى النصوص التى ترد هنا فى الصفحات التسالية والتى أشرنا الى مصادرها ، فانها تكشف عن فقر المصادر العربية فيما يتعلق بالحياة الاجتماعية والتفاصيل الدقيقة عن تاريخ **طليطلة** واسهاماتها التى لا شك فيها فى صنع الثقافة الأندلسية ، كما تم اهمال شأن هذه المدينة المركزية الدور بعد سقوطها بشكل واضح مما يجعل المصادر الاسبانية فى هذا الشأن أكثر أهمية وبيانا .

وعموما فاننا أوردنا كل النصوص الذى ظهر فيها اسم **طليطلة** بشكل مباشر حتى لو كان النص يتحدث عن شيء آخر لأن ذلك يكشف عن أهمية هذه المدينة الاستراتيجية وارتباطها بكثير من الأحداث الهامة مثل الفصل الأخير من حياة المنصور بن أبى عامر ، أو ارتباطها الدقيق بالفتنة بل ان الفتنة أديرت من **طليطلة** كما يكشف ما تحت السطور بتلك النصوص . كما أوردنا أيضا نصوصا لم يرد بها اسم **طليطلة** وان كان قد ورد حدث يتصل بملوكها أو حكامها أو ولايتها أو أدبائها أو القلاع والحصون والقرى التابعة لها .

وقد تم تصنيف هذه النصوص فى أقسام كبرى لاستعصاء النصوص على تصنيف أدق لأن طبيعة الكتابة العربية الكلاسيكية الخوض فى أكثر من موضوع والأخذ من كل شيء بطرف .

وأخيرا فاننى أقدم عدة معلومات ينبغى الإشارة إليها :

١ - من مراجعة أخبار سريعة فى مصادر متعددة كان عزل ولاية **طليطلة** متواترا مما يؤكد تصور ابن القوطية عن صعوبة حكم هذه المدينة .

٢ - يورد الجزء من المقتبس لابن حيان تحقيق الحجى خبرا كبيرا المغزى أيضا تحت السطور لا يسعنا الا ايرادها ، وهذا الخبر يتحدث عن رسالة وردت من محمد بن حسن بن قاسم صاحب عدوة القرويين من مدينة فاس تعلن ولاء صاحب الرسالة للحكم وفيما يبدو تطلب من الحكم الحماية كما يفيد النص التالى : «وفى هذا الوقت قدم الى قرطبة الرجال الشداد الجلال الذين أرسل بهم سعادة القائد **طليطلة** وانتقاهم فى ثغرها من ذوي البأس والرجولة ، وكانت عدتهم ألفا وسبعمائة ، وكاد دخولهم معبئين فى الزى الجميل والشكل التام ، قد لبسوا الأقبية البيض ، وتقلدوا السيوف الافرنجية ، وبأيديهم التراس الملونة ، والرماح المستوية الأسنة ، فتقدموا الى الزهراء وعليهم العرفاء الموكلون ، وقعد الوزراء لاعتراضهم ، وأصحاب الحشم معهم ، فكمل اعتراضهم والانفاق فيهم وأزعجوا مع النظر عليهم الى العسكر بالعدوة» . وهذا معناه أن دور **طليطلة** لم يكن سلبيًا فى حماية الجنوب بل وجنوب الجنوب ، انما الأمر أن شأن حكام قرطبة تراوح بين تجنيد امكانيات **طليطلة** والوعى بمكانتها وقدراتها الاستراتيجية من عدمه ، بمعنى أن **طليطلة** لا تتحمل وحدها مسئولية دورها السلبي تجاه الجنوب .

أما وصف النص لهم بأنهم «الرجال الشداد الجلال ... من ذوي البأس والرجولة» فهى صفات تؤكد نص ابن القوطية حول صفات أهل **طليطلة** التى قد تدفعهم بين الحين والحين الى التمرد ، والتمرد ظاهرة أندلسية عامة لكن لهذه

الظاهرة خصوصية في **طليطلة** لأنها كانت نقطة حاكمية لكل الثغور والتمرد فيها يهز حدود الاندلس الشمالية وينتشر الى حد خطير محققا فرص الاختراق للملك الشمال . ومع هذا فمن المؤكد أن **طليطلة** ساهمت في استقرار الجنوب بين الحين والحين برجالها الأشداء طبقا لهذا النص الذى يلفت النظر بحمل هؤلاء الرجال لسيوف افرنجية . ما تلك السيوف الافرنجية ؟ هل يشير النص الى تفوق تكنولوجى للشماليين فى صناعة السلاح مهد لنصرهم النهائى ، وأن أهل **طليطلة** ومعهم أهل الاندلس أصبحوا مستوردين للسلاح وليسوا له بصانعين ؟ ما أكثر ما هو مفقود من تاريخ الأندلس ؟ ان هذه السيوف الافرنجية هل هى مقدمة لدافع الملكين الكاثوليكين التى فرضت تفوقا نهائيا للغرب على كل الشرق لمئات السنين بعد سقوط غرناطة بل وحتى اليوم .

٣ - المعلومة الثالثة وتظهر فى كل الحديث عن طرق الغزو والسفر والتجارة فى الأندلس وهى أن **طليطلة** كانت محطة أساسية فى معظم هذه الطرق ، مما يزيد فى أهميتها الاستراتيجية وسقوطها يشبه سقوط فلسطين اليوم وقطعها جسم العالم العربى الى شطرين .

أن **طليطلة** وردت فى هذه النصوص مرة بهاء ساكنة ومرة بتاء التانيث ، وقد كان هذا التنوع نتيجة أخطاء مطبعية بإيراد الاسم دون تاء التانيث كاملة أى بالهاء الساكنة التى هى أيضا للتانيث ، ولم أحاول تصحيح ذلك ، لأننى مع كتابتها وكتابة أسماء كل المدن التى تنتهى بهذه العلامة التانيثية بالهاء الساكنة ، لأن أسماء الأعلام تستحق التثنية نطقا وكتابة مع اعفائها من قواعد الاعراب .

٥ - لم نثبت الصفحات التى أخذت منها النصوص لأنها تنتمى لمصدرين معروفين بين يدى المتخصصين ومحققهما العظيم احسان عباس فهرس لهما جيدا فلمن أراد العودة الى المصدر عليه مراجعة المادة : **طليطلة** فى فهرس المحقق .

سليمان العطار

مدير المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمديريه

١

طليطلة

وأساطير فتح الأندلس

بين الحقيقة التاريخية والفولكلور

● قال ابن خلكان : «فاغتيب اليونان بالأندلس أتم اغتباط ، واتخذوا دار الحكمة والملك بها **طليطلة** لأنها أوسط البلاد ، وكان أهم الأمور عندهم تحصينها عمن يتصل به خبرها من الأمم ، فنظروا فإذا هو أنه لا يحسدوهم على رغد العيش الا أرباب الشظف والشقاء والتعب ، وهم يومئذ طائفان : العرب ، والبربر ، فخافوهم على جزيرتهم العامرة ، فعزموا على أن يتخذوا لهذين الجنسيتين من الناس طلسما ، فرصدوا لذلك أرسادا ، ولما كان البربر بالقرب منهم وليس [بينهم] سوى تعديّة البحر ويرد عليهم منهم طوائف منحرفة الطباع ، خارجة عن الأوضاع ، ازدادوا منهم نفورا ، وكثر تحذروهم من نسب أو مجاورة ، حتى ثبت ذلك في طبائعهم ، وصار بعضه مركبا في غرائزهم ، فلما علم البربر عداوة أهل الأندلس وبغضهم لهم أبغضوهم وحسدوهم ، فلم تجد أندلسيا الا مبغضا بربريا ، وبالعكس ، الا أن البربر أحوج الى أهل الأندلس ، لوجود بعض الأشياء عندهم وفقدها ببلاد البربر» .

«وكان بنواحي غرب الأندلس ملك يوناني بجزيرة يقال لها «قادس» وكانت له ابنة في غاية الجمال ، فتسامع بها ملوك الأندلس ، وكانت الأندلس كثيرة الملوك ، لكل بلدة أو بلدتين ملك ، فخطبوها ، وخشى أبوها أن زوجها من واحد أسخط الباقين ، فتحير ، وأحضر ابنته ، وكانت الحكمة مركبة في طباع القوم ذكورهم واناثهم ، ولذا قيل : ان الحكمة نزلت من السماء على ثلاثة أعضاء من أهل الأرض : أدمغة اليونان ، وأيدى أهل الصين ، واللسنة العرب ؛ فقال لها : يابنية ، انى أصبحت على حيرة في أمرك ممن يخطبك من الملوك ، وما أرضيت واحدا الا أسخطت الباقين ، فقالت له : اجعل الأمر الى تخلص ، فقال : وما تقترحين ؟ فقالت : أن يكون ملكا حكيما ، فقال : نعم ما اخترته لنفسك . فكتب في أجوبة الملوك الخطاب ، أنها اختارت من الأزواج الملك الحكيم ، فلما وقفوا على الجواب سكت من لم يكن حكيما ، وكان في الملوك الخاطبين حكيما ، فكتب كل واحد منهما : انا الملك الحكيم ، فلما وقف على كتابيهما قال لها : يابنية ، بقى الأمر على اشكال ، وهذان ملكان حكيما ، أيهما أرضيت أسخطت الآخر ، فقالت : سأقترح على كل واحد منهما أمرا يأتى به ، فأيهما سبق الى الفراغ مما التمسست كنت زوجته ، قال : وما الذى تقترحين عليهما ؟ قالت : انا ساكنون بهذه الجزيرة ، ومحتاجون الى أرحى تدور بها ، وانى مقترحة على أحدهما ادارتها بالماء العذب الجارى اليها من ذلك البر ، ومقترحة على الآخر أن يتخذ لى طلسما نحصن به جزيرة الأندلس من البربر ، فاستطرف أبوها ذلك ، وكتب الى الملكين بما قالت ابنته ، فأجاباه الى ذلك ، وتقاسماه على ما اختارا ، وشرع كل واحد منهما فى عمل ما أسند اليه من ذلك» .

«فأما صاحب الرحى فانه عمد الى أشكال اتخذها من الحجارة ضد بعضها الى بعض في البحر المالح الذى بين جزيرة الأندلس والبر الكبير في الموضع المعروف بزقاق سبتة ، وسدد الفرج التى بين الحجارة بما اقتضت حكمته ، وأوصل تلك الحجارة من البر الى الجزيرة ، وآثاره باقية الى اليوم في الزقاق الذى بين سبتة والجزيرة الخضراء - وأكثر أهل الأندلس يزعمون أن هذا أثر قنطرة كان الاسكندر قد عملها ليعبر عليها الناس من سبتة الى الجزيرة ، والله أعلم أى القولين أصح ، غير أن الشائع الى الآن عند الناس هو الثانى - فلما تم تنضيد الحجارة للملك الحكيم جلب الماء العذب من جبل عال في البر الكبير وسلطه من ساقية محكمة وبنى بجزيرة الأندلس رحى على هذه الساقية» .

«وأما صاحب الطلسم فانه أبطأ عمله بسبب انتظار الرصد الموافق لعمله ، غير أنه عمل أمره ، وأحكمه ، وابتنى بنيانا مربعا من حجر أبيض على ساحل البحر في رمل عالج حفر أساسه الى أن جعله تحت الأرض بمقدار ارتفاعه فوق الأرض ليثبت ، فلما انتهى البناء المربع الى حيث اختار صور من النحاس الأحمر والحديد المصفى المخلوطين بأحكم الخلط صورة رجل بربرى ، وله لحية ، وفي رأسه ذؤابة من شعر جعد قائمة في رأسه لجعودتها ، وهو متأبط بصورة كساء قد جمع طرفيه على يده اليسرى بالطف تصوير وأحكمه ، في رجله نعل ، وهو قائم من رأس البناء على مستهدف بمقدار رجليه فقط ، وهو شاهق في الهواء ، طوله نيف عن ستين أو سبعين ذراعا ، وهو محدود الأعلى ، الى أن ينتهى ما سعته قدر ذراع ، وقد مد يده اليمنى بمفتاح قفل قابضا عليه مشيرا الى البحر كأنه يقول : لا عبور ، وكان من تأثير هذا الطلسم في البحر الذى تجاهه أنه لم ير قط ساكنا ولا كانت تجرى فيه قط سفينة بربر حتى سقط المفتاح من يده . وكان الملكان اللذان عملا الرحى والطلسم يتسابقان الى فراغ العمل ، اذ بالسبق يستحق زواج المرأة ، وكان صاحب الرحى فرغ أولا لكنه أخفى أمره عن صاحب الطلسم لئلا يترك عمله فيبطل الطلسم ، لتحظى المرأة بالرحى والطلسم ، فلما علم باليوم الذى يفرغ صاحب الطلسم في آخره أجرى الماء في الجزيرة من أوله وأدار الرحى ، واشتهر ذلك ، فاتصل الخبر بصاحب الطلسم وهو في أعلى القبة يصقل وجهه ، وكان الطلسم مذهبا ، فلما تحقق أنه مسبوق ضعفت نفسه فسقط من أعلى البناء ميتا ، وحصل صاحب الرحى على المرأة والرحى والطلسم ، وكان من تقدم من ملك اليونان يخشى على الأندلس من البربر للسبب الذى قدما ذكره ، فاتفقوا وجعلوا الطلسمات في أوقات اختاروا أرضا لها ، وأودعوا تلك الطلسمات تابوتا من الرخام ، وتركوه في بيت بطليطة ، وركبوا على ذلك الباب قفلا تاكيدا لحفظ ذلك البيت ، فاستمر أمرهم على ذلك» .

«ولما حان وقت انقراض دولة من كان بالأندلس ودخول العرب والبربر إليها ، وذلك بعد مضي ستة وعشرين ملكاً من ملوكهم من تاريخ عمل الطلسمات بطليطلة ، وكان لذريق المذكور آنفاً هو تمام السابع والعشرين من ملوكهم ، فلما اقتعد أريكة الملك قال لوزرائه وخواص دولته وأهل الرأي منهم : قد وقع في نفسي من أمر هذا البيت الذي عليه ستة وعشرون قفلاً شئاً ، وأريد أن أفتحه لأنظر ما فيه ، لأنه لم يعمل عبثاً ، فقالوا : أيها الملك ، صدقت ، انه لم يصنع عبثاً ، ولم يقفل سدى ، والرأي والمصلحة أن تلقى أنت أيضاً عليه قفلاً أسوة بمن تقدمك من الملوك ، وكان أبائك وأجدادك لم يهملوا هذا فلا تهمله ، وسر سيرهم ، فقال لهم : ان نفسي تنازعني الى فتحه ، ولا بد لي منه ، فقالوا له : ان كنت تظن أن فيه مالا فقدره ونحن نجمع لك من أموالنا نظيره ، ولا تحدث علينا بفتحه حادثاً لا نعرف عاقبته ؛ فأصر على ذلك ، وكان رجلاً مهييباً ، فلم يقدرُوا على مراجعته ، وأمر بفتح الأقفال ، وكان على كل قفل مفتاحه معلقاً ، فلما فتح الباب لم ير في البيت شيئاً الا مائدة عظيمة من ذهب وفضة مكللة بالجواهر ، وعليها مكتوب : هذه مائدة سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ، ورأى في البيت ذلك التابوت ، وعليه قفل ، ومفتاحه معلق ، ففتحه ، فلم يجد فيه سوى رق ، وفي جوانب التابوت صور فرسان مصورة بأصباغ محكمة التصوير على أشكال العرب ، وعليهم الفراء ، وهم معممون على ذوائب جعد ، ومن تحتهم الخيل العربية ، وهم متقلدون السيوف المحلاة ، معتقلون الرماح ، فأمر بنشر ذلك الرق ، فاذا فيه : متى فتح هذا البيت وهذا التابوت المقلدان بالحكمة دخل القوم الذين صورهم في التابوت الى جزيرة الأندلس ، وذهب ملك من فيها من أيديهم ، وبطلت حكمتهم ، فلما سمع لذريق ما في الرق ندم على ما فعل ، وتحقق انقراض دولتهم ، فلم يلبث الا قليلاً حتى سمع أن جيشاً وصل من المشرق جهزه ملك العرب ليفتح بلاد الأندلس» انتهى .

فهذا هو بيت الحكمة الذي أشار اليه لذريق ، والله أعلم بحقيقة الأمر في ذلك كله .

على أن في هذا السياق مخالفة لما سنذكره عن بعض ثقات مؤرخي الأندلس وغيرهم في شأن المائدة وغيرها ، وما ذكر في هذه القصة من جلب الماء من بر العدو الخ . فيه بعد عندي ، لأن بلاد الأندلس أكثر بلاد الله مياها وأنهاراً ، فأنى تحتاج الى جلب الماء اليها من العدو الأخرى ؟ الا أن يقال : ان المرأة أرادت تعجيز الرجل بذلك ، أو اختبار حكمته حتى يفعل هذا الأمر الغريب ، وعلم الله من وراء ذلك كله ، وفوق كل ذي علم عليم ، ومنتهى العلم الى الله الحكيم .

[عود الى أخبار الفتح]

وقال ابن حيان في «المقتبس» : «ذكروا أن لذريق لم يكن من أبناء الملوك ، ولا بصحيح النسب في القوط ، وأنه نال الملك من طريق الغصب والتسور عندما مات اغطشة الملك الذي كان قبله ، وكان أثيرا لديه ، مكينا ، فاستصغر أولاده مكانه ، واستمال طائفة من الرجال مالوا معه ، فانتزع الملك من أولاد اغطشة واستبقاهم ، فكانوا هم الذين دبروا عليه - فيما ذكر - عندما لقي رجال العرب المقتحمين عليه بالاندلس من تلقاء بحر الزقاق وعليهم طارق بن زياد مولى موسى بن نصير طماعة منهم في أن يؤدي ويخلص اليهم ملك أبيهم ، فالتقوا بموضع يدعى وادي لكسة من أرض الجزيرة الخضراء من ساحل الأندلس القبلي مكان عبورهم ، وذلك لسبع خلون من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين من الهجرة ، فانهزم القوط أعظم هزيمة ، وقتل ملكهم لذريق ، وغلبت العرب على الأندلس ، فصارت أقصى فتوحهم من أرض المغرب ، ومصادق موعدهم نبأهم ، صلى الله عليه وسلم ، الكفيل بفتح ما بين المشرق والمغرب عليهم بوحى الله تعالى اليه أنجزه لهم بفتح الأندلس ، والله القوة» .

قال : «وقام بأمر العرب بالاندلس منذ فتحت الأمراء المرسلون منهم عليها من قبل أئمة المسلمين بالشرق طوال دولة بنى أمية ، رضى الله تعالى عنهم ، الى أن طرأ اليها فلهم عند غلبة بنى العباس عليهم ، وذلك عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك بن مروان ، فملكها وأعاد اليها الدولة الأموية التي أورثها عقبه حقبة ، فكانت عدة هؤلاء الأمراء من لدن أولهم طارق بن زياد الى آخرهم يوسف بن عبد الرحمن الفهري عشرين عاملا ، وعدة سنيهم بالشمسى خمس وأربعون سنة ، وبالقمرى سبع وأربعون سنة غير أشهر» انتهى .

وقال في موضع آخر ، نقلا عن الرازي : «وافتحت الأندلس في أيام الوليد بن عبد الملك ، فكان فتحها من أعظم الفتوح الزاهية بالصيت في ظهور الملة الحنيفية ، وكان عمر بن عبد العزيز - رضوان الله عليه - متهمما بها ، معتنيا بشأنها ، وقد حولها عن نظر والى افريقية وجرى اليها عاملا من قبله اختاره لها ، دلالة على معنيته بها ، ووقعت المقاسم فيها عن أمره وبفضل رأيه» انتهى .

* * *

[ملخص خبر الفتح من الكتاب الخزائنى وغيره]

وفى الكتاب الخزائنى وغيره سياقة فتح الأندلس على أتم الوجوه ، فلنذكر ملخصه ، قالوا : استعمل أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك - رحمه الله تعالى -

موسى بن نصير مولى عمه عبد العزيز بن مروان ، ويقال : بل هو بكرى ، وذلك أن أباه نصيرا أصله من علوج أصابهم خالد بن الوليد - رضى الله عنه - في عين التمر ، فادعوا أنهم رهن ، وأنهم من بكر بن وائل ، فصار نصير وصيفا لعبد العزيز بن مروان ، فأعتقه ، فمن هذا يختلف فيه ، وقيل : انه لخمى ؛ وعقد له على افريقية وما خلفها في سنة ثمان وثمانين ، فخرج الى ذلك الوجه في نفر قليل من المطوعة ، فلما ورد مصر أخرج معه من جندها بعثا ، وأتى افريقية عمله ، فأخرج من أهائها معه ذوي القوة والجلد ، وصير على مقدمته طارق بن زياد ، فلم يزل يقاتل البربر ويفض جموعهم ، ويفتح بلادهم ومدائنهم ، حتى بلغ طنجة ، وهى قصبة ملك البربر وأم مدائنهم ، فحصرها حتى افتتحها - وقيل : انها لم تكن افتتحت قبله ، وقيل : افتتحت ثم ارتجعت - فأسلم أهلها ، وخطها قيروانا للمسلمين . ثم ساروا الى مدائن على شط البحر فيها عمال لصاحب الأندلس قد غلبوا عليها وعلى ما حولها ، ورأس تلك المدائن سبتة ، وعليها عالج يسمى يليان ، قاتله موسى فألفاه في نجدة وقوة وعدة فلم يطقه ، فرجع الى مدينة طنجة فأقام بمن معه ، وأخذ في الغارات على ما حولهم والتضييق عليهم ، والسفن تختلف اليهم بالميرة والأمداد من الأندلس من قبل ملكها غيطشة ، فهم يذبون عن حريمهم ذباً شديداً ، ويحمون بلادهم حماية تامة ، الى أن هلك غيطشة ملك الأندلس ، وترك أولادا لم يررضهم أهلها للملك ، فاضطرب حبل أهل الأندلس ، ثم تراضوا بعلج من كبارهم يقال له لذريق مجرب شجاع بطل ، ليس من بيت أهل الملك ، الا أنه من قوادهم وفرسانهم ، فولوه أمرهم ، وكانت طليطلة دار الملك بالاندلس حينئذ ، وكان بها بيت مغلق متحامى الفتح على الأيام ، عليه عدة من الأقفال يلزمه قوم من ثقات القوط ، قد وكلوا به لئلا يفتح ، وقد عهد الأول في ذلك الى الآخر ، فكلما قعد منهم ملك أتاه أولئك الموكلون بالبيت فأخذوا منه قفلا وصيروه على ذلك الباب من غير أن يزيلوا قفل من تقدمه ، فلما قعد لذريق هذا ، وكان متهمما يقظا ذا فكر ، أتاه الحراس يسألونه أن يقفل على الباب ، فقال لهم : لا أفعل أو أعلم ما فيه ، ولا بد لي من فتحه ، فقالوا له : أيها الملك ، انه لم يفعل هذا أحد ممن قبلك ، وتناهوا عن فتحه ، فلم يلتفت اليهم ، ومشى الى البيت ، فأعظمت ذلك العجم وضرع اليه أكابرهم في الكف فلم يفعل ، وظن أنه بيت مال ، ففض الأقفال عنه ودخل ، فأصابه فارغا لا شيء فيه ، الا تابوتا عليه قفل ، فأمر بفتحه يحسب أن مضمونه يقنعه نفاسة ، فألفاه أيضا فارغا ليس فيه الا شقة مدرجة قد صورت فيها صور العرب عليهم العمائم وتحتهم الخيول العرب متقلدى السيوف متنكبى القسي رافعى الرايات على الرماح ، وفي أعلاها أسطر مكتوبة بالعجمية ، فقرئت فاذا فيها : اذا كسرت الأقفال عن هذا البيت وفتح هذا التابوت فظهر ما فيه من هذه الصور فان هذه الأمة المصورة في هذه الشقة تدخل

الأندلس ، فتغلب عليها وتملكها ، فوجم لذريق وندم على ما فعل ، وعظم غمه وغم العجم بذلك ، وأمر برد الأقفال وأقرار الحرس على حالهم ، وأخذ في تدبير الملك ، وذهل عما أنذر به .

وقد كان من سير أكابر العجم بالاندلس وقوادهم أن يبعثوا أولادهم الذين يريدون منفعتهم والتنويه بهم الى بلاد الملك الأكبر بطليطلة ليصيروا في خدمته ، ويتأدبوا بأدبه ، وينالوا من كرامته ، حتى اذا بلغوا أنكح بعضهم بعضا استئلفا لأبائهم ، وحمل صدقاتهم ، وتولى تجهيز انائهم الى أزواجهن . فاتفق أن فعل ذلك يليان عامل لذريق على سبته ، وكانت يومئذ في يد صاحب الاندلس ، وأهلها على النصرانية ، ركب الطريقة بابنة له بارعة الجمال تكرم عليه ، فلما صارت عند لذريق وقعت عينه عليها فأعجبته وأحبها حباً شديداً ، ولم يملك نفسه حتى استكرهها وافتضاها ، فاحتالت حتى أعلمت أباهها بذلك سرا ، بمكاتبة خفية ، فأحفظه شأنها جدا ، واشتدت حميته ، وقال : ودين المسيح لأزيلن سلطانه ، ولأحفرن تحت قدميه ، فكان امتعاضه من فاحشة ابنته هو السبب في فتح الاندلس بالذى سبق من قدر الله تعالى .

ثم ان يليان ركب بحر الزقاق من سبته في أصعب الأوقات في ينير قلب الشتاء ، فصار بالاندلس ، وأقبل الى طليطلة نحو الملك لذريق ، فأنكر عليه مجيئه في مثل ذلك الوقت ، وسأله عما لديه ولم جاء في مثل وقته ؟ فذكر خيرا ، واعتل بذكر زوجته ، وشدة شوقها الى رؤية بنتها التى عنده ، وتمنيها لقاءها قبل الموت ، والحاحها عليه في احضارها ، وأنه أحب اسعافها ، ورجا بلوغها أمنيته منها ، وسأل الملك اخراجها اليه ، وتعجيل اطلاقه للمبادرة بها ، ففعل ، وأجاز الجارية، وتوثيق منها بالكتمان عليه ، وأفضل على أبيها ، فانقلب عنه ، وذكروا أنه لما ودعه قال له لذريق : اذا قدمت علينا فاستقره لنا من الشذائعات التى لم تزل تطرفنا بها فانها آثر جوارحنا لدينا ، فقال له : أيها الملك ، وحق المسيح لئن بقيت لأدخلن عليك شذائعات ما دخل عليك قط - عرض له بالذى أضمره من السعي في ادخال رجال العرب عليه وهو لا يفطن - فلم يتنهه يليان عندما استقر بسبته عمله أن تهيأ للمسير نحو موسى بن نصير الأمير ، فمضى نحوه بافريقية ، وكلمه في غزو الاندلس ، ووصف له حسناتها وفضلها ، وما جمعت من أسباب المنافع ، وأنواع المرافق ، وطيب المزارع ، وكثرة الثمار ، وثرارة المياه وعذوبتها ، وهو ن عليه مع ذلك حال رجالها ، ووصفهم بضعف البأس وقلة الغناء ، فشوق موسى الى ما هناك ، وأخذ بالحزم فيما دعاه اليه يليان ، فعاقده على الانحراف الى المسلمين ، واستظهر عليه بأن سامه مكاشفة أهل ملته من الاندلس المشركين والاستخراج اليهم بالدخول اليها وشن الغارة فيها ، ففعل

يليان ذلك ، وجمع جمعا من أهل عمله ، فدخل بهم في مركبين وحمل بساحل الجزيرة الخضراء ، فأغار وقتل وسبى وغنم ، وأقام بها أياما ، ثم رجع بمن معه سالمين ، وشاع الخبر عند المسلمين ، فأنسوا بيليان واطمأنوا اليه ، وكان ذلك عقب سنة تسعين ، فكتب موسى بن نصير الى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك يخبره بالذى دعاه اليه يليان من أمر الاندلس ، ويستأذنه في اقتحامها ، فكتب اليه الوليد : أن خضها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها ، ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال ، فراجع أنه ليس ببحر زخار ، وإنما هو خليج منه يبين للنظر ما خلفه ، فكتب اليه : وإن كان فلا بد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه . فبعث موسى عند ذلك رجلا من مواليه من البرابرة اسمه طريف يكنى أبا زرعة في أربعمئة رجل معهم مائة فارس سار بهم في أربعة مراكز ، فنزل بجزيرة تقابل جزيرة الاندلس المعروفة بالخضراء التى هى اليوم معبر سفائنهم ودار صناعتهم ، ويقال لها اليوم «جزيرة طريف» لنزوله بها ، وأقام بها أياما حتى تنام اليه أصحابه ، ثم مضى حتى أغار على الجزيرة فأصاب سبيا لم ير موسى ولا أصحابه مثله حسنا ، وما لا جسيما ، وأمتعة ، وذلك في شهر رمضان سنة احدى وتسعين ، فلما رأى الناس ذلك تسرعوا الى الدخول ، وقيل : دخل طريف في ألف رجل ، فأصاب غنائم وسبيا ، ودخل بعده أبو زرعة شيخ من البرابرة ، وليس بطريف ، في ألف رجل منهم أيضا فأصابوا أهل الجزيرة قد تفرقوا عنها ، فصرموا عامتها بالنار ، وحرقوا كنيسة بها كانت عندهم معظمة ، وأصابوا سبيا يسيرا ، وقتلوا وانصرفوا سالمين .

وقال الرازى : هو أبو زرعة طريف بن مالك المعافرى ، الاسم طبق الكنية .

قالوا : ثم عاود يليان القدوم على موسى بن نصير محركا في الاقتحام على أهل الاندلس ، وخبره بما كان منه ومن طريف وأبى زرعة ، وما نالوه من أهلها ، وياشروه من طيبيها ، فحمد الله على ذلك ، واستجد عزما في اقحام المسلمين فيها ، فدعا مولى له كان على مقدمته يسمى طارق بن زياد بن عبد الله فارسيا همدانيا - وقيل : انه ليس بمولى لموسى ، وإنما هو رجل من صدف ، وقيل : مولى لهم ، وقد كان بعض عقبه بالاندلس ينكرون ولاء موسى انكارا شديدا ، وقيل : انه بربرى من نفزة - فعقد له موسى ، وبعثه في سبعة آلاف من المسلمين جلهم البربر والموالي ، وليس فيهم عرب الا قليل ، ووجه معه يليان ، فهيأ له يليان المراكب ، فركب في أربع سفن لا صناعة له غيرها ، وحط بجبل طارق المنسوب اليه يوم سبت في شعبان سنة اثنتين وتسعين ، في شهر أغشت ، ثم صر المراكب الى من خلفه من أصحابه ، فركب من بقى من الناس ، ولم تزل السفائن تختلف اليهم حتى توافى جميعهم عنده بالجبل ، وقيل : حل طارق بجبله يوم الاثنين

لخمس خلون من رجب من السنة في اثنى عشر ألفا غير ستة عشر رجلا من البرابرة ، ولم يكن فيهم من العرب الا يسير ، أجازهم يليان الى ساحل الاندلس في مراكب التجار من حيث لم يعلم بهم ، أولا أولا ، وركب أميرهم طارق آخرهم .

قيل : وأصاب طارق عجوزا من أهل الجزيرة ، فقالت له في بعض قولها : انه كان لها زوج عالم بالحداثان فكان يحدثهم عن أمير يدخل الى بلدهم هذا ، ويغلب عليه ، ويصف من نعته أنه ضخم الهامة ، فأنت كذلك ، ومنها أن في كتفه الأيسر شامة عليها شعر ، فان كانت بك هذه العلامة فأنت هو ، فكشف طارق ثوبه فاذا بالشامة في كتفه على ما ذكرته العجوز ، فاستبشر بذلك هو ومن معه .

وذكر عن طارق أنه كان نائما في المركب فرأى في منامه النبي ، صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء الأربعة أصحابه عليهم السلام يمشون على الماء حتى مروا به ، فبشره النبي ، صلى الله عليه وسلم ، بالفتح ، وأمره بالرفق بالمسلمين ، والوفاء بالعهد . وقيل : انه لما ركب البحر غلبته عينه فكان يرى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وحوله المهاجرون والأنصار قد تقلدوا السيوف وتنكبوا القسي ، فيقول له رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : يا طارق ، تقدم لشأنك ، ونظر اليه واني أصحابه قد دخلوا الاندلس قدماه ، فهب من نومه مستبشرا ، وبشر أصحابه ، وثابت اليه نفسه ثقة ببشراه ، فقويت نفسه ، ولم يشك في الظفر ، فخرج من البلد ، واقتحم بسيط البلاد شانا للغارة .

قالوا : ووقع على لذريق الملك خبر اقتحام العرب ساحل الاندلس ، وتوالى غاراتهم على بلد الجزيرة ، وأن يليان السبب فيها ، وكان يومئذ غائبا بأرض بنبلونة في غزاة له الى البشكنس لأمر كان استصعب عليه بناحياتهم ، فعظم عليه ، وفهم الأمر الذي منه أتى ، وأقبل مبادرا الفتق في جموعه ، حتى احتل بمدينة قرطبة من الوسطة ، ونزل القصر المدعو بها ببلاط لذريق المنسوب اليه ، وليس لأنه بناه أو اخترعه — وهو بناء من تقدمه من الملوك اتخذوه لمنزلهم في قرطبة اذا أتوها — الا أن العرب لما غلبوا لذريق وهذا القصر من موطنه نسبوه اليه ، اذ لم يعرفوا من بناه . ويزعم العجم أن الذي بناه ملك منهم كان ساكنا بحصن الدور أسفل قرطبة ، وخرج يوما يتصيد حتى انتهى الى مكان قرطبة وهى يومئذ خراب ، وكان في موضع قصرها غيضة عليق ملتفة أشبه ، فأرسل الملك بازيا له يكرم عليه على حجلة غنت له من ناحية الكدية المنسوبة بعد الى أبى عبدة ، فتخبت في ذلك العليق ، ولج البازي في الانقضاض عليها ، فركض الملك خلفه حتى وقف على مكانه بالحرجة ، فأمر بقطعها لاستنقاذ بازيه ضنا منه به ، فقطعت ، وبدأ له تحتها أساس قصر عظيم راقه رصه ، وقد كان ذا همة ، فأمر بالكشف عنه ، وتقصى حدوده طولا وعرضا ، وتتبع أسه وأصله ، فوجده مبنيا من وجه الماء

بصم الحجارة فوق زرجون وضع بينها وبين الماء بأحكام صناعة ، فقال : هذا أثر ملك كريم ، وأنا أولى من جدده ، فأمر بإعادته الى هيأته ، واتخذة منزلا من منازل راحاته ، فكان اذا طاف بعمله أو مضى في متصيده نزل فيه ، وصار السبب في بناء قرطبة الى جنبه ، ونزول الناس فيها ، وتوارث الملوك قصرها من بعد ، ونزله لذريق في زحفه الى العرب أياما ، والحشود من أعماله تتوافى اليه ، ثم مضى نحو كورة شدونة يبغي لقاءهم في حشوده الكثيرة .

وقيل : ان آخر ملوك الاندلس الذين تلتهم العرب غيطشة ، وانه هلك عن أولاد ثلاثة صغار لم يصلحوا للملك ، فضبطت أمهم عليهم ملك والسدهم بطليطلة ، وانحرف لذريق قائد الخيل لوالدهم فيمن تبعه عنهم ، فصار بقرطبة ، فلما اقتحم طارق الاندلس نفر اليه لذريق واستنفر اليه أجناد أهل الاندلس ، وكتب الى أولاد غيطشة - وقد ترعرعوا ، وركبوا الخيل ، واتخذوا الرجال - يدعوهم الى الاجتماع معه على حرب العرب ، ويحذرهم من القعود عنه ، ويحضهم على أن يكونوا على عدوهم يدا واحدة ، فلم يجدوا بدا ، وحشدوا ، وقدموا عليه بقرطبة ، فنزلوا أكناف قرية شقندة بعدوة نهرها قبالة القصر ، ولم يطمئنا الى الدخول على لذريق أخذا بالحرز ، الى أن استتب جهاز لذريق وخرج ، فانضموا اليه ، ومضوا معه وهم مرصدون لمكروهه . والأصح - والله أعلم - ما سبق أن ملك القوط اجتمع للذريق ، واختلف في اسمه فقيل : رذريق - بالراء أوله - وقيل : باللام للذريق وهو الأشهر ، وقيل : ان أصله من اصبهان ويسمى الاشبان ، والله أعلم .

قالوا : وعسكر لذريق في نحو مائة ألف ذوي عدد وعدة ، فكتب طارق الى موسى يستمده ويعرفه أنه فتح الجزيرة الخضراء فرضة الاندلس ، وملك المجاز اليها ، واستولى على أعمالها الى البحيرة ، وأن لذريق زحف اليه بما لا قبل له به ، الا أن يشاء الله ، وكان موسى منذ وجه طارقا لوجهه ، قد أخذ في عمل السفن حتى صار عنده منها عدة كثيرة ، فحمل الى طارق فيها خمسة آلاف من المسلمين مددا كملت بهم عدة من معه اثني عشر ألفا أقوياء على المغانم ، حراسا على اللقاء ومعهم يليان المستأمن اليهم في رجاله وأهل عمله يدلهم على العورات ، ويتجسس لهم الأخبار ، وأقبل نحوهم لذريق في جموع العجم ، وملوكها وفرسانها ، فقتلوا فيما بينهم وقال بعضهم لبعض : ان هذا ابن الخبيثة قد غلب على سلطائنا ، وليس من أهله ، وانما كان من أتباعنا ، فلسنا نعدم من سيرته خيالا في أمرنا ، وهؤلاء القوم الطارقون لا حاجة لهم في استيطان بلدنا ، وانما مرادهم أن يملأوا أيديهم من الغنائم ، ثم يخرجوا عنا ، فهلم فلننهزم بابن الخبيثة اذا نحن لقينا القوم لعلهم يكفوننا ايأه ، فاذا انصرفوا عنا أقعدنا في ملكنا من يستحقه ، فأجمعوا على ذلك ، والقضاء يبرم ما ارتأوه .

وكان لذريق ولي ميمنته أحد ابني غيطشة ، وميسرته الآخر ، فكأننا رأسي الذين أداروا عليه الهزيمة ، وأداهما الى ذلك طمع رجوع ملك والدهما اليهما .

وقيل : لما تقابل الجيشان أجمع أولاد غيطشة على الغدر بلذريق ، وأرسلوا الى طارق يعلمونه أن لذريق كان تابعاً وخادماً لأبيهم فغلبهم على سلطانه بعد مهلكه وأنهم غير تاركى حقهم لديه ، ويسألونه الأمان على أن يميلوا اليه عند اللقاء فيمن يتبعهم ، وأن يسلم اليهم اذا ظفر ضياع والدهم بالاندلس كلها ، وكانت ثلاثة آلاف ضيعة نفائس مختارة ، وهى التى سميت بعد ذلك صفايا الملوك ، فأجابهم الى ذلك ، وعاقدهم عليه ، فالتقى الفريقان من الغد ، فانحاز الأولاد الى طارق ، فكان ذلك أقوى أسباب الفتح ، وكان الالتقاء على وادي لكة من كورة شذونة ، فهزم الله الطاغية لذريق وجموعه ، ونصر المسلمين نصراً لا كفاء له ، ورمى لذريق نفسه فى وادي لكة وقد أثقلته السلاح ، فلم يعلم له خبر ولم يوجد .

وقيل : نزل طارق بالمسلمين قريبا من عسكر لذريق منسلخ شهر رمضان سنة ٩٢ ، فوجه لذريق علجا من أصحابه قد عرف نجدته ووثق ببأسه ليشرف على عسكر طارق فيحزر عددهم ويعاين هيئاتهم ومراكبهم ، فأقبل ذلك العليج حتى طلع على العسكر ، ثم شد فى وجوه من استشرقه من المسلمين ، فوثبوا اليه ، فولى منصرفا راكضا ، وفاتهم بسبق فرسه ، فقال العليج للذريق : أنتك الصور التى كشف لك عنها التابوت ، فخذ على نفسك ، فقد جاءك منهم من لا يريد الا الموت أو اصابة ما تحت قدميك ، قد حرقوا مراكبهم اياسا لأنفسهم من التعلق بها ، وصفوا فى السهل موطنين أنفسهم على الثبات ، اذ ليس لهم فى أرضنا مكان مهرب ، فرعب وتضاعف جزعه ، والتقى العسكران بالبحيرة ، واقتتلوا قتالا شديدا ، الى أن انهزمت ميمنة لذريق وميسرته ، انهزم بهما أبناء غيطشة ، وثبت القلب بعدهما قليلا وفيه لذريق ، فعذر أهله بشيء من قتال ، ثم انهزموا ولذريق أمامهم ، فاستمرت هزيمتهم ، وأذرع المسلمون القتل فيهم ، وخفى أثر لذريق فلا يدرى أمره ، الا أن المسلمين وجدوا فرسه الأشهب الذى فقد وهو راكبه ، وعليه سرج له من ذهب مكلل بالياقوت والزبرجد ، ووجدوا أحد خفيه وكان من ذهب مكلل بالدر والياقوت ، وقد ساخ الفرس فى طين وحماة ، وغرق العليج ، فثبت أحد خفيه فى الطين فأخذ ، وخفى الآخر ، وغاب شخص العليج ولم يجد حيا ولا ميتا ، والله أعلم بشأنه .

وقال الرازى : كانت الملاقاة يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان ، فاتصلت الحرب بينهم الى يوم الأحد لخمس خلون من شوال بعد تتمة ثمانية أيام ، ثم هزم الله المشركين ، فقتل منهم خلق عظيم ، أقامت عظامهم بعد ذلك بدهر طويل

ملبسة لتلك الأرض ، قالوا : وحاز المسلمون من عسكريهم ما يجلب قدره ، فكانوا يعرفون كبار العجم وملوكهم بخواتم الذهب يجدونها في أصابعهم ويعرفون من دونهم بخواتم الفضة ، ويميزون عبيدهم بخواتم النحاس ، فجمع طارق الفيء وخمسه ، ثم اقتسمه أهله على تسعة آلاف من المسلمين سوى العبيد والأتباع ، وتسامع الناس من أهل بر العدو بالفتح على طارق بالاندلس وسعة المغانم فيها ، فأقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر ، فلحقوا بطارق ، وارتفع أهل الاندلس عند ذلك الى الحصون والقلاع ، وتهاربوا من السهل ولحقوا بالجبال ، ثم أقبل طارق حتى نزل بأهل مدينة شذونة ، فامتنعوا عليه ، فشدد الحصر عليهم حتى نهكهم وأضرهم ، فتهيا له فتحها عنوة ، فحاز منها غنائم ، ثم مضى منها الى مورور ، ثم عطف الى قرمونة فمر بعينه المنسوبة اليه ، ثم مال على اشبيلية فصالحه أهلها على الجزية ، ثم نازل أهل استجة وهم في قوة ومعهم فل عسكر لذريق ، فقاتلوا قتالا شديدا حتى كثر القتل والجراح بالمسلمين ، ثم ان الله تعالى أظهر المسلمين عليهم ، فانكسروا ولم يلق المسلمون فيما بعد ذلك حربا مثلها ، وأقاموا على الامتناع الى أن ظفر طارق بالعلاج صاحبها ، وكان مغترا سييء التدبير ، فخرج الى النهر لبعض حاجاته وحده ، فصادف طارقا هناك قد أتى لمثل ذلك ، وطارق لا يعرفه ، فوثب عليه طارق في الماء ، فأخذه وجاء به الى العسكر ، فلما كاشفه اعترف له بأنه أمير المدينة ، فصالحه طارق على ما أحب ، وضرب عليه الجزية ، وخلي سبيله ، فوفى بما عاهد عليه ، وقذف الله الرعب في قلوب الكفرة لما رأوا طارقا يوغل في البلاد ، وكانوا يحسبونه راغبا في المغنم عاملا على القبول ، فسقط في أيديهم ، وتطايروا عن السهول الى المعقل ، وصعد ذوو القوة منهم الى دار مملكتهم **طليطلة** ، قيل : وكان من ارهاب طارق لنصارى الاندلس وحيله أن تقدم الى أصحابه في تفصيل لحوم القتلى بحضرة أسراهم وطبخها في القدور ، يرونهم أنهم يأكلونها ، فجعل من انطلق من الأسرى يحدثون من وراءهم بذلك فتمتلىء منه قلوبهم رعبا ويجفلون فرارا ، قالوا : وقال يليان لطارق : قد فضضت جيوش القوم ورعبوا ، فاصمد لبيضتهم ، وهؤلاء أدلاء من أصحابي مهرة ، ففرق جيوشك معهم في جهات البلاد ، واعمد أنت الى **طليطلة** حيث معظمهم ، فاشغل القوم عن النظر في أمرهم والاجتماع الى أولى رأيهم ، ففرق طارق جيوشه من استجة ، فبعث مغيثا الرومي مولى الوليد ابن عبد الملك الى قرطبة ، وكانت من أعظم مدائنهم ، في سبعمائة فارس ، لأن المسلمين ركبوا جميعا خيل العجم ، ولم يبق فيهم راجل ، وفضلت عنهم الخيل ، وبعث جيشا آخر الى مالقة ، وآخر الى غرناطة مدينة البيرة ، وسار هو في معظم الناس الى كورة جيان يريد **طليطلة** ، وقد قيل : ان الذي سار لقرطبة طارق بنفسه ، لا مغيث ، قالوا : فكمنوا بعودة نهر شقندة في غيضة أرز شامضة ، وأرسلت

الأدلاء فأمسكوا راعى غنم فسئل عن قرطبة فقال : رحل عنها عظماء أهلها الى **طليطلة** ، وبقي فيها أميرها في أربعمائة فارس من حماتهم مع ضعفاء أهلها ، وسئل عن سورها فأخبر أنه حصين عال فوق أرضها الا أنه فيه ثغرة ووصفها لهم فلما أجنهم الليل أقبلوا نحو المدينة ووطأ الله لهم أسباب الفتح بأن أرسل السماء برذاذ أخفى دققة حوافر الخيل ، وأقبل المسلمون رويدا حتى عبروا نهر قرطبة ليلا ، وقد أغفل حرس المدينة احتراس السور ، فلم يظهروا عليه ضيقا بالذى نالهم من المطر والبرد ، فترجل القوم حتى عبروا النهر ، وليس بين النهر والسور الا مقدار ثلاثين ذراعا أو أقل ، وراموا التعلق بالسور فلم يجدوا متعلقا ، ورجعوا الى الراعى في دلالتهم على الثغور التى ذكرها ، فأراهم اياها ، فاذا بها غير متسهلة التسنم ، الا أنه كانت في أسفلها شجرة تين مكنت أفنانها من التعلق بها ، فصعد رجل من أشداء المسلمين في أعلاها ، ونزع مغيث عمامته فناوله طرفها ، وأعان بعض الناس بعضا حتى كثروا على السور ، وركب مغيث ووقف من خارج ، وأمر أصحابه المرتقين للسور بالهجوم على الحرس ، ففعلوا ، وقتلوا نفرا منهم ، وكسروا أقفال الباب ، وفتحوه ، فدخل مغيث ومن معه وملكوا المدينة عنوة ، فصعد الى البلاط منزل الملك ومعه أدلاؤه ، وقد بلغ الملك دخولهم المدينة فبادر بالفرار عن البلاط فى أصحابه ، وهم زهاء أربعمائة ، وخرج الى كنيسة بغربى المدينة ، وتحصن بها ، وكان الماء يأتيها تحت الارض من عين فى سفح جبل ، ودافعوا عن أنفسهم ، وملك مغيث المدينة وما حولها ؛ وقال من ذهب الى أن طارقا لم يحضر فتح قرطبة وأن فاتحها مغيث : انه كتب الى طارق بالفتح ، وأقام على محاصرة العليج بالكنيسة ثلاثة أشهر ، حتى ضاق من ذلك وطال عليه ، فتقدم الى أسود من عبيده اسمه رياح ، وكان ذا بأس ونجدة ، بالكمون فى جنان الى جانب الكنيسة ملتفة الاشجار ، لعله أن يظفر له العليج يقف به على خير القوم ، ففعل ، ودعاه ضعف عقله الى أن صعد فى بعض تلك الاشجار ، وذلك أيام الثمر ، ليجنى ما يأكله ، فبصر به أهل الكنيسة ، وشدوا عليه ، فأخذوه فملكوه ، وهم فى ذلك هائبون له منكرون لخلقه ، اذ لم يكونوا عاينوا أسود قبله ، فاجتمعوا عليه ، وكثر لغطهم وتعجبهم من خلقه ، وحسبوا أنه مصبوغ أو مطلى ببعض الاشياء التى تسود ، فجردوه وسط جماعتهم ، وأدنوه الى القناسة التى منها كان يأتيهم الماء ، وأخذوا فى غسله وتدليكه بالحبال الحرش ، حتى أدموه وأعتنوه ، فاستغاثهم ، وأشار الى أن الذى به خلقه من بارئهم ، عز وجل ، ففهموا اشارته ، وكفوا عن غسله ، واشتد فزعهم منه ، ومكث فى اسارهم سبعة أيام لا يتحركون التجمع عليه والنظر اليه الى أن يسر الله له الخلاص ليلا ، ففر وأتى الأمير مغيثا فخبره بشأنه وعرفه بالذى أطلع عليه من موضع الماء الذى ينتابونه ، ومن أى ناحية يأتيهم ، فأمر أهل المعرفة بطلب تلك القناة فى الجهة التى أشار اليها الأسود

حتى أصابوها ، فقطعوها عن جريتها الى الكنيسة ، وسدوا مناقضها ، فأيقنوا بالهلاك حينئذ ، فدعاهم مغيث الى الاسلام أو الجزية ، فأبوا عليه ، فأوقد النار عليهم حتى أحرقهم فسميت كنيسة الحرقى ، والنصارى تعظمها لصبر من كان فيها على دينهم من شدة البلاء ؛ غير أن العليج أميرهم رغب بنفسه عن بليتهم عند ايقان الهلاك ، ففر عنهم وحده ، وقد استغفلهم ورام اللحاق بطليلة ، فتمى خبره الى مغيث ، فبادر الركض خلفه وحده ، فلحقه بقرب قرية تطليرة هاربا وحده وتحت فرس أصفر ذريع الخطو ، وحرك مغيث خلفه ، فالتفت العليج ودهش لما رأى مغيثا قد رهقه ، وزاد في حث فرسه فقصر به ، فسقط عن الفرس واندقت عنقه ، فقعد على ترسه مستأسرا قد هاضته السقطة ، فقبض عليه مغيث ، وسلبه سلاحه ، وحبسه عنده ليقدم به على أمير المؤمنين الوليد ، ولم يؤسر من ملوك الاندلس غيره ، لأن بعضهم استأمن وبعضهم هرب الى جليقية . وفي رواية أن مغيثا استنزل أهل الكنيسة بعد أسره لملكهم ، فضرب أعناقهم جميعا ، فمن أجل ذلك عرفت بكنيسة الأسرى وأن مغيثا جمع يهود قرطبة فضمهم الى مدينتها استنامة اليهم ، دون النصارى ، للعداوة بينهم ، وأنه اختار القصر لنفسه ، والمدينة لأصحابه .

وأما من وجه الى مالقة ففتحوها ، ولجأ علوجها الى جبال هناك ممتنعة ، ثم لحق ذلك الجيش بالجيش المتوجه الى البيرة ، فحاصروا مدينتها غرناطة ، فافتتحوها عنوة ، وضموا اليهود الى قصبة غرناطة ، وصار ذلك لهم سنة متبعة في كل بلد يفتتحونه أن يضموا يهوده الى القصبة مع قطعة من المسلمين لحفظها ، ويمضى معظم الناس لغيرها ، وإذا لم يجدوا يهودا وفروا عدد المسلمين المخلفين لحفظ ما فتح ، ثم صنعوا عند فتح كورة رية التي منها مالقة مثل ذلك .

ومضى الجيش الى تدمير ، وتدمير : اسم العليج صاحبها ، سميت به ، واسم قصبتها أريولة ، ولها شأن في المنعة ، وكان ملكها علجا داهية ، وقاتلهم مضحيا ، ثم استمرت عليه الهزيمة في فحصها ، فبلغ السيف في أهلها مبلغا عظيما أفنى أكثرهم ولجأ العليج الى أريولة في يسير من أصحابه لا يغنون شيئا ، فأمر النساء بنشر الشعور وحمل القصب والظهور على السور في زي القتال متشبهات بالرجال ، وتصدر قدامهن في بقية أصحابه يغالط المسلمين في قوته على الدفاع عن نفسه ، فكره المسلمون مراسه لكثرة من عاينوه على السور ، وعرضوا عليه الصلح ، فأظهر الميل اليه ، ونكر زيه ، فنزل اليهم بأمان على أنه رسول ، فصالحهم على أهل بلده ، ثم على نفسه ، وتوثق منهم ، فلما تم له من ذلك ما أراد عرفهم بنفسه ، واعتذر اليهم بالابقاء على قومه ، وأخذهم بالوفاء بعهده ، وأدخلهم المدينة ، فلم يجدوا فيها الا العيال والذرية ، فندموا على الذي أعطوه من الأمان ،

واسترجعوه فيما احتال به ، ومضوا على الوفاء له ، وكان الوفاء عادتهم ، فسلمت كورة تدمير من معرفة المسلمين بتدبير تدمير ، وصارت كلها صلحا ليس فيها عنوة ، وكتبوا الى أميرهم طارق بالفتح ، وخلفوا بقصبة البلد رجالا منهم ، ومضى معظمهم الى أميرهم لفتح **طليطلة** .

قال ابن حيان : وانتهى طارق الى **طليطلة** دار مملكة القوط ، فألفاها خالية قد فر أهلها عنها ولجأوا الى مدينة بها خلف الجبل ، فضم اليهود الى **طليطلة** ، وخلف بها رجالا من أصحابه ، ومضى خلف من فر من أهل **طليطلة** فسلوك الى وادي الحجارة ، ثم استقبل الجبل فقطعه من فج سمى به بعد ، فبلغ مدينة المائدة خلف الجبل ، وهي المنسوبة لسليمان بن داود عليهما السلام ، وهي خضراء من زبرجدة حافات منها وأرجلها ، وكان لها ثلاثمائة وخمس وستون رجلا ، فأحرزها عنده ، ثم مضى الى المدينة التي تحصنوا بها خلف الجبل ، فأصاب بها حليبا ومالا ، ورجع ولم يتجاوزها الى **طليطلة** سنة ثلاث وتسعين . وقيل : انه لم يرجع ، بل اقتحم أرض جليقية واخترقها حتى انتهى الى مدينة استرقة ، فدوخ الجهة ، وانصرف الى **طليطلة** ، والله أعلم . وقيل : ان طارقا دخل الاندلس بغير أمر مولاه موسى بن نصير ، فانه أعلم . قال بعضهم : وكانت اقامته في الفتوح وتدويخ البلاد الى أن وصل سيده موسى بن نصير سنة ، وكان ما سيذكر .

وأُنشد في «المشهب» وابن اليسع في «المعرب» لطارق من قصيدة قالها في الفتح :

ركبنا سفينا بالمجاز مقيرا عسى أن يكون الله منا قد اشترى
نفوسا وأموالا وأهلا بجنة اذا ما اشتهينا الشيء فيها تيسرا
ولسنا نبالي كيف سالت نفوسنا اذا نحن أدركنا الذي كان أجدرنا

قال ابن سعيد : وهذه الأبيات مما يكتب لمراعاة قائلها ومكانته ، لا لعلو طبقتها ، انتهى .

وأما أولاد غيطشة فانهم لما صاروا الى طارق بالأمان ، وكانوا سبب الفتح حسبما تقدم ، قالوا لطارق : أنت أمير نفسك أم فوقك أمير ؟ فقال : بل على رأسى أمير ، وفوقك ذلك الأمير أمير عظيم ، فاستأذنوه باللاحاق بموسى بن نصير بأفريقية ليؤكد سببهم به ، وسألوه الكتاب اليه بشأنهم معه ، وما أعطاهم من عهده ، ففعل ، وساروا نحو موسى فتلقوه في انحداره الى الأندلس بالقرب من بلاد البربر وعرفوه بشأنهم ، ووقف على ما خاطبه به طارق في ذمتهم وسابقتهم ، فأنفذهم الى أمير المؤمنين الوليد بالشام بدمشق ، وكتب اليه بما عرفه به طارق من جميل أثرهم ، فلما وصلوا الى الوليد أكرمهم وأنفذ لهم عهد طارق في

ضياح والدهم ، وعقد لكل واحد منهم سجلا ، وجعل لهم أن لا يقوموا لداخل عليهم ، فقدموا الأندلس ، وحازوا ضياح والدهم أجمع ، واقتسموها على موافقة منهم ، فصار منها لكبيرهم ألمند ألف ضيعة في غرب الأندلس ، فسكن من أجلها اشبيلية مقربا منها ، وصار لأرطباش ألف ضيعة ، وهو تلوه في السن ، وضياحه في موسطة الأندلس ، فسكن من أجلها قرطبة ، وصار لثالثهم وقلعة ألف ضيعة في شرقى الأندلس وجهة الثغر ، فسكن من أجلها مدينة **طليطلة** ، فكانوا على هذه الحال صدر الدولة العربية ، الى أن هلك ألمند كبيرهم ، وت خلف ابنه سارة المعروفة بالقوطية وابنين صغيرين ، فبسط يده أرطباش على ضياحهم ، وضمها الى ضياحه ، وذلك في خلافة أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك ، فأنشأت سارة بنت ألمند مركبا باشبيلية حصينا كامل العدة ، وركبت فيه مع أخويها الصغيرين تريد الشام حتى نزلت بعسقلان من ساحلها ثم قصدت باب الخليفة هشام بداره بدمشق ، فأنهت خبرها ، وشكت ظلامتها من عمها واستعدت عليه ، واحتجت بالعهد المنعقد لأبيها وأخويه على الخليفة الوليد بن عبد الملك ، فأوصلها هشام الى نفسه ، وأعجبه صورتها وحزمها ، وكتب الى حنظلة بن صفوان عامله بأفريقية بانصافها من عمها أرطباش وامضائها وأخويها على سنة الميراث فيما كان في يد والدها مما قاسم فيه أخويه ، فأنفذ لها الكتاب بذلك الى عامله بالأندلس أبى الخطار ابن عمه ، فتم لها ذلك ، وأنكحها الخليفة هشام من عيسى بن مزاحم ، فابتنى بها بالشام ، ثم قدم بها الى الأندلس ، وقام لها في دفاع عمها أرطباش عن ضياحها ، فنال بها نعمة عظيمة ، وولد له منها ولداه ابراهيم واسحاق فأدركا الشرف المؤثر والرياسة باشبيلية ، وشهرا ونسلهما بالنسبة الى أمهما سارة القوطية ، وكانت أيام وفادتها على الخليفة هشام رأت عنده حفيده عبد الرحمن بن معاوية الداخل بعد الى الأندلس ، وعرفها ، فتوسلت بذلك اليه لما ملك الأندلس ووفدت اليه ، فاعترف بدمامها وأكرمها ، وأذن لها في الدخول الى قصره متى جاءت الى قرطبة فيجدد تكرمها ولا يحجب عياله منها ، وتوفى زوجها عيسى في السنة التي ملك فيها عبد الرحمن الأندلس ، فزوجها عبد الرحمن من عمير بن سعد .

وكان لها ولأبيها ألمند وعمها أرطباش في صدر الدولة العربية بالأندلس أخبار ملوكية : فمنها ما حكاه الفقيه محمد بن عمر بن لبابة المالكي أنه قصد أرطباش يوما الى منزله عشرة من رؤساء رجال الشاميين فيهم الصميل وابن الطفيل وأبو عبدة وغيرهم ، فأجلسهم على الكراسى ، وبألف في تكريمهم ، ودخل على أثرهم ميمون العابد جد بنى حزم ، وكان في عداد الشاميين ، الا أنه كان شديد الانقباض عنهم لزهده وورعه ، فلما بصر به أرطباش قام اليه دونهم أعظاما ، ورقاه الى كرسيه الذي كان يجلس عليه ، وكان ملبسا صفائح الذهب ،

وجذبه ليجلسه مكانه ، فامتنع عليه ميمون ، وقعد على الأرض ، فقعد أرطباش معه عليها ، وأقبل عليه قبلهم ، فقال له : يا سيدى ، ما الذى جاء بك الى مثلى ؟ فقال له : ما تسمعه ، انا قدمنا الى هذا البلد غزاة نحسب أن مقامنا فيه لا يطول ، فلم نستعد للمقام ولا كثرنا من العدة ، ثم حدث بعدنا على موالينا وفى أجنادنا ما قد أيسنا معه من الرجوع الى أوطاننا ، وقد وسع الله عليك ، فأحب أن تدفع الى ضياعا من ضياعك أعتمرها بيدى ، وأودى اليك الحق منها وأخذ الفضل لى طيبا أتعيش منه ، فقال : لا أرضى لك بالمساهمة ، بل أهب لك هبة مسوغة ، ثم دعا بوكيل له فقال له : سلم اليه المجشر الذى لنا على وادي شوش بما لنا فيه من العبيد والدواب والبقر وغير ذلك ، وادفع اليه الضيعة التى بحيان ، فتسلم ميمون الضيعتين وورثهما ولده ، واليهم نسبت قلعة حزم ، فشكره ميمون وأثنى عليه ، وقام عنه . وقد أنف الصميل من قيامه اليه ، فأقبل على أرطباش وقال له : كنت أظنك أرجح وزنا ، أدخل عليك وأنا سيد العرب بالاندلس فى أصحابى هؤلاء ، وهم سادة الموالى ، فلا تزيدنا من الكرامة على الاقعداد على أعوادك هذه ، ويدخل هذا الصعلوك فتصير من اكرامه الى حيث صرت ؟ فقال له : يا أبا جوشن ، ان أهل دينك يخبروننا أن أديهم لم يرهفك ولو كان لم تنكر على ما فعلته ، انكم أكرمكم الله انما تكرمون لدنياكم وسلطانكم ، وهذا انما أكرمته الله تعالى ؛ فقد رويانا عن المسيح ، عليه السلام ، أنه قال : من أكرمه الله تعالى من عباده بالطاعة له وجبت كرامته على خلقه ، فكأنما ألقمه حجرا . وكان الصميل أميا ، فلذلك عرض به ، فقال له القوم : دعنا من هذا ، وانظر فيما قصدنا له ، فحاجتنا حاجة الرجل الذى قصدك فأكرمته ، فانظر فى شأننا ، فقال له : أنتم ملوك الناس ، وليس يرضيكم الا الكثير ، وها أنا أهب لكم مائة ضيعة تقسمونها عشرا عشرا ، وكتب لهم بها ، وأمر وكلاءه بتسليمها اليهم ، فكان القوم يرونها من أطيب أملاكهم ، انتهى .

قال ابن حيان وغيره : ولما بلغ موسى بن نصير ما صنعه طارق بن زياد وما أتيح له من الفتوح حسده ، وتهيأ للمسير الى الاندلس فعسكر وأقبل نحوها ومعه جماعة الناس وأعلامهم ، وقيل : انهم كانوا ثمانية عشر ألفا ، وقيل : أكثر ، فكان دخوله الى الاندلس فى شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين ، وتنكب الجبل الذى حله طارق ، ودخل على الموضع المنسوب اليه المعروف الآن بجبل موسى ، فلما احتل الجزيرة الخضراء قال : ما كنت لأسلك طريق طارق ، ولا أقفو أثره ، فقال له العلوج الأدلاء أصحاب يليان : نحن نسلك بك طريقا هو أشرف من طريقه ، وذلك على مدائن هى أعظم خطرا وأعظم خطيا وأوسع غنما من مدائنه ، لم تفتح بعد ، يفتحها الله عليك ان شاء الله تعالى ، فملء سرورا . وكان شغور طارق قد غمه ، فساروا به فى جانب ساحل شذونة ، فافتتحها عنوة ، وألقوا

بأيديهم اليه ، ثم سار الى مدينة قرمونة ، وليس بالاندلس أحصن منها ، ولا أبعد على من يرومها بحصار أو قتال ، فدخلها بحيلة توجهت بأصحاب يوليان ، دخلوا اليهم كأنهم فلال وطرقهم موسى بخيله ليلا ففتحوها لهم الباب ، وأوقعوا بالأحراس ، فملكوا المدينة . ومضى موسى الى اشبيلية جارتها فحاصرها ، وهى أعظم مدائن الاندلس شأنًا ، وأعجبها بنيانا ، وأكثرها آثارا ، وكانت دار الملك قبل القوطيين ، فلما غلب القوطيون على ملك الاندلس حولوا السلطان الى **طليطلة** ، وبقي رؤساء الدين فيها أعنى اشبيلية ، فامتنتت أشهرًا على موسى ، ثم فتحها الله عليه ، فهرب العلوج عنها الى مدينة باجة ، فضم موسى يهودها الى القسبة ، وخلف بها رجالا ، ومضى من اشبيلية الى لفنت الى مدينة ماردة ، وكانت أيضا دار مملكة لبعض ملوك الاندلس فى سالف الدهر ، وهى ذات عز ومنعة ، وفيها آثار وقصور ومصانع وكنائس جليلة القدر فائقة الوصف ، فحاصرها أيضا ، وكان فى أهلها منعة شديدة وبأس عظيم ، فنالوا من المسلمين دفعات ، وأذوهم ، وعمل موسى دبابة دب المسلمين تحتها الى برج من أبراج سورها جعلوا ينقبونه ، فلما قلعوا الصخر أفضوا بعده الى العمل المدعو بلسان العجم ألاشه ماشه ، فنبت عنه معاولهم وعدتهم ، وثار بهم العدو على غفلة ، فاستشهد بأيديهم قوم من المسلمين تحت تلك الدبابة ، فسمى ذلك الموضع برج الشهداء ، ثم دعا القوم الى السلم ، فترسل اليه فى تقريره قوم من أمثالهم أعطاهم الأمان واحتال فى توهيمهم فى نفسه ، فدخلوا عليه أول يوم ، فاذا هو أبيض الرأس واللحية كما نصل خضابه ، فلم يتفق لهم معه أمر ، وعادوه قبل الفطر بيوم ، فاذا به قد قنأ لحيته بالحناء فجاءت كضرام عرْفَج ، فعجبوا من ذلك ، وعادوه يوم الفطر ، فاذا هو قد سود لحيته ، فازداد تعجبهم منه ، وكانوا لا يعرفون الخضاب ولا استعماله ، فقالوا لقومهم : انا نقاتل أنبياء يتخلقون كيف شاءوا ، ويتصورون فى كل صورة أحبوا ؛ كان ملكهم شيخا فقد صار شابا ، والرأى أن نقاربه ونعطيه ما يسأله ، فما لنا به طاقة ، فأذعنوا عند ذلك ، وأكملوا صلحهم مع موسى على أن أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهاربين الى جليقية وأموال الكنائس وحليها للمسلمين ، ثم فتحوا له المدينة يوم الفطر سنة أربع وتسعين فملكها . ثم ان عجم اشبيلية انتقضوا على المسلمين ، واجتمعوا من مدينتى باجة ولبلبة اليهم ، فأوقعوا بالمسلمين وقتلوا منهم نحو ثمانين رجلا ، وأتى فلهم الأمير موسى وهو بماردة فلما أن فتحها وجه ابنه عبد العزيز بن موسى فى جيش اليهم ففتح اشبيلية وقتل أهلها ، ونهض الى لبلبة ففتحها ، واستقامت الأمور فيما هنالك ، وعلا الاسلام ، وأقام عبد العزيز باشبيلية ، وتوجه الأمير موسى من ماردة فى عقب شوال من العام المؤرخ يريد **طليطلة** ، وبلغ طارقا خبره ، فاستقبله فى وجوه الناس ، فلقية فى موضع من كورة طليطلة ؛ وقيل : ان موسى تقدم من ماردة

فدخل جليقية من فج نسب اليه ، فخرقها حتى وافى طارق بن زياد صاحب مقدمته بمدينة استرقة ، فغض منه علانية ، وأظهر ما بنفسه عليه من حقد ، والله أعلم ؛ وقيل : لما وقعت عينه عليه نزل اليه اعظاما له ، فقتنه بالسوط ، ووبخه على استبداده عليه ومخالفته لرأيه . وساروا الى **طليطلة** ، فطالبه موسى باداء ما عنده من مال الفئء وذخائر الملوك ، واستعجله بالمائدة ، فأتاه بها وقد خلع من أرجلها رجلا وخبأه عنده ، فسأله موسى عنه ، فقال : لا علم لى به ، وهكذا أصبتها ، فأمر موسى فجعل لها رجل من ذهب جاء بعيد الشبه من أرجلها يظهر عليه العمل ، ولم يقدر على أحسن منه ، فأخل بها .

وقال ابن الفرضي : موسى بن نصير صاحب فتح الاندلس لخمى يكنى أبا عبد الرحمن ، يروى عن تميم الدارى ، وروى عنه يزيد بن مسروق اليعصبى .

وقيل : غزا موسى بن نصير فى المحرم سنة ثلاث وتسعين ، فأتى طنجة ، ثم عبر الى الاندلس ، فأدخاها ، لا يأتى على مدينة الا فتحها ونزل أهلها على حكمه ، ثم سار الى قرطبة ، ثم قفل عن الاندلس سنة أربع وتسعين ، فأتى أفريقية ، وسار عنها سنة خمس وتسعين الى الشام يؤم الوليد بن عبد الملك يجر الدنيا بما احتمله من غنائم الاندلس من الأموال والأمتعة يحملها على العجل والظهر ، ومعه ثلاثون ألف رأس من السبي ، فلم يلبث أن هلك الوليد بن عبد الملك وولى سليمان ، فنكب موسى نكب أداه الى المتربة ، فهلك فى نكبته تلك بوادي القرى سنة سبع وتسعين .

قال ابن حيان : وهذه المائدة المنوه باسمها المنسوبة الى سليمان النبى عليه الصلاة والسلام لم تكن له فيما يزعم رواة العجم ، وانما أصلها أن العجم فى أيام ملكهم كان أهل الحسنه منهم اذا مات أحدهم أوصى بمال للكنائس ، فاذا اجتمع عندهم ذلك المال صاغوا منه الآلات الضخمة من الموائد والكراسى وأشباهاها من الذهب والفضة ، تحمل الشمامسة والقسوس فوقها مصاحف الأناجيل اذا أبرزت فى أيام المناسك ، ويضعونها على المذابح فى الأعياد للمباهاة بزيتها ، فكانت تلك المائدة **بطليطلة** مما صيغ فى هذه السبيل ، وتأنقت الأملاك فى تفخيمها ، يزيد الآخر منهم فيها على الأول ، حتى برزت على جميع ما اتخذ من تلك الآلات ، وطار الذكر مطاره عنها ، وكانت مصوغة من خالص الذهب ، مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزمرد ، لم تر الأعين مثلها ، وبولغ فى تفخيمها من أجل دار المملكة ، وأنه لا ينبغي أن تكون بموضع آلة جمال أو متاع مباهاة الا دون ما يكون فيها ، وكانت توضع على مذبح كنيسة **طليطلة** ، فأصابها المسلمون هناك ، وطار النبأ الفخم عنها ، وقد كان طارق ظن بموسى أميره مثل الذى فعل من غيرته على ما تهيأ له ومطالبته له بتسليم ما فى يده اليه ، فاستظهر بانتزاع رجل

من أرجل هذه المائدة خبأه عنده ، فكان من فلجه به على موسى عدوه عند الخليفة
اذ تنازعا عنده بعد الأثر في جهادهما ما هو مشهور ، انتهى .

وقال بعض المؤرخين : ان المائدة كانت مصنوعة من الذهب والفضة ، وكان
عليها طوق لؤلؤ وطوق ياقوت زمرد ، وكلها مكللة بالجواهر ، انتهى .

وما ذكره ابن حيان من أن الذى نكب موسى بن نصير هو سليمان بن عبد
الملك صواب ، وأما ما حكاه ابن خلكان من أن المنكب له الوليد فليس بصحيح ،
والله أعلم .

رجع الى كلام ابن حيان - قالوا : ثم ان موسى اصطلح مع طارق ، واطهر
الرضى عنه ، وأقره على مقدمته على رسمه ، وأمره بالتقدم أمامه في أصحابه ،
وسار موسى خلفه في جيوشه ، فارتقى الى الثغر الأعلى ، واقتتحت سرقسطة
وأعمالها ، وأوغل في البلاد ، وطارق أمامه لا يمران بموضع الا فتح عليهما ،
وغنمهما الله تعالى ما فيه . وقد ألقى الله الرعب في قلوب الكفرة فلم يعارضهما
أحد الا بطلب الصلح ، وموسى يجيء على أثر طارق في ذلك كله ، ويكمل
ابتدائه ، ويوثق للناس ما عاهدوه عليه ، فلما صفا القطر كله وطامن نفوس من
أقام على سلمه ، ووطأ لأقدام المسلمين في الحلول به ، أقام لتمييز ذلك وقتا ،
وأمضى المسلمين الى افرنجة ففتحوا وغنموا وسلموا وعلوا وأوغلوا ، حتى
انتهوا الى وادي رودنة ، فكان أقصى أثر العرب ومنتهى موطئهم من أرض
العجم . وقد دوخت بعوث طارق وسراياه بلد افرنجة فملكيت مدينتي برشلونة
وأربونة وصخرة أبنيون وحصن لودون على وادي رودنة ، فبعدوا عن الساحل
الذى منه دخلوا جدا ، وذكر أن مسافة ما بين قرطبة وأربونة من بلاد افرنجة
ثلاثمائة فرسخ وخمسة وثلاثون فرسخا ، وقيل : ثلاثمائة فرسخ وخمسون
فرسخا ، ولما أوغل المسلمون الى أربونة ارتاع لهم قارله ملك الافرنجة
بالأرض الكبيرة ، وانزعج لانبساطهم ، فحشد لهم ، وخرج عليهم في جمع عظيم ،
فلما انتهى الى حصن لودون وعلمت العرب بكثرة جموعه زالت عن وجهه ، وأقبل
حتى انتهى الى صخرة أبنيون ، فلم يجد بها أحدا ، وقد عسكر المسلمون قدامه
فيما بين الأجل المجاورة لمدينة أربونة ، وهم بحال غرة لا عيون لهم ولا طلائع ،
فما شعروا حتى أحاط بهم عدو الله قارله ، فاقتطعهم عن اللجا الى مدينة أربونة ،
وراضعهم الحرب ، فقاتلوا قتالا شديدا استشهد فيه جماعة منهم ، وحمل
جمهورهم على صفوفه حتى اخترقوها ، ودخلوا المدينة ، ولادوا بحصانتها ،
فنازلهم بها أياما أصيب له فيها رجال ، وتعذر عليه المقام ، وخامره زعر وخوف
مدد للمسلمين ، فزال عنهم راحلا الى بلده ، وقد نصب في وجوه المسلمين حصونا
على وادي رودنة شكها بالرجال فصيرها ثغرا بين بلده والمسلمين ، وذلك بالأرض
الكبيرة خلف الاندلس .

وقال الحجارى فى المسهب : ان موسى بن نصير نصره الله نصراً ما عليه مزيد ، وأجفلت ملوك النصارى بين يديه ، حتى خرج على باب الاندلس الذى فى الجبل الحاجز بينها وبين الأرض الكبيرة ، فاجتمعت الافرنج الى ملكها الأعظم قارله ، وهذه سمة للوكهم ، فقالت له : ما هذا الخزى الباقى فى الأعقاب ؟ كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس ، حتى أتوا من مغربها ، واستولوا على بلاد الاندلس وعظيم ما فيها من العدة والعدد بجمعهم القليل ، وقلّة عدتهم ، وكونهم لا دروع لهم ، فقال لهم ما معناه : الرأى عندى أن لا تعترضوهم فى خرجتهم هذه ، فانهم كالسيل يحمل من يصادره ، وهم فى اقبال أمرهم ، ولهم نيات تغنى عن كثرة العدد ، وقلوب تغنى عن حصانة الدروع ، ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم ، ويتخذوا المساكن ، ويتنافسوا فى الرياسة ، ويستعين بعضهم ببعض ، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر ، قال : فكان والله كذلك بالفتنة التى طرأت بين الشاميين والبلديين والبربر والعرب والمصريين واليمانية ، وصار بعض المسلمين يستعين على بعض بمن يجاورهم من الاعداء ، انتهى .

وقيل : ان موسى بن نصير أخرج ابنه عبد الأعلى الى تدمير ففتحها ، والى غرناطة ومالقة وكورة رية ففتح الكل ، وقيل : انه لما حاصر مالقة - وكان ملكها ضعيف الرأى قليل التحفظ - كان يخرج الى جنان له بجانب المدينة طلباً للراحة من غمة الحصار من غير نصب عين وتقدير طبيعة ، وعرف عبد الأعلى بأمره ، فأكمن له فى جنبات الجنة التى كان ينتابها قوماً من وجوه فرسانه ذوي رأى وحزم ، أرصدوا له ليلاً فظفروا به وملكوه ، فأخذ المسلمون المدينة عنوة ، وملأوا أيديهم غنيمة .

وقيل : كانت نفس موسى بن نصير فى ذلك كله تنزعج الى دخول دار الكفر جليقية ، فبينما هو يعمل فى ذلك ويعد له اذ أتاه مغيث الرومى رسول الوليد ابن عبد الملك ومولاه يأمره بالخروج عن الأندلس والاضراب عن الوغول فيها ، ويأخذه بالقول اليه ، فسأه ذلك ، وقطع به عن ارادته : ان لم يكن فى الاندلس بلد لم تدخله العرب الى وقته ذلك غير جليقية ، فكان ذلك الحرص على اقتحامها ، فلاطف موسى مغيثاً رسول الخليفة ، وسأله انظاره الى أن ينفذ عزمه فى الدخول اليها والمسير معه فى البلاد أياما ويكون شريكه فى الأجر والغنيمة ، ففعل ، ومشى معه حتى بلغ المفازة ، فافتتح حصن باروا وحصن لك ، فأقام هناك ، وبث السرايا حتى بلغوا صخرة بلاي على البحر الأخضر ، فلم تبقى كنيسة الا هدمت ، ولا ناقوس الا كسر ، وأطاعت الأعاجم فلاذوا بالسلم وبذل الجزية ، وسكنت العرب المفاوز ، وكان العرب والبربر كلما مر قوم منهم بموضع استحسّنوه حطوا

به ونزلوه قاطنين ، فاتسع نطاق الاسلام بأرض الأندلس ، وخذل الشرك ، وبينما موسى كذلك في اشتداد الظهور وقوة الأمل ان قدم عليه رسول آخر من الخليفة يكنى أبا نصر أردف به الوليد مغيثا لما استبطأ موسى في القفول ، وكتب اليه يوبخه ، ويأمره بالخروج ، وألزم رسوله ازعاجه ، فانقلع حينئذ من مدينة لك بجليقية ، وخرج على الفج المعروف بفج موسى ، ووافاه طارق في الطريق منصرفا من الثغر الأعلى ، فأقفله مع نفسه ومضيا جميعا ومعهما من الناس من اختار القفول ، وأقام من أثر السكنى في مواضعهم التي كانوا قد اختطوها واستوطنوها ، وقفل معهم الرسولان مغيث وأبو نصر حتى احتلوا باشبيلية ، فاستخلف موسى ابنه عبد العزيز على امارة الاندلس ، وأقره بمدينة اشبيلية لاتصالها بالبحر نظرا لقربه من مكان المجاز ، وركب موسى البحر الى المشرق بذى حجة سنة خمس وتسعين وطارق معه ، وكان مقام طارق بالاندلس قبل دخول موسى سنة وبعد دخوله سنتين وأربعة أشهر ، وحمل موسى الغنائم والسبى ، وهو ثلاثون ألف رأس والمائدة منوها بها ومعها من الذخائر والجواهر ونفيس الأمتعة ما لا يقدر قدره ، وهو مع ذلك متلهف على الجهاد الذى فاتته ، أسيف على ما لحقه من الازعاج ، وكان يؤمل أن يخترق ما بقى عليه من بلد افرنجة ، ويقدم الأرض الكبيرة حتى يتصل بالناس الى الشام مؤملا أن يتخذ مخترقه بتلك الأرض طريقا مهيئا يسلكه أهل الاندلس في مسيرهم ومجيئهم من المشرق واليه على البر لا يركبون بحرا ، وقيل : أنه أوغل في أرض الفرنجة حتى انتهى الى مفازة كبيرة وأرض سهلة ذات آثار ، فأصاب فيها صنما عظيما قائما كالسارية مكتوبا فيه بالنقر كتابة عربية قرئت ، فاذا هى : يا بنى اسماعيل ، انتهيتم فارجعوا ، فهاله ذلك ، وقال : ما كسب هذا الا لمعنى كبير ، فشاور أصحابه في الاعراض عنه وجوازه الى ما وراءه ، فاختلفوا عليه ، فأخذ برأى جمهورهم ، وانصرف بالناس ، وقد أشرفوا على قطع البلاد وتقصى الغاية .

وحكى الرازى : أن موسى خرج من افريقية الى الاندلس فى رجب سنة ثلاث وتسعين ، واستخلف على افريقية أسن ولده عبد الله بن موسى ، وكان موسى فى عشرة آلاف ، قال : وكان عبد الملك بن مروان هو الذى أغزى موسى المغرب فى خلافته ، ففتح له فى أهله البرابرة فتوح كبار ، حتى لقد بعث الى عبد الملك فى الخمس بعشرين ألف سبية ، ثم أردفها بعشرين ألفا أخرى ، كل ذلك من البربر ، فعجب عبد الملك يومئذ من كثرة ذلك .

وزعم ابن حبيب : أنه دخل الاندلس رجل واحد من أصاغر الصحابة ، وهو المنذر ، قال : ودخلها من التابعين ثلاثة : موسى الأمير ، وعلى بن رباح اللخمي ، وحيوة بن رجاء التميمي ، وقيل : ان ثالثهم انما هو حنش بن عبد الله الصنعاني ، صنعاء الشام ، وانهم قفلوا عنها بقفول موسى ، وأهل سرقسطة

يزعمون أن حنشاً مات عندهم ولم يقفل للمشرق ، وقبره لديهم مشهور يتبركون به ولا يختلفون فيه ، فאלله أعلم .

وقيل : ان التابعين أربعة بأبى عبد الرحمن الحبلى الانصارى ، واسمه عبد الله ابن يزيد ، والله أعلم ، وخمسهم بعضهم بحبان بن أبى جبلة مولى بنى عبد الدار وكان فى ديوان مصر ، فبعث به عمر بن عبد العزيز الى افريقية فى جماعة من الفقهاء ليفقهوا أهلها ، وكان روى عن عمرو بن العاص وابن عباس وابن عمر ، وحدث عنه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم وغيره ، وغزا مع موسى حين افتتح الاندلس ، وانتهى معه الى حصن من حصون العدو يقال له قرقشونة ، وقيل : بل قفل الى افريقية فتوفى بها بعد العشرين ومائة .

وقال بعضهم : ان بين قرقشونة هذه وبين برشلونة مسافة خمسة وعشرين يوما ، وفيها الكنيسة المعظمة عند الفرنج المسماة شنت مرية ، وقد حكى ابن حيان أن فيها سبع سوار من فضة خالصة لم ير الراؤون مثلاً لا يحيط الانسان بذراعيه على واحدة منها مع طول مفرط .

وحنش الصنعاني المذكور تابعي جليل ، كان مع علي رضى الله عنه بالكوفة ، وقدم مصر بعد قتله ، فصار عداؤه فى المصريين ، وكان فيمن قام مع ابن الزبير على عبد الملك بن مروان فعفا عنه ، وكفى الاندلس شرفاً دخوله لها .

وعلى بن رباح بصري تابعي ، يكنى أبا عبد الله ، وهو لخمى ، ولد عام اليرموك سنة خمس عشرة ، قال ابن معين : أهل مصر يقولونه بفتح العين ، وأهل العراق يقولونه بضمها ، وروى الليث عن ابنه موسى بن علي ، وكانت لعلى بن رباح عند عبد العزيز بن مروان مكانة ، وهو الذى زف ابنته أم البنين لزوجها الوليد ، ثم عتب عليه عبد العزيز فأغراه افريقية .

وأما المنذر الصحابى فلم ينسبه ابن حبيب ، وذكره ابن عبد البر فى الصحابة وقال : انه المنذر الافريقى ، وروى عنه أبو عبد الرحمن الحبلى ، قال : حدثنا المنذر الافريقى ، وكان سكن افريقية ، وكان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه سمعه صلى الله عليه وسلم يقول : « من قال : رضيت بالله ربا وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ، فأنا الزعيم له ، فلاأخذن بيده ، فلاأدخلنه الجنة » ورواه عنه ابن عبد البر بسنده اليه ، وسيأتى ان شاء الله تعالى فى حق المنذر مزيد بيان .

ولما قفل موسى بن نصير الى المشرق وأصحابه سأل مغيثاً أن يسلم اليه العليج صاحب قرطبة الذى كان فى أساره ، فامتنع عليه ، وقال : لا يؤديه للخليفة سواي ، وكان يدل بولائه من الوليد ، فهجم عليه موسى فانتزعه منه ، فقيل له : ان سرت

به حياً معك ادعاه مغيث ، والعليج لا ينكر قوله ، ولكن اضرب عنقه ، ففعل ، فاضطعتها عليه مغيث ، وصار البأ مع طارق الساعى عليه ، واستخلف موسى على طنجة وما يليها من المغرب ابنه الآخر عبد الملك ، وقد كان - كما مر - استخلف بافريقية أكبر أولاده عبد الله ، فصار جميع الاندلس والمغرب بيد أولاده؛ وابنه عبد الله الذى خلفه بافريقية هو الفاتح لجزيرة ميورقة . وسار موسى فوراً الشام ، واختلف الناس : هل كان وروده قبل موت الوليد أو بعده ؟ فمن يقول بالثانى قال : قدم على سليمان حين استخلف ، وكان منحرفاً عنه ، فسبق اليه طارق ومغيث بالشكية منه ، ورمياه بالخيانة ، وأخبراه بما صنع بهما من خبر المائدة والعليج صاحب قرطبة ، وقال له : انه قد غل جوهره عظيم القدر أصابه لم تحو الملوك من بعد فتح فارس مثله ، فلما وافى سليمان وجده ضغينا عليه ، فأغظ له ، واستقبله بالتأنيب والتوبيخ ، فاعتذر له ببعض العذر ، وسأله عن المائدة ، فأحضرها ، فقال له : زعم طارق أنه الذى أصابها دونك ، قال : لا ، وما رأها قط الا عندى ، فقال طارق : فليسأله أمير المؤمنين عن الرجل التى تنقصها ، فسأله ، فقال : هكذا أصبتها ، وعوضتها رجلاً صنعتها لها ، فحول طارق يده الى قبائه فأخرج الرجل ، فعلم سليمان صدقه وكذب موسى ، فصدق جميع ما روى به عنده ، وعزله عن جميع أعماله ، وأقصاه وحبسه ، وأمر بتقصى حسابيه ، فأغرمه غراماً عظيماً كشفه فيه ، حتى اضطره الى أن سأل العرب معونته ، فيقال : ان لهما حملت عنه فى أعطيتهما تسعين ألفاً ذهباً ، وقيل : حملة سليمان غرم مائتى ألف ، فأدى مائة ألف ، وعجز ، فاستجار بيزيد بن المهلب أثير سليمان ، فاستوهبه من سليمان ، فوهبه اياه ، الا أنه عزل ابنه عبد الله عن افريقية .

وقال الرازى : ان الذى أزعج موسى عن الاندلس أبو نصر رسول الوليد فقبض على عنانه وثناه قافلاً ، وقفل معه من أحب المشرق ، وكان أكثر الناس قطنوا ببلاد الاندلس لطيبها ، فأقاموا فيها .

* * *

[نهاية موسى وابنه عبد العزيز]

وذهب جماعة من أهل التاريخ الى أن موسى انما قدم على الوليد ، وأن سليمان ولى العهد لما سمع بقرب موسى بن نصير من دمشق - وكان الوليد مريضاً - كتب - أى سليمان - الى موسى يأمره بالتربص ، رجاء أن يموت الوليد قبل قدوم موسى فيقدم موسى على سليمان فى أول خلافته بتلك الغنائم الكثيرة التى ما رأى ولا سمع مثلها ، فيعظم بذلك مقام سليمان عند الناس ، فأبى موسى من ذلك ، ومنعه دينه منه ، وجد فى السير حتى قدم والوليد حياً ،

فسلم له الأخماس والمغانم والتحف والذخائر ، فلم يمكث الوليد الا يسيرا بعد قدوم موسى ، وتوفي ، واستخلف سليمان ، فحقق عليه وأهانته ، وأمر بإقامته في الشمس حتى كاد يهلك ، وأغرمه أموالا عظيمة ، ودس الى أهل الاندلس بقتل ابنه الذي استخلفه على الاندلس ، وهو عبد العزيز بن موسى ، وكان تسولى الاندلس بعد قفول أبيه عنها باستخلافه اياه كما سبق ، فضبط سلطانها ، وضم نشرها ، وسد ثغورها ، وافتتح في ولايته مدائن كثيرة مما كان قد بقى على أبيه موسى منها ، وكان من خير الولاة ، الا أن مدته لم تطل لوثوب الجند به وقتلهم اياه عقب سنة خمس وتسعين في خلافة سليمان الموقع بأبيه موسى لأشياء نعموها عليه : منها زعموا تزوجه لزوجته لذريق المكناة أم عاصم وكانت قد صالحت على نفسها وأموالها وقت الفتح ، وباءت بالجزية ، وأقامت على دينها في ظل نعمتها الى أن نكحها الأمير عبد العزيز ، فحظيت عنده . ويقال : انه سكن بها في كنيسة باشبيلية ، وانها قالت له : لم لا يسجد لك أهل مملكتك كما كان يسجد للذريق - زوجها الأول - أهل مملكته ؟ فقال لها : ان هذا حرام في ديننا ، فلم تقنع منه بذلك ، وفهم لكثرة شغفه بها أن عدم ذلك مما يزرى بقدره عندها ، فاتخذ بابا صغيرا قبالة مجلسه يدخل عليه الناس منه ، فينحنون ، وأفهمها أن ذلك الفعل منهم تحية له ، فرضيت بذلك ، فتمى الخبر الى الجند ، مع ما انضم الى ذلك من دسياسة سليمان لهم في قتله ، فقتلوه ، سامحه الله تعالى .

ونذكر بعض المؤرخين أنهم وجدوا في الحجر بعد ما تقدم من الكتابة التي هي «ارجعوا يا بنى اسماعيل الخ» ما معناه : وان سألتم لم ترجعون فاعلموا أنكم ترجعون ليضرب بعضكم رقاب بعض ، انتهى .

قال ابن حيان : وليحيى بن حكم الشاعر المعروف بالغزال في فتح الاندلس ، أرجوزة حسنة مطولة ذكر فيها السبب في غزوها نظما ، وتفصيل الوقائع بين المسلمين وأهلها ، وعداد الأمراء عليها وأسماءهم ، فأجاد وتقصى ، وهى بأيدي الناس موجودة ، انتهى .

وقد عرفت بما سبق تفصيل ما أجمله ابن خلدون ، والروايات في فتح الاندلس مختلفة ، وقد ذكرنا نحن بحسب ما اقتضاه الوقت ما فيه كفاية ، وأشرنا الى بعض الاختلاف في ذلك ، ولو بسطنا العبارة في الفتح لكان وحده في مجلد أو أكثر .

* * *

ورأيت في بعض كتب التاريخ أنه وجد في طليطلة حين فتحت من الذخائر والأموال ما لا يحصى ، فمن ذلك مائة وسبعون تاجا من الذهب الأحمر مرصعة

بالدر وأصناف الحجارة الثمينة ، وجد فيها ألف سيف ملوكى ، ووجد فيها من الدر والياقوت أكيال ، ومن أوانى الذهب والفضة ما لا يحيط به وصف ، ومائدة سليمان ، وكانت - فيما يذكر - من زمردة خضراء ، وزعم بعض العجم أنها لم تكن لسليمان ، وإنما أصلها أن العجم أيام ملكهم كان أهل الحسنة في دينهم إذا مات أحد منهم أوصى بمال للكنائس ، فإذا اجتمع عندهم مال له قدر صاغوا منه الآلة من الموائد العجيبة ، والكراسى من الذهب والفضة ، تحمل الشماسة والقسوس فوقها الأناجيل في أيام المناسك ، ويضعونها في الأعياد للمباهاة ، فكانت تلك المائدة **بطليطلة** مما صنع في هذا السبيل ، وتأنق الملوك في تحسينها ، يزيد الآخر منهم فيها على الأول ، حتى برزت على جميع ما اتخذ من تلك الآلات ، وطار الذكر بها كل مطار ، وكانت مصوغة من الذهب الخالص مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزبرجد ، وقيل : انها من زبرجدة خضراء حافاتها وأرجلها منها ، وكان لها ثلاثمائة وخمس وستون رجلا ، وكانت توضع في كنيسة **طلبيطلة** ، فأصابها طارق .

٢

أدباء طليطلة وحكامها
ووقائع تاريخية ارتبطت بها

(١) أدباء القسم الثالث من نفح الطيب

- ٢٠ - والأديب أبو عامر اليماري .
 - ٢١ - والأديب أبو اسحاق ابراهيم بن خفاجة .
 - ٢٢ - والأديب أبو حاتم الحجارى .
 - ٢٣ - والأديب أبو بكر الدانى المعروف بابن اللبانة .
 - ٢٤ - والأديب أبو جعفر بن السـودين البلسى . ورسالة ابن غرسية الشعوبية والرد عليه .
 - ٢٥ - والكاتب أبو جعفر بن أحمد الدانى .
 - ٢٦ - والوزير الكاتب أبو الخطاب بن عطبون الطليطلى .
 - ٢٧ - والوزير الكاتب أبو عبد الله بن أبى الخصال .
 - ٢٨ - والأديب أبو بحر بن عبد الصمد ، وذكر الشيخ الكاتب عبد الصمد السرقسطى .
 - ٢٩ - والأديب أبو تمام الملقب بالحجام .
 - ٣٠ - والأديب أبو اسحاق بن معلى ، وخبر وقعة بطرنة .
 - ٣١ - والأديب أبو عامر بن الأصيل .
 - ٣٢ - والأديب أبو الفضل جعفر بن محمد بن شرف .
 - ٣٣ - وفصل يشتمل على طوائف مقلين من سكان ذلك الجانب الشرقى .
- والقسم الرابع :** أفردته لمن طرأ على هذه الجزيرة فى المدة المؤرخة من أديب شاعر ، وأوى الى ظلها من كاتب ماهر ، واتسع فيها مجاله . وحفظت فى ملوكها أقواله ، ووصلت بهم ذكر طائفة من مشهورى أهل تلك الآفاق ، ممن نجم فى عصرنا بافريقية والشام والعراق . فيشتمل منهم على جملة ، وهم :
- ١ - أبو العلاء صاعد اللغوى ، وتلخيص التعريف بدولة ابن أبى عامر ، من المبدأ الى الآخر .
 - ٢ - وأبو الفضل بن عبد الواحد البغدادى .
 - ٣ - وسليمان بن محمد الصقلى .
 - ٤ - وأبو الفتوح الجرجانى .

- ٥ - والأديب عبد العزيز السوسى ، ولمع من دولة ابن دي النون ومال حفيده ، وأخذ **طليطلة** من يديه ، ودوران دائرة السوء بها عليه ، مع ما اندرج فى ذلك من خبر ، والتف به من قبيح أثر .
- ٦ - وأخبار أبى عبد الله بن شرف ، وغرر أشعاره ، وذكر خراب بلده القيروان .
- ٧ - وأخبار ابن السقاء مدير الملك الجمهورى بقرطبة ومقتله .
- ٨ - وأبو الحسن المكفوف الحصرى . وذكر تغلب ابن هود المقتدر على دانية .
- ٩ - وأخبار عبد الكريم بن فضال الحلوانى .
- ١٠ - وأبو العرب الصقلى .
- ١١ - وأبو عبد الله بن الصباغ الصقلى .
- ١٢ - وأبو محمد بن حمديس الصقلى .

● قال ابن حيان : واسماعيل بن عباد قاضيهم القديم الولاية ، ورجل الغرب قاطبة ، المتصل الرئاسة فى الجماعة والفتنة ، وكان أيسر مكور بالأندلس وقته ، ينفق من ماله وغلاته ، لم يجمع درهما قط من مال السلطان ولا خدمه ، وكان واسع اليد بالمشاركة ، أى صنوف الجالية من قرطبة عند احتدام الفتنة ، وكان معلوما بوفور العقل وسبوغ العلم والركانة ، مع الدهاء وبعد النظر واصابة القرطسة .

فأما ذو الوزارتين أبو القاسم ابنه فأدرك متمهلا ، وسما بعد الى بلوغ الغاية فخلط ما شاء وركب الجرائم الصعبة ، وكان القاسم بن حمود قد اصطنعه بعد مهلك أبيه اسماعيل ، ورد عليه ميراثه من قضاء بلده بعد بعده عنه مدة ، وحصل منه بمنزلة الثقة ، فخانه تخون ، الأيام عند ادبارها عنه ، ايثارا للحزم وطلبا للعافية ، فصده عن اشبيلية بلده لما قصده من قرطبة مفلولا ؛ وكان الذى وطد له ذلك نفر من أكابرها المرتسمين بالوزارة ، مناغين فى ذلك لوزراء قرطبة ، على تحميلهم لابن عباد كبر ذلك ، لانفاقته عليهم فى الحال وسعة النعمة ، واحصائهم عليه ملك ثلث اشبيلية ضيعة وغلة ، يخادعون به بذلك عن نشبه ، ابقاء منهم على نعمهم به وهو يشتري بذلك أنفسهم ولا يشعرون ، الى أن وقعوا فى الهوة ، وكانوا جماعة منهم بنو أبى بكر الزبيدى النحوى وبنو يريم صنائع ابن عباد وغيرهم ، راض بهم الأمور واستمال العامة ، فلما توطأت له قبض أيدي أصحابه هؤلاء ، وسما بنفسه فأسقط جماعتهم ، وجرت له فى تدبيرهم أمور يشق احصاؤها ، ركب فيها أحزم طرق طلاب الدول ، حتى انفرد بسابقته ومهد لدولته ، واجتمع أهل عمله على طاعته ، فدانوا له ، وسلك سيرة أصحاب الممالك بالاندلس

لأول وقته ، وقام بأصح عزم وأيقظ جد ، واخترع في الرياسة وجوها تقدم فيها كثيرا منهم ، وامتثل رسم ابن يعيش صاحب طليطلة من بينهم في تمسكه بخطة القضاء وارتسامه باسمه ، وأفعاله على ذلك أفعال الجبابة ، وأقبل لأول وقته يضم الرجال الأحرار من كل صنف ، ويشترى العبيد ، والجدة يساعده والأمور تنقاد له ، إلى أن ساوى ملوك الطوائف وزاد على أكثرهم بكثافة سلطانه ، وكثرة غلمانه ، فنفع الله به كافة رعيته ونجاهم من ملك البرابرة ؛ وتدرج في تدبير ذلك أولا أولا ، ومارسه شأنا شأنا ، إلى أن استولى على أمده ، ومهد قواعد سلطانه ، وشد أواخيه . وأخبره ماثورة مشهورة .

المعتمد بن عباد واذفونش في رسائل سلطانية كتبها عن المعتمد أبو بكر الداني

● له من رقعة وردت على الجناح بهزيمة الطاغية اذفونش ، قصمه الله ، يوم الجمعة المشهور ، الذي أباد الله فيه عبدة الطواغيت على يدى أمير المسلمين وناصر الدين ، أبى يعقوب يوسف بن تاشفين ، رحمه الله ، قال فيها :

كتبت صبيحة يوم السبت الثالث عشر من رجب ، وقد أعز الله الدين ، وأظهر المسلمين ، وفتح لهم بفضلهم على يدى مسعانا الفتح المبين ، بما يسر الله في أمسه وسنياه ، وقدره سبحانه وقضاه ، من هزيمة اذفونش بن فرذلند ، أصلاه الله - ان كان طاح - الجديم ، ولا أعدمه - ان كان أمهل - العيش الذميم ، كما قنعه الخزي العظيم ، واتيان القتل على أكابر رجاله وحماته ، وأخذ الذهب في سائر اليوم واللييلة المتصلة به إلى جميع محلاته ، وحضور العدد الوافر بين يدى من رؤوسهم ، ولم يحتز منها الا ما قرب ، وامتلاء الأيدي مما قبض ونهب ، واتخذ الناس هاماتهم صوامع يؤذنون عليها ، ويشكرون الله تعالى على ما صنع فيها ، والمتتبع بعد في آثارهم ، وتمادى الطلب من وراء فرارهم ؛ والذي لا مزية فيه أن الناجى منهم قليل ، والمفلت من سيوف الهند بسيوف الجوع والبعد مقتول ، ولم يصبني بحمد الله الا جرح أشوى ، وعنت رغب حسن المال عندى وزكى ، فلا يشتغل لك بذلك بال ، ولا تتوهم فيه غير ما أشرت اليه ، والحمد لله على ما صنع حق حمده ، وهو أهل المزيد الذى لا يرجى الا من عنده .

قال ابن بسام : وشهر رجب الذى ذكره كان سنة تسع وسبعين .

ثم ورد بعد كتاب من انشائه يشرح جمل هذا الفتح وتفصيله ، قال في بعض فصوله : وقد علم ما كنا قبل مع عدو الله اذفونش بن فرذلند ، قصمه الله ، من تطأطؤنا واستعلائه ، وتقامئنا وانتخائه ، وأنا لم نجد لدائه دواء ، ولا لبلائه انقضاء ، ولا لدة الامتحان به فناء ، إلى أن سنى الله تعالى من استصراخ أمير المسلمين وناصر الدين ، أبى يعقوب يوسف بن تاشفين ، معلى الأحمى - أيده

الله - ما سنى ، وأدنى من نأى دياره وشحط مزاره ما أدنى ، فلم أزل أصل بينى وبينه الأسباب ، وأستفتح الى ما كنت أتخيل من نصره الأبواب ، الى أن ارتفعت الموانع قبله ، وانتهجت السبل القصية له ؛ ثم أجاز - على بركة الله وعونه - يريش ويبري ، وصار بعد قدما يخلق ويفري ، ويتتبع وجوه الحزامية كيفما اتجهت ويستقرى ، وأنا أنجده بوسعى ، وأسعده على حسب ما يطيقه ذرعى ، الى أن صرنا معشر الحلفاء ببطلينوس - حرسها الله - واتفق رأينا بعد تشاور على قصد قورية - حرسها الله - وسمع العدو - لعنه الله - بذلك ، فصمد من محتشده اليها فى جيوش تملأ الفضاء ، وتسد الهواء ، وتمنع أن تقع على ما تحت راياته ذكاء ، قد تحصنوا بالحديد من قرونها الى أقدامهم ، واتخذوا من السلاح ما يزيد فى جرأتهم وأقدامهم ، ولما أشرف على جنابها ، ولسنا بها ، ودنا من أعلامها ، ولم يتجه لنا بعد ما أردنا من المامها ، دعاه تعاظمه الى مواجهة سبيلنا ، وحمله نفجه وتهوره على السلوك فى مدرج سيولنا .

وفى فصل منها : فدنونا اليه بمحلاتنا - نصرها الله - ثم اضطربناها بازائه ، وأطللنا عليه براياتنا حتى كدنا نركزها بفنائها ، ورأى - لعنه الله - ما اعتمدناه من اصغاره واخزائه ، فأجمع مضطرا على اللقاء ، وقدم بعض أخيبته دهشا فى الرقعة التى كانت بيننا على صغرها من بساط الفضاء ، وقد تيقن أنه ان أخذ المسلمون مصافهم ، ورتبوا فى مواقعهم كوافهم ، اصطلم عن آخره جمعه ، واجتث أصله وفرعه ، فاهتبل فيما قدر غرة ، وحمل ولم يكن - بحمد الله - ما استشعره مرة ، فقتلوا المسلمون بشعارهم المنصور ، وأقبلوا عليه وعلى من معه فى حال مؤذنة بالظهور والوفور ، فتواقف قليلا الجمعان ، وتجاول مليا الفريقان ، وللسيوف حكمها ، ومن الحتوف حدها المفهوم ورسمها ، ثم صدق أمير المسلمين وناصر الدين - أيده الله - الحملة ، وصدى فى جمع لم يكثر عدد الجملة ، فلم يلبث أعداء الله أن ولوا الأدبار ، واستصرخوا الفرار ، واتبعهم خيل المسلمين - نصرهم الله - ببقية اليوم واللييلة ، تقتلهم فى كل غور ونجد ، وتقتضى أرواحهم على حالين من كالىء ونقد ، ولم يخلص منهم على أيدي المتبعين - أجرهم الله - الا من سبيلتهم البعد ، ويأتى على حشاشته الجهد ، وأما محلقتهم فانتهبت فى أول وهلة ، وشربت بأسرها فى نهلة .

وفى فصل منها :

ولم يصب بحمد الله من المسلمين - وفرهم الله - على هول المقام ، وشدة الاقتحام ، كثير ، ولا مات من أعلامهم تحت تلك الجولة الا عدد يسير ، فان كان انذفونش - لعنه الله - لم يمت تحت السيوف بددا . فسيموت لا محالة أسفا وكمدا ، ونحمد الله على ما يسره من هذا الفتح الجليل وسناه ، ومنحه من هذا الصنع الجميل وأولاه .

قول أبى بكر فيما كتب به عن المعتمد يومئذ : «ولم يصبنى الا جرح أشوى»
تواتر الذبا أنه جرحته يده فى ضنك ذلك المأزق .

وقيل فى يوم الجمعة أشعار سارت بالمغرب والمشارك .

أخبرنى أبى بكر الخولانى المنجم قال : كتب الى أبى عبد الله بن عباد من المرية
بقصيدته فى صفة يوم الجمعة ، فارتفعت الى المعتمد على يدى ، وهى التى يقول
فيها :

وقالوا كفه جرحت فقلنا	أعاديهِ تواقعها الجراح
وما أثر الجراحة ما رأيتم	فترهبها المناصل والرماح
ولكن فاض سيل البأس منها	ففيها من مجاريه انسياح
وقد صحت وسحت بالأمانى	وفاض الجود منها والسماح
رأى منه أبى يعقوب فيها	عقابا لا يهاض لها جناح
فقال له لك القدح المعلن	إذا ضربت بمشهدك القداح

وفى ذلك اليوم يقول عبد الجليل ، ويمدح أمير المسلمين وناصر الدين ،
رحمه الله تعالى .

فتأر الى الطعان حليف صدق	تشور به الحفيظة والذمام
نمى فى حمير ونمتك لخم	وتلك وشائج فيها التمام
فيوسف يوسف اذ أنت منه	كيامن ، لا وهى لكما نظام
نهجت لسيله نهجا فوافى	وفى أذيه الطامى عرام
فهيل به كثيب الكفر هيلا	وكل رفيغة منه ركام
وصاروا فوق ظهر الأرض أرضا	كأن وهادها منهم اكمام
عديد لا يشارفه حساب	ولا يحوى جماعته زمام
تألفت الوحوش عليه شتى	فما نقص الشراب ولا الطعام
فان ينج اللعين فلا كحر	ولكن مثلما ينجو اللئام

وكان أذفونش قد اضطره الخور يومئذ للفرار ، فتسنى قنن الجبال الشاهقة
والأوعار ، الى أن جنه ثوب الظلام ، فنجى منجى الحارث بن هشام . برأس طمرة
ولجام ، ودخل **طليطلة** - أعادها الله - مع شزيمة من أتباعه قليلة ، وبقية من
طائفة له مخذولة مغلولة ، فوصف ذلك كله عبد الجليل فى هذه القصيدة ، فقال :

فأين العجب يا أذفونش هلا	تجنببت المشيخة يا غلام
ستسألك النساء ولا رجال	فتخبر ما وراءك يا عصام

وهذا لفظ أبى فراس فى سيف الدولة ، وننشد ما قبله لاتصال المعنى به :

سلى عنى سراة بنى كلاب ببالس عند مشتجر العوالى
لقيناهم بأسياف قصار كفين مؤونة الأسل الطوال
تدور به نساء بنى قريظ وتسأله النساء عن الرجال

وفى هذه القصيدة يقول كأنه يخاطب أذفونش :

أقمت لدى الوغى سوقا فخذها مناجزة ، وهون ما تسام
فان شئت ، اللجين فثم سام وان شئت النضار فثم حام
رأيت، الضرب تصليبا فصلب فأنت على صليبك لا تلام
أنام رجالك الأشقون ؟ كلا وهل يحلو بلا رأس منام
رفعنا هامهم فى كل جذع كما ارتفعت على الأيك الحمام
سيعبد بعدها الظلماء لما أتيح له بجانبها اكتتام
ولا ينفك كالخفاش يغضى اذا ما لم يياشره الظلام
نضا أذراعاه واجتاب ليلا يود لو ان طول الليل عام
وليس أوان لأليم انسلاخ ولكن فى ضمائرهم احتدام

وقوله : «سيعبد بعدها الظلماء» ... البيت ، كقول المتنبي :

وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر أن ما نويه تكذب
وكقول أبى تمام :

جفا الشرق حتى ظن من كان جاهلا

بدين النصارى أن قبلته الغرب

وقوله : «يود لو أن طول الليل عام» ؛ من قول المعري ، وقصر عنه :

يود أن ظلام الليل دام له ... البيت ، ونقله التهامى نقلا مليحا فقال :

وتود لو جعلت سواد قلوبها وسواد عينيها سواد عذار

وكانت طوائف الروم ، مدة ملوك الطوائف بأفقنا قد كلب دأؤهم بكل اقليم ،
فلاطفوهم بالاحتيال ، واستنزلوهم بالأموال ، فلم يزل دأبهم الانعان والانقياد ،
ودأب النصارى التسلط والعناد ، حتى استصفوا الطريف والتلاد ، وأتى على
الظاهر والباطن النفاذ ، بما كانوا ضربوا على أنفسهم من الضريبة ، الى ما
يتبعها من هديات ونفقات ، وشعر العصر ، شاهد بالأمر ، كقول حسان بن
المصيصى يمدح المعتمد ويهون عليه تلك الاتاوات ، من جملة أبيات :

ولم تطو دون المسلمين نخيرة تهين كرام المنفسات لتكرما
تحيل فى فك الأسارى وانما تعاقد كفارا لتطلق مسلما

وما كنت ممن شح بالمال والقنا فتكنز ديناراً وتركز لهذما
فترسله للصفر أصفر عسجداً وان خالفوا أرسلت أبيض مخدماً
وفي ذلك يقول أبو بكر الداني من جملة قصيدة :

في نصره الدين لا أعدمت نصرته تلقى النصارى بما تلقى فتندع
تنزيلهم نعماً في طيها نقم سيستضر بها من كان ينتفع
وقل ما تسلم الأجسام من عرض اذا توالى عليها الري والشبع
لا يخطب الناس عشوا عند مشكلة فأت أدري بما تأتي وما تدع

وهذا مدح غرور ، وشاهد زور ، وملق معتف سائل ، وخديعة طالب نائل ،
وهيهات ! بل حلت الفاقة بعد بجماعتهم «حين أيقن النصارى بضعف المزن ،
وقويت أطماعهم بافتتاح المدن ، واضطربت في كل جهة نارهم ، ورويت من دماء
المسلمين أسنتهم وشفارهم ، ومن أخطأه القتل منهم فانما هو بأيديهم سبياً ،
يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا ، حتى دنوا مما أرادوه من التوثب ، وأشرفوا
على ما أملوه من التغلب» . وحصلت مدينة قورية وسرته أولاً في يد العدو ، الى
عدة حصون وقلاع ، كلها في غاية من الحصانة والامتناع ، ثم لم يزل التخاذل
يتزايد ، والتدابير يتساند ، حتى حلت الفاقة ، وقضيت القضية ، وتعجلت
البلية ، بحصول مدينة طليطلة في أيدي النصارى ، وذلك في سنة ثمان وسبعين ،
وهي من الجزيرة كنقطة الدائرة ، وواسطة القلادة ، تدركها من جميع نواحيها ،
ويستوى في الاضرار بها قاصيها ودانيها . وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

حثوا مطاياكم عن أرض أندلس فما المقام بها الا من الغلط
فالثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

ولعمري لو قضى بالسماع على العيان ، واستغنى بالاقناع عن البرهان ،
واطمأن قلبه الى التمويه ، وقد راه محضاً لا شك فيه ؛ لكان كلام الداني أبقى بكر ،
في ذلك المعنى المتقدم الذكر ، برتبة ذلك أليق ، وفي حليته أجمع وأسبق ، حتى لو
سمعه الحارث بن هشام ، لعلم أنه قد ترك في حمد المذموم ، ومعارضة الصحيح
بالسقيم ، طلقاً شاسعاً ، ومجالاً واسعاً .

وأول من حسن الفرار ، فما وقع ولا طار ، الملك الضليل حيث يقول :

وما جينت خيلي ولكن تذكرت مرابطها من بريعيص وميسرا

ثم تتابع الشعراء في خدع العقول ، بالتمويه المستحيل ، فمن محسن برز ،
ومن مقصر عجز ، ومن أحسن ما ورد في ذلك قول حسان :

نوليها الملامة ان المننا اذا ما كان مغث أو لحاء
ونشربها فتركنا ملوكا وأسداً ما ينهنهنا اللقاء

الأبيات ، حتى قال الحارث بن هشام قطعت في حسن الفرار ، التي صارت
نهاية في العجب ، وشهادة في تحسين نتائج الهرب ، وهى قوله :

الله يعلم ما تركت قتالهم حتى علوا فرسي بأشقر مزبد
ونشيت ريح الموت من تلقائهم في مأزق والخيل لم تتبدد
وعلمت أنني أن أقاتل واحدا أقتل ، ولا يضرر عدوي مشهدي
فصدت عنهم والأحبة فيهم طمعا لهم بعقاب يوم سرمد

وسمعا بعض العجم فقال : قاتلكم الله معشر العرب ، حسنتم كل شيء
حتى الفرار .

ومن أسحر ما ورد في ذلك للألباب ، وأخذه عن الصواب ، قول ابن الرومي
في سوداء ، وقد تقدم في ما مر من الكتاب :

أكسبها الحب أنها صبغت صبغة حب القلوب والحدق
إلى ما لا يحصى عدده ، ولا يستقصى أمدده .

ذكر الخبر عما دار به نجم قرطبة يومئذ ،
من تغلب ابن ذي النون عليها
وعودة المعتمد بعد اليها

● قال ابن بسام : قد قدمت من عجب المعتمد بذاته ، وتوفره - كان -
على لذاته ، وتقديره أنه يضبط أزمة البلاد ، ويملك رقاب العباد ، وخيله في
الأجبال ، وكأسه في يد الساقى المختال ، على مكانه من العلم ، ووفور حظه من
الحلم ، ما فيه كفاية لمن استغنى ، وآية لمن تدبر واجتلى . وعندما أخرج قرطبة
من أيدي بنى جهور ، في خبر قد شرح في القسم الأول وفسر ، ولاها ابنه عبادا ،
وكان محش حرب ، ونشأة طعن وضرب ، فتى لا يبالى من لقي ، ولا إلى أى شيء
دعي ، هاجم ابن ذي النون في بعض نهدياته إلى قرطبة ، وجيشه قد ملأ الفضاء ،
وفات الاحصاء ، فقل أجناده ، واستباح طارقه وتلاده ، ونجا ابن ذي النون
منجى أبي نصر ، بعد ما أعطى على القصر ، وترجح بين القتل والأسر ، لا
يحفل بما أخر ، ولا يلوي على من تعذر .

غير أن المعتمد لما تهيأت له على ابن ذي النون الجسرة ، وأمكنته منه تلك
الغرة ، أدار أمر قرطبة ، وأميرها ابنه ، على أحد عبيده المتجندين ، محمد بن
مرتتين ، وكان شهابا لا يصطلي بناره ، وأسدا لا يستقر على زاره ، إلا أنه كان
من الادلال ببأسه ، والاهمال لنفسه ، والاقبال على كيسه وكأسه ، والغفلة عن

عادة الله في جنسه ، آية من آيات الله الذى وكله الى سوء القدر ، وقتله بيد أضعف البشر ، أحد الرجال المتلصصين ، والدائرة المتمردين ، المتصرفين في صغار المهن ، النابتين في مدارج سيول الفتن ، رجل كان يعرف بابن عكاشة ، لم تكن له سابقة قديمة ، ولا نباهة معلومة ، فراشة طارت حول نار الفتنة المبيرة ، المهتكة لحارم هذه الجزيرة ، فترقى من سكنى الشعاب ، والسكون الى الذئاب ، وانتهاز الفرصة ان أمكنته في الطارق المنتاب ، الى تسنم المعازل ، وتدبير الأمور الجلائل ، وأذكاه ابن ذي النون عينا على قرطبة ، في أحد الحصون المصاقبة لها ، وأبعد آماله كانت أخافة سبلها ، وتحيف عملها ؛ وكان احدى الأعاجيب نكاء لب ، وصرامة قلب ، وتقدما الى ضرب ، لا يحل الا ريثما يرحل ، ولا يقول الا بعد ما يفعل ، وابن مرتين في خلال ذلك خال بشيطانه ، ساع في شأنه ، بين بطالته وطغيانه ، كلما حدث عن ابن عكاشة بغرة اهتبلها ، وأشير عليه في أمره بنصيحة كي يقبلها أعرض عن الصادق الخبير ، ودفع في صدر الناصح المشير .

حدثنى من أثق بخبره ، ممن كان بعض أبواب قرطبة يومئذ الى نظره ، أن ابن عكاشة كان يسرى تحت الليل الى أحد حراسها فيخرج اليه بعض مردتها ، فيطعمهم ويسقيهم ، ويدبر كيف يفتح البلد على أيديهم ، ويوليهم الأعمال ويقطعهم النفوس والأموال ، فأخبر بذلك عباد بن المعتمد ، فقال له : الق ذا الوزارتين الأعلى ابن مرتين ، وكان لا يستبد عليه ، ولا يقطع أمرا الا بين يديه ، فأدى ما كان عنده من ذلك اليه ، فأظهر السرور ، ووعد الجد والتشميم ، وقال له : تقدم الى فلان وفلان ، جماعة كانت بالحضرة من الأعيان ، فليكونوا عندك في العدد الوافر ، والسلاح الظاهر ، فأمرهم عنه فأتروا ، وتقدم اليهم بالحضور فحضروا :

في ليلة من جمادى ذات أندية لا يبصر الكلب في ظلماتها الطنبا

وأقاموا منتظرين لأمره حتى بدا النور ، وتكلم العصفور ، وهو مشغول بجر ذبوله ، وعصيان عدوله ، فيئسوا من نصره ، وجعلوا بعد يلحدون في أمره ، وتم لابن عكاشة تدبيره ، واستوسق له غيرة ونفيره ، فانتبهك حرمة قرطبة ، سنة سبع وستين ، في شردمة قليلة ، وشبابة قليلة ، معلنين بشعارهم ، متلبثين بين تغريهم واغترارهم ، لم تكن لهم همة الا دار عباد ، فثار اليهم عندما أحس بهم ولا أهبة الا اقدامه ، ولا صاحب الاحسامه ، فجادلهم بالسيف صلتا ، حتى أذاقوه الموت بحتا ، ثم نهضوا الى دار ابن مرتين وهو في منزل راحته ، غافلا عما نزل بساحته . ذكر أنه كان ساعتئذ يلعب بين يديه بالكرج ، فعول على الفرار ، واستتر مديدة في بعض الأقطار ، حتى انقضت أيامه ، وعثر عليه حمامه ، أخرج من قرطبة كأنه يحمل الى ابن ذي النون ، وقد تقدم الى حملته ، فطووا خبره ، ومحووا أثره .

وبات ابن عكاشة ليلته يطرق دور الأعيان من أهل قرطبة ، يتودد اليهم ، ويعرض نفسه عليهم ، فمن أجابه قبله ، ومن أبى عليه لم يعرض له ؛ وأصبح قد انضاف اليه من بنى المحن ، وطعام الفتن ، من منع منه ، وحسم الأطماع عنه . ودعا الكافة الى المسجد الجامع فاتوه خفافا وثقالا ، وبايعوه بطاء وعجالا ، وانثالت اليه طوائف الأمداد ، وقواد الأجناد ، فانتظم له الأمر ، واستوسق له المصر ، ولحق ابن ذي النون بعد ذلك وهو يرى أنه قد وطىء صلعة النسر ، وأخذ بمخنق الدهر ، أملا طالما عللته به المطامع ، وهزته اليه المضاجع ، ولم يزل في يوم دخوله قرطبة يعمل الحيلة في اقضاء ابن عكاشة من دولته ، واخراجه عن جملته .

بلغنى أنه دخل على ابن ذي النون يوما ، وقد رفل في الشارة ، وتقلد مثنى الوزارة ، فرحب به وأدناه ، وهش اليه وناجاه ، فلما خرج تنفس الصعداء ، وأتبعه نظرة شوهاء ، وهينم بكلمة عوراء ، فكأن بعض الحاضرين أنكر عليه وجعل يطري ابن عكاشة ، ويذكر حسن بلائه ، وينبه على مكانه من الدولة وغنائه ، فلما أكثر قال له ابن ذي النون : دع عنك ، من اجترأ على الملوك لم يصلح للملوك .

ثم لم يلبث ابن ذي النون الا أشهرها لم تتعب كف العاقد ، ولا أطالت غم الحاسد ، حتى أتى من مأمنه ، أغبط ما كان بسبيئه وحسنه ، وسقاه السم الوحي - زعموا - بعض ثقافته ، فاستقل بجسده تابوته ، وطار به الى **طليطلة** جنة وغفاريته ، وخلا وجه قرطبة بعد ذلك للمعتمد وعاد اليه ملكها ، وانتظم في يديه سلكها ، وأخذ بثار ابنه عباد بقتله لابن عكاشة فلم يكن كما قال دريد بن الصمة :

قتلنا بعبد الله خير لداته ذؤاب بن أسماء بن زيد بن قارب

وأخذ في ضبط الحصون ، وما يغنى به الحزم من وجوه التحصين ، وأظهر أهل البلد [من] الاغتباط بمآلهم ، والاستبشار بمفاتحة حالهم ، ما يظهر من خرج من ضيق الى سعة ، وانتقل من هرج الى دعة .

وله من أخرى عنه : شر الناس لنفسه من جهل مقدارها ، ولم يتهم اختيارها ، وقفا اذا شرهت وعميت آثارها ، وطار بجناح طمعها ، الى ذميم طبعها ، واتبع رائد جشعها ، الى وخيم مرتعها ، وعاد الى الصلح من خلطائه فاستفسده ، والى الصفى فأحقدته ، والى المستنيم فأوحشه وشرده ، ولا سيما في حال تحض على استثناء البعداء ، وتبعث على مصادقة الأعداء ، ومع نصبة قد اندرت بمآلها ، وحذرت من بغة اغتيالها ، بل والله قد نفحت رجومها ، ولفحت سمومها ، وصرح بالبأساء شومها .

وليس يذهب عنك أنى ، بما أشرت اليه ودرت حواليا ، الى صاحب **طليطلة** ناظر ، والى قبح ما عاملنى به شاهر ، وذلك أنه منذ زمن يتمرس بجائبي ، ويقوم

في وجه ما لا يرييه من مذهبى ؛ فمن ذلك ما نعلمه من خوفه الى بسطة اللقاء فلان -أخذه الله بما ألبسته من حرمة فجردها ، وأوليته من نعمة فغمطها وجردها - وبقائه هنالك يشجعه على غدرى ، ويشيعه من مخالفة أمرى ، وتوثق له أنه اذا انصرم منى ، وانخزل ببعض عمله عنى ، كان له أن هممت به سندا ، ووصل به ان وصلت يدا ، فحينئذ صنع فلان ما صنع ، وحاول أن يطير فوقه ، من تلك الجهة التى كانت انخرطت في سلك بلدى وعملى ، واطردت في منابرها الخطبة لى ، حتى انصابت فيها فواق بكية حكمه ، وذكر على أعوادها اسمه ، «ولكن قليلا ما بقاء التثاؤب» ووسمه ، الى غير ذلك من قوارص القول والفعل ، ستصل اليك على أسنة الرسل ، وأنا في كل ذلك أحتمل الأذى ، وأغضى على القذى ، وأقبض يد الانتصار ، طمعا في الاقتصار والاستبصار ، وذهابا مع عادة الأناة والانظار . وربما ألمحت في بعض الأحايين بعتاب ، وتكلمت بكلمات غضاب ، فظن أن ذلك قصارى في انكسارى ، ومنتهى وسعى واقتدارى ، فزاد الاعتداء والاستهداف ، وعظم الازدراء والاستخفاف ، ولولا نظرى من هذه الجزيرة - عصمها الله - الى ما ينظر اليه ، واشفاقى منها على ما لا يشفق عليه ، لأسكنت أول أنبعثته ذلك النزوان ، وردعت قبل احتفاله ذلك الاستئنان .

وفي فصل منها : ثم ختم تلك الهنات ، وتلا تلك السيئات ، بخبر صاحب فلانة ، كنت أوطأته على علمك رقاب أهلها ، وجعلت اليه القبض والبسط فيها ، ولم أشرك معه أحدا في معنى ، فخان بما ائتمن ، وفرط في ما احتجن ، وخاف عاقبة ذلك فنغل واضطغن ، وأراد أن يفوز ببطنته وما جمع ، وينجو مما حذر عليه وتوقع ، فأزعم على الانحراف والانزواء ، واستجمع للخلاف والانتزاع ، ودخل فلانا يعرض عليه ما ذهب اليه ، ليؤيده على قبوله بما في يديه ، فنأى عنه بجانب النزيه الكريم ، وأعرض اعراض الحر الصميم ، فانصرف الى المذكور وهو لمناها مستمطر متوكف ، والى مثلها مستوقف مستشرف ، فما دعاه حتى لباه ، ولا أومى اليه حتى تهافت عليه ، لا يتهيب حالا ، ولا يتوقع مالا ، وبلغنى الخبر وكفى به مزعجا ، ولا كمثله مبرما محرجا ، فصبرت حتى أعذرت ، وتأنيت حتى أبليت ، ثم اعتزمت على الانتصار ، وتقدمت لطلب الثار ، مستخيرا وعد الله لمن ينهى عليه ، مقتضيا حكمه العدل فيمن تسبب اليه ، فتقدمت في معسكر ألفته يد الاعجال ، وحالت البديهة بينه وبين الاحتفال ، فأنخت به على بلده أياما ، قطعت فيها دونه كل الرفاف ، ولم أبق حوله سقفا على جدار ولا قائمة على ساق ، ثم مررت الى جهة فلانة أجوس خلالها ، وأتقرى بالذهب والاحراق أعمالها ، وأتسنم معاقلها ، وأجعل أعاليها أسافلها ، الى أن وقفت بجنايبها منازل ، وزحفت الى بابها مقاتلا ، وصاحبها يرى الخوي ملء عينيه ، ويقلب على خسارة صفقته كفيه ، ولا يعاين الا نارا تضطرم عليها ، وتصطم حواليتها ، فلو أصغينا لسمعنا

قعقعة أضراسه ، واستشعرنا لوجدنا حر أنفاسه ، وكل كمي عنده - وكانوا
عددا لفيفا ، وجمعا كثيفا - قد نسخ جبانا ، ومسح هداننا ، لا يكاد يقبل حتى
يدبر ، ولا يبرز حتى ينجر :

تلقى الحسام على جراءة حده مثل الجبان بكف كل جبان

ثم انكفأت ، على غير الطريق التي كنت أنشأت ، عائداً بمثل ما بدأت ، واطنا
ما لم أكن قبل وطئت ، فتخيل سبيلي ، في وجهتي وقفولي ، وتمثل أثرى ، في وردى
وصدرى . وكنت قد وجهت أسطولا بلغ في ساحل بلده أقصى المبالغ من الافساد
والتدمير ، والتغيير والتأثير ، ثم انصرف بحمد الله كما انصرفت على غاية
الوفور والظهور .

في ذكر الأديب أبي بكر يحيى بن بقى

واثبات جملة من سرى نظامه ، وحر كلامه

● وأبو بكر في وقتنا هذا على صغر سنه شهاب فهم ونبل قلما يخلو شعره
من بديع ، وأخرجته فتنة طليطلة - جبرها الله - الآتي خبرها في القسم الرابع
من هذا المجموع ، ولما يسطع بعد ضوئه ، ولا نشأ نوءه ، فاحتل اشبيلية ،
فمن ثم شرق وغرب ، وأحزن ذكره في البلاد وأسهب ، ولذلك نسقته في دررها ،
وأثبتته أثناء حبولها وغررها ، وقد أخرجت من شعره ما يشهد بما أجريت من
نكره ، ويبرأ من الاطراء ، ويرى أنني ربما قصرت في الثناء .

جملة من شعره في أوصاف شتى

استهدى من بعض اخوانه أقلاما ، فبعث اليه منها بثلاث من القصب ، وكتب
معها اليه :

خذهما اليك أبا بكر العلا قصباً كأنما صاغها الصواغ من ورقه
يزهى بها الطرس حسنا ما نثرت بها مسك المداد على الكافور من ورقه
فأجابه أبو بكر بأبيات منها قوله :

أرسلت نحوى ثلاثا من قنا سلب منأدة تطعن القرطاس في درقه
فالحظ ينكرها والخط يعرفها والرق يخدمها بالرق في عنقه

فكأن بعض من حضر سماع شعره حسده عليه ، ونسب الانتحال اليه ، فقال
أبو بكر يخاطب صاحبه الأول من جملة أبيات :

لما رماه بنبل النبل في حذقه
من ذا الذي أخرج اليربوع من نفقه
الا امرؤ ليست الأشعار من طرقة
بل الصباح الذي يستن في أفقه

وجاهل نسب الدعوى الى كلمى
فقلت من حنق لما تعرض لى
ما ذم شعري وأيم الله لي قسم
الشعر يشهد أنى من كواكبه

وله من كلمة في الوزير أبي العلاء :

لكنها عربية النجر
منك الفؤاد وأنت لا تدري
سقيت ببابل قهوة السحر
مثلى لتعلم صحة الأمر
تبصرى القلوب وقلما تبصرى

علقتها من ربرب العفر
لا تلتحمدها ربما سلبت
واذهب بشأنك ان مقتلها
سل بالعيون فتى أصيب بها
هن السيوف من الردى طبع

ومن المدح :

حاز الندى بالطي والنشر
بالماء فى دوية القفر
ثم انطوى والجود فى قبر
فى صبره ونواله الغمر
أن السيادة فى بنى زهر
وافخر بدعى على عمرو
ولئن سكنت فخيفة الكبير

من جده كعب بن مامة قد
هو أثر النمري صاحبه
واساه حتى مات من ظمأ
وأراك يا زهر اقتديت به
زهر الكواكب كلها شهدت
ذر حاتما يشجى بكعبكم
وافخر بنفسك لست دونهم

وله من أخرى [فيه] :

افخر على الناس ملء الأرض من شمم
السعر أقعس والآباء انجاد
هل يستوى الناس قالوا كلنا بشر
فالمندل الرطب والطرفاء أعواد

وهذا يشبه قول أبي الطيب :

فان تفق الأنعام وأنت منهم فان المسك بعض دم الغزال

وقال الحصرى :

أبا بكر أن أصبحت بعض ملوكهم فان الليالى ليلة القدر

ومنها :

يا زهر زهر اياك لا كما زعمت
حقا سلكت الينا كل موحشة
يجيب فيها الصدى من ليس يسأله
وينضب الماء وهو الجرم مورده
والمرؤ في الحرة الرجلاء قد حميت
من شر ما طرق الأقوام من نوب
يخرجن من جنبات النقع طائفة

ومنها :

ولوا جميعا بما في الدهر من حسن
وهذا كقول أبي تمام حيث يقول :
وما كان بين الهضب فرق وبينهم
سوى أنهم زالوا ولم يزل الهضب

ولأبي بكر من قصيدة :

لم أعلم الشوق الا من مطوقة
لا مثلها وسقيط الطل يضربها
تذكرت ساق حر وهي تنديه
كأنهن بأعلى الدوح اذ سجعت
والنجم منهزم أولى كتائبه
والروض يرشف ريق الطل عن ترف
دع المنى ربما نيلت بلا طلب

ومنها في وصف طرف :

لكن على سابع نهد مراكله
أقام في الحي أحوالا وآونة
فجاء اذ صنعوه وهو مضطمر
يهوي من الأرض أنى شاء راكبه

قوله : « والصبح يغسل ما في الليل من ردن » . يشبه قول بعض أهل
العصر :

شهم له نظرة في كل مشكلة يكاد يغسل ما في الطين من ردن

وقلبه من قول المعري :

فان كان يكتبه كاتب فقد سود الصبح مما كتب

وقال أبو بكر من قصيدة :

أقبلت بالجيش ملموما كتائبه
في فتية كسيوف الهند أنحلهم
وتيموا بعيون غير فاترة
ان لا تكن أعينا نجلا فان لها
كأنك البدر تحت العارض الهطل
حب الصوارم والخطية الذبل
من الأسنة لم تهجع مع المقل
في أضلع القوم مثل الأعين النجل

وما أحسن ما أتى بهذا المعنى ، وانما ذهب الى قول أبي الطيب :

أثبت عينك في حشاي جراحة فستشابهها كلتاها نجل

وقال :

عليهن من وقع السيوف حواجب

ومن قصيدة أبي بكر :

ترى السماء دخانا مثلما خلقت
تمشى بها الخيل لا جرد مطهمة
من كل مضطمر الكشحين حافره
يا معشر الروم قد شالت نعامكم
لم يكسكم من ثياب الخزي أسيفها
يا ويلكم معشرا بل ويل أمكم
والأرض قد شرقت بالخيل والابل
مشي الكواعب في حلي وفي حلل
أحق من مبسم الحسناء بالقبيل
اما من الحين أو من شدة الفشل
الا اتقأؤكم للصدر بالكفل
فانها ولدت للثكل والسهيل

وهذا المعنى كثير ، ومنه قول أبي تمام :

لم تبق مشركة الا وقد علمت ان لم تنب أنه للسيف ما تلد

وأخذه أبو الطيب فقال :

للسبي ما نكحوا والقتل ما ولدوا والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا

وقال محمد بن هانيء :

لو تعلم الروم ما لاقت بطارقها ما هنئت أم بطريق بمولود

وقال أبو بكر من قصيدة :

من لي به والوغي شهباء من أسل
يردي ويصرع أقواما ، عيونهم
بكل غصن من الخطي منعطف
في صهوة من أقب البطن منجرد
حمر من الروع لا حمر من الرمد
بطائر من سنان ليس بالغرد

ومنها :

الدهر أخون من أن يستقيم لكم وانما جاد عن كره ولم يكـ
ومن تصنع يرجع بعد أونة الى الطباع رجوع العير للوتد

وهذا المعنى مشهور ومنه قول الآخر :

كل امرئ راجع يوما لشيمته وان تمتع أخلاقا الى حين
وقال آخر :

يا أيها المتحلى غير شيمته ان التخلق يأتي دونه الخلق
وقال آخر :

ومن يتكلف غير ما في طباعه يدعه ويغلبه على النفس خيمها
وقال الرضي :

لا تبدين لي التكلف في الهوى فضح التطبيع شيمة المطبوع
ولكن أبا بكر استولى على الأمد ، ونفث بالسحر في العقد ، بقوله : « رجوع
العير للوتد » .

وله من قصيدة :

لم أنس اذ ودعته وقد التقت منى هنالك بالبكا عينان
يرنو بنرجسة الى وريما قرع الأقاح بياسمين بنان
وهذا كقول الآخر ، ولكن أبا بكر نقص عنه :

وأسبلت لؤلؤا من نرجس فسقت وردا وعضت على العناب بالبرد
وقال من أخرى :

وقالوا ألا تبكى وتلك مطيهم على السهب يحملن الأوانس كالدمى
لئن نفدت منى الدموع تغامزوا وقالوا : سلا أو لم يكن قبل مغرما
فهلا أقاموا كالبكاء تنهدى اذا ما بكى القمري قالوا ترنما
وهذا من حجول الكلام وغرره ، وان لا يكن اخترع ، فما اتقن ما اتبع ! !

ومنها :

نأوا بصموت الحجل عاطرة الشذا مبتلة الأعطاف معسولة اللمى
ألا نظرة منها فتنقع غلة على كبدي ما أشبه الشوق بالظما

وله من قصيدة :

وانى من الورق السواجع بالضحى ولكننى من بينها لم أطوق
وهذا كقول ابن حمديس الصقلي ، وهو أبرع وأجمع وأصنع ، الا أن أبا بكر
قبله على ما أراد ، ونقص منه فما أخل به ولا كاد :

جناحي مبلول وجبدي مطوق وروضي مطلول فما لى لا أشدو

وله من قصيدة أيضا :

أتى به الدهر فردا فى فضائله وفى الفرائد ما يربي على الجمل
بياض عرضي تحامى الذم جانبه ليس السواد بأبهى منه فى المقل
والبيت الأول منها كقول بعض أهل عصرنا :

وقد تقتضى هذه المفردات معان تقصر عنها الجمل

وله من قصيدة :

عندى حشاشة نفس فى سبيل ردى
وكيف أقوى على السلوان عنك وقد
خذهما وهات ولا تمزج فتفسدهما
وهذا كلام بديع ، ونظم سنيع .

وقال :

جرب ولا تغترر بمحمدة قد يقتل [النور] وهو نفاح

وقال :

ولقد وصفت لعاذلى من حسنه
وعصيته فيما مضى من عهدنا
طرفا فود بأنه لم يعذل
وأنا الذى أعصيه فى المستقبل

وله من قصيدة :

إذا ما غراب الليل مد جناحه
تقلبت فى طي الجناح لعلى
الى الله أشكوها نوى أجنبية
سلا كل مشتاق برؤية الفه
إذا جاش صدر الارض بي كنت منجدا
علي وغطاني بريح قوادمي
أرى الصبح يبدو من خلال القوادم
لها من أبيض الدهر شيمة ظالم
وكان على الشوق ضربة لازم
وان لم يجش بي كنت بين التهام

فأجعل ظلمي أسوة في المظالم
طلبت العلا من قبل حل التمايم
للين لبوس واحتفال مطاعم
أسر بها نفس الصديق الملائم
على عربي ضاع بين أعاجم
سوى أننى للشعر آخر ناظم
شقيا أتاه من وفود البراجم

أكل بنى الآداب مثلى ضائع
أم الظلم محمول على لأننى
لعمر أبيتك الخير ما أمل الغنى
ولكنما أملت له لصنيعة
ستبكي قوافى الشعر ملء جفونها
ولا ذنب لى عند الزمان علمته
توهمته عمرو بن هند وخلقنى
ومنها :

معطفة في دفها والحيازم
ببيض الأدايحى في النقا المتراكم
جبان تولى في غبار الهزائم
إذا ما تدلى حية في المخاطم

اليك ترامت بي قلوب كنبعة
لعوب إذا رقص السراب استفزها
تبارى الصبا في سيرها فكأنها
وما راعها الا الزمام تظنه
وهذا كقول المعرى :

مخبرها أن الازمة أصلال

يحاذرن من وقع الأزمة لا اهتدى

وهذا كقول بعض أهل العصر :

كأنه بين ثنى حية ذكر

تخشى الزمام فتثنى جيدها فرقا

ومن قصيدة أبى بكر :

قد اختلفت فيها خطوط المناسم
إذا انتقدوا كانوا زيوف الدراهم
وان أدركته مهنة في الصوارم
وكل كريم مولع بالأكارم
غلولاً وحظى وافر في المغانم
شديداً على الأعداء صعب الشكائم
ولكنها في أوجه كالمياسم
لمدح أناس في عداد البهائم
وأمسك منهم بالحبال الرمائ

كأنى من البيداء أطوى صحيفة
لنفسك أكرمنى ولا لمعاشر
وميزك بي ميز الكمى بسيفه
أحبك للعليا غصبتك بعضها
وان كان منك الود فيئاً أخذته
وان تصطنعنى تصطنع حفيظة
له كلمات كالقلائد في الطلى
يشق عليها ترك مدحك ضلة
يصولون منى بالمهند ماضيا

ومنها في المدح :

هو الماء يعطى ريه كل حائم
أمان لمذعور ومال لعدام

حمدت السرى عند الصباح بماجد
وحسبك من قاضى الجماعة أنه

وشل فريق الكفر شل النعائم
تحجب نوار الربى فى الكمائم
سلاسل أصداء الحدود النواعم
تغور الدمى الا ابيضاض المباسم
وتأليف أشتات وسل سخائم
تلادا لها من عهدها المتقادم
جهول بأسرار العلا غير عالم
سوى شسع نعل منكم لم يقاوم
وما هو منه فى اللهى واللهازم
يعود على أبناء كعب وحاتم

به ثبت الاسلام فى مستقره
اذا مشقت يمناه فى بطن مهرق
ولاحت سطور كالشباب حكين
ومن لى بتقبيل الحروف فانها
أقل أيادى كتبته رد عسكر
ورثت العلا من تغلب ابنة وائل
وأنى يجاريكم الى المجد حاسد
وهذا بجير وهو خير لداته
ويا عجباً يعزى الى الجود حاتم
بل المثل المضروب فى الجود للذى

وله من أخرى فى الوزير أبى الحسين بن سراج :

شفيف الراح من خلف الزجاج
أتى بين انفراد وازدواج
لها منه سوى نتف خداج
فما جليت بغير بنى سراج

تشف وراء فطنته المعانى
وما طلب الكلام الحر الا
أقام العلم دهره ليس يبدو
وكان الناس فى ظلمات جهل

وقال من قصيدة :

مما قطعن من اللياب المقفر
لا ذا أنيل وهذه لم تعمر

وبنات أعوج قد برمن بصحبتي
بيداء كالمحروم فى أحواله

أراه كأن له فى هذا بعض المام ، بقول أبى تمام :

واذا تأملت البلاد وجدتها تثري كما تثري الرجال وتعدم

والى هذا أشار بعض أهل العصر بقوله :

حظ من الدين والدنيا أصبت به كل يرزا حتى هذه البقع

ولأبى بكر من قصيدة :

ما بين ممتنع طورا ومنفعل
ولا تنزه فى روض من الجندل
كما رأيت بأن القوم فى خطل
سكرى من الدل أو الحاظها النجل
لو غيرها حجب الغيران لم أبـل

من لم يعانق غزالا فى مغازلة
فما قضى من لبانات الصبا وطرا
وعاذلين رأوا أنى على خطأ
هل أنكروا غير تهيامى بغانية
ما زال يحجبها الغيران مذ نشأت

في كلة سيراى تتقى نظري
من لى به حيث لا نخشى مراقبة
في ليلة لا يلى المريح مدتها
أما الرياض فقد أمهرتها قدحا
عقيقة في يدى سالت وأشربها
وله من أخرى :

كيف صبري على الكؤوس اذا ما
عشر الروض في ذيول النسيم
وهذا من المقلوب ، انما يعثر النسيم في ذيول الروض ، فان ذهب به أبو بكر
مذهب الأخطل في قوله :

«أو بلغت سواتهم هجر»

وشبهه فأبو بكر ممن لا يتهم أدبه . ولا يعجم نبعه ولا غريه .

رجع :

وقال :

ورنا نرجس الربى بعيون
وبدا معصم الخليج فخطت
سوف تدري الهموم أية راح
بنت دن رعت ببيداء نفسى
كرمت في حدائق غرسوها
طفت بالأيك فاستهلّت دموعى
تتغنى الثقيل حتى كأن قد
عجمة أعربت بوجد دقيق
وجلا الورد عن محيا وسيم
فوقه الريح أسطراً من وشوم
أخذت من أرواحنا والجسوم
فهى تعدو به كعدو الظليم
لكرام فسميت بالكروم
لحمام تبكى فراق حميم
نشر الله معبدا من رميم
وكلام مقطوع من كلوم

قال ابن بسام : لو لم يتجاوز معبد الثقيل الى سواه ، لكان لأبى بكر ما
ادعاه ، وقرب منه ما تكلفه وتعاطاه ، وأسحر منه وأولى بالحكمة وفصل
الخطاب ، أبو العلاء حيث يقول ، يصف الأبل :

كأن المثانى والمثالث بالضحى
كأن ثقيلاً أولاً تزدهى به
تجاوب في غيد رفعن طوال
ضمائر قوم في الخطوب ثقال

ولعمري لو شبه سجع الحمام ، بخفائف الغريض وأهزاج حكم الوادى لكان
أحسن عبارة وأفتق إشارة .

وأما قوله : « كلام مقطوع من كلوم » فأشفي للقلوب من اعتلال النسيم ، وأحلى على الأكباد من محاورة الطرف السقيم .

وفي هذه القصيدة يقول أبو بكر :

أكلتها السفار أكل القضم	أوضعت بي اليه وجناء حرف
بين ايضاعها وبين الرسم	تترك الريح خلفها وهي حيرى
طبعتها بالميم بعد الميم	ظلت أطوى القفار منها بلام
فهي تخطو على وظيف رثيم	فأتته والمرو قد نال منها
بسنام كالعارض المركوم	وقليلا تمتعت في الفيافي
ماله نهبة لكل عديم	فأنخنا الى فناء جواد
وشربنا [...] شرب الهيم	فأكلنا لهاه أكل الضواري

أما تشبيههم الخليج بالمعصم ، فطريق لم يبق له ستر محرم الا هتك ، ولا فيه موضع قدم الا سلك ، فمن أشهر منارا ، وأبهره أنوارا ، قول ابن عمار :

روض كأن النهر فيه معصم صاف أطل على رداء أخضرا

وقوله : « فسميت بالكروم » يشبه لفظه لفظ بيت المعرى ، وبينهما من البعد ، ما بين الدرة والحجر الصلد ، المعرى أثبت فيه قدما ، وأمس رحما ، حيث يقول :

وأنت أبوها ان غدت كرمية وان سكنت راء فوالدها الكرم

ونكرت بقوله : « بلام ، طبعتها بالميم بعد الميم » ، قول ابن الرومي في جهة أخرى :

يا أخا النحو والمقدم فيه لم ترى اللام أدغمت في الميم
وكتب خلف الأحمر الى بعض المؤدبين :

أترك في الحلال مشق صاد وتأتى في الحرام مشق ميم

وذكر الثعالبي أنه كان للقاضي علي التنوخي غلام وسيم ، اسمه نسيم ، وكان يؤثره على سائر غلمانته ، ويخصه بتقريبه واستخدامه ، فكتب اليه بعض اخوانه يداعبه :

هل على لامه مدغم لاظطرار الشعر في ميم نسيم

فوقع تحته : نعم ولم لا ؟ !

وقال أبو بكر من قصيدة :

واحر قلبى من خليط زائل	صبرى على آثاره سيزول
زمت له قلص يبارين الصبا	ولربما سبق الهبوب ذميل
هم فارقوك وحملوك من الأسى	ما ليس يحمل شامة وطفيل
زرعوا بقلبك حبه ، ونباته	برح الجوى ، لا اذخر وجليل
شيعتهم متوجهين وأدمعي	حذر الفراق سوافح وهمول
ونظرت فى تلك الحدوج وطبها	غزلان وجرة أهيف وكحيل

وقال من أخرى :

لا تحملنى على التسويف فى هبة	فيلستقى فرحى فيها مع الأسف
ليس اعتذارك بالأشغال أقبله	فان شغلك بي أدنى الى الشرف

وهذا كقول الأول :

ولا تعتذر بالشغل يوما فانما	تناط بك الآمال ما اتصل الشغل
-----------------------------	------------------------------

وقال أبو حاتم الحجاري :

انى لأعلم أن شغلك بالعلا	والمجد فاجعلنى من الأشغال
--------------------------	---------------------------

وقال أبو بكر من قصيدة :

عليك أبا عبد الله خلعتها	لها البدر طوق والنجوم دلائل
وما هى الا الدهر فى طول عمرها	وان لم يكن فيها الضحى والأصائل

قال ابن بسام : ويا لهذا البيت ما أحسن مذهبه ، وأبدع منتواه ومنقلبه ، الا أنه أتى بالدهر مسلوب الضحى والأصائل ، فلم يزد على أن جلاه فى زي عاطل ، لا بل أبرزه فى مسوح شوهاء ثاكل ، وليت شعرى أى شىء أبقى للدهر المظلوم ، بعد ضحاه الناصعة الأديم ، وأصالة المعتلة النسيم ؟ هل بقى الا ليله الأسود الجلباب وهجير السائل اللعاب ؟ ! ولو قال لمدوحه : «وتلك العلا فيها الضحى والأصائل» لأبرز قصيدته رفاقة البرود ، شفافة العقود ، ولأفاد ممدوحه بهذه الكلمة مدحا لا يسعه المقال ، ولا تفى به القصائد الطوال .

وله من أخرى :

وما أكثر الأقوام الا ثعالب	تروغ ولا يحلى لديها بطائل
يردون ذهنى حائرا فى طباعهم	كأنهم من مشكلات المسائل
وأصغى الى أقوالهم فتريينى	صدور لهم أقوين مثل المنازل

وقال :

خذها على وجه الربيع المخصب
همى سماء علا وهمى ماردا
والله ما أدري وانى واقف
أفضضت دنا أم فككت الخدر عن
أخت الزمان تكسبت من خلقه
وله من أخرى :

مسومة تحكى سنابكها الصفا
نمتها الى حر كريم صفاتها
ومنها :

دخلت عليها خيمة شرفاتها
فقلت : ألص قلت : بل ذو صرامة
اليك شققت الليل كالسيل يرتى
فقلت : أقم عندي لك الوصل كاملا
ومن قوله :

عاطيته والليل يسحب ذيله
حتى اذا مالت به سنة الكرى
زحزحته عن أضلع تشنقه
قال ابن حيان : ومن النادر الغريب انتماءه في تجيب ، وبهذه النسبة مدحته
الشعراء الى آخر وقته ، منهم ابن شرف القيروانى حيث يقول :

يا ملكا أمست تجيب به
لولاك لم تشرف معد بها
انتهى كلام ابن حيان .

قال ابن بسام : وأول قصيدة ابن شرف هذه في المظفر قوله :

زار وقد شمر فضل الازار
وروضة الأنجم قد صوحت
قلت له : أهلا بطيف دنا
كيف خطوت الشر ثم الشرى
جنح ظلام جانح للفرار
والفجر قد فجر نهر النهار
من نازح الدار بعيد المزار
وابنى هلال والقنا والشفار

أصهوة الغبراء أم داحسا
وجئت بالخطار أم أعوج
وهل تقلدت لدفع الردى
وأنت زيد الخيل أم عامر
فقال لا هذا ولا ذا ولا

ومنها :

سيرى فلم نقذفك في مجهل
حيث علوق العلم مطلوبة
خذيها أبا بكر غريبيبة
ليست من الشعر القصير الخطي
قدمتها قبل قدومي كما

ومنها :

أقمت للعلم منارا وما
فما نداماك سوى أهله
ميك ميزان عقول السورى
تبدو لك الهجنة في لحظة
من لفظهم تعرف ما هم وفي
فما رأيتك العين تصفى الى

وكان ابن شرف كتب بهذه القصيدة من **طليطلة** اليه . فوصله بمائة مثقال من ضرب السكة لديه .

قوله : « زار وقد شمر فضل الازار ، جنح ظلام » أشار الى أنه زار آخر الليل كما قال أبو تمام :

الدهر عندكم طريف محدث
عطرتم نفس الزمان فأصبحت
وفخاركم ما زال فيه تليدا
أثاركم في الجيد منه عقودا

في ذكر ذي الوزارتين أبي محمد بن هود

كانت قد أزاحته عن حضرة أسرته سرقسطة . أسباب غاب عنى شرحها ، فتجول على رؤساء أفقنا ، واتخذ آخر أمره حضرة بطليوس وطننا ، فرحب به المتوكل فأواه ، وأجزل قراه ، وولاه مدينة الأشبونة ، ثم صرفه عنها ، وصدر

محمود السيرة منها ، وكان ممن تنذر له الأبيات ، وتستظرف له بعض المقطوعات ، كقوله وقد سئل عما اكتسبه في ولايته ، فقال :

وسائل لي لما	صدرت عما وليت
ما نلت ؟ قلت : ثناء	يبقى معي ما بقيت
وان أمت كان بعدى	مخلدا لا يموت
عفت الفضول لعلمي	أن ليس يعدم قوت
وصنت قدرى منها	تجملا فغنيت

وهو القائل وقد خرج عن سرقسطة :

ضللتكم جميعا يال هود عن الهدى	وضيعتم الرأي الموفق أجمعا
وشنتكم يمين الملك بي فقطعتم	بأيديكم منها وبالفدر اصبعنا
وما أنا الا الشمس غير غياهب	دجت فأبئت لى أن أنير وأسطعا
وان طلعت تلك البدور أهلة	فلم يبق الا أن أغيب وأطلعا
فلا تقطعوا الأسباب بينى وبينكم	فأنفكم منكم وان كان أجدعا

واحترق له بيت أيام مقامه بطلايلة ، فقال :

تركت محل جنة فوجدتها	على حكم أيدي الحادثات جهنما
لتصطنع الأيام ما شئت أخرا	فما صنعت بي أولا كان أعظما

وأنشدت له مما نقش على رأس سيف للمتوكل ، وأخبر عنه :

لا تخش ضيما ولا تمس أخا فرق	إذا رئاسي في يمنى يدك بقى
أصبحت أمضى من الحين المتاح فصل	على الكمأة وبى عند الوغى فثق
لولا فتور بالحاظ الظباء اذن	لقلت اني أمضى من ظبا الحدق

ويتطرف هذا المعنى قول ابن شرف :

لم يبق للظلم في أيامهم أثر	الا الذى في عيون الغيد من حور
----------------------------	-------------------------------

ولابن هود في المتوكل أيام سلطانه بيابرة :

يا خائف الدهر يمم أرض يابرة	تأمن وتكفى الذى تخشى من الحذر
وواصف البحر في شتى عجائبه	حدث بلا حرج عنه وعن عمر
وكم سمعنا قديما عن مكارمه	حتى رأينا فأزرى الخبر بالخبر

وفاة المنصور بن أبي عامر مروراً بطليطلة

● قال ابن حيان : وخرج المنصور الى الغزاة ، وقد وقع في مرضه الذي مات منه في صفر سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة . واقتحم أرض جليقية من تلقاء مدينة طليطلة ، ومرضه يخف وقتاً ويثقل وقتاً . ونفذ على عمل بني غومس الى أرض قشتالة ، بلد شانجه بن غرسية . وهو كان مطلوبه الذي ألب عليه الجماعة ، فأحل الغارات بأقطاره فقيوت عليه العلة هنالك ، فاتخذ له سرير خشب ودع عليه أعضاءه ، وسوى مهاده متطاوّل الشكل يمكنه الاضطجاع عليه متى خارت قواه . وكان يحمل سريره على أعناق الرجال ، وسجفه منسدل عليه ، وعساكره تحف به وتطيع أمره ، وكان يحمل بين يديه شراع خفيف منصوب ينقل على الأيدي ، فاذا حركته الخلفة أنزل سريره الى جانب الشراع ليقضي ما به من حاجة ؛ وتناول وضوءه جاريتان من قوامه كان حملهما في غزاته ، فكانتا تسييران وسط الفتیان . وما كان بين نزوله واستقلاله الا الفترة لقوة الخلفة ؛ بذلك قطع أربعة عشر يوماً حتى وصل الى مدينة سالم . وكان هجر الأطباء في علته تلك لاختلافهم فيها ، واقتصر على أوصاف كاتبه الجزيري عبد الملك . وأيقن هنالك بالموت ، وكان يقول : ان زمامي يشتمل على عشرين ألف مرتزق ما فيهم أسوأ حالا مني ؛ وددت أن أقال زلتى وأنا كبعض هؤلاء السودان الحاملين لسريري . وكان تحمل سريره السودان الرقاصة للين مشيهم ، وكان يتأذى بصنان ريحهم مع ما كان حوله من الطيب . فاشتغل ذهنه يومئذ بقرطبة وهو بمدينة سالم وقد أيقن بالوفاة . فأمر ابنه عبد الملك بالنفوذ لشدها في طائفة من ثقات غلمان به بعد أن أوصى كلهم أشتاتاً وجماعة . ثم خلا بولده عبد الملك يوصيه ويودعه ويقبض على يده . وكلما ذهب عنه استرده مستدركا بوصيته . وعبد الملك يبكي فينكر ذلك عليه ويقول : هذا أول العجز والفشل ؛ الى أن قضى وطره مما بينه وبين عبد الملك . وأمره أن يستخلف أخاه عبد الرحمن على العسكر الى أن ينفذ حكمه فيه . وخرج عبد الملك الى قرطبة ومعه القاضي ابن ذكوان فدخلها في صدر شوال من العام ، فسكن الأرجاف بموت والده ، وعرف الخليفة كيف تركه .

قال ابن حيان : قال لي أبي خلف بن حسين : ووجد المنصور بعض الراحة ، وأمر أن تدخل عليه جماعة فدخلت في جملتهم ودنوت منه وهو كالخيال لا يبين كلاماً ، وأكثر عمله بالاشارة كالمسلم المودع . وخرجنا فكان آخر العهد به . ومات ليلة الاثنين لثلاث بقين لرمضان من العام المورخ ، وعلينا في العسكر عبد الرحمن ابنه فعزينا ؛ وكان أوصى أن يدفن حيث يقبض ولا ينقل تابوته . فدفن في قصره بمدينة سالم . ورأوا أنه اختار الله له ، ان كانت من أطيب ما بنسأه رحمه الله .

فصل في ذكر الوزير أبي الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادي الدارمي ،

واثبات جملة من أشعاره مع ما يقتضيت بها من طريف أخباره

بلغنى أنه خرج من بغداد إذ مات أبوه ، وأساء عشقته أخوه ، وسنه دون العشرين ، فلحق بالأمير محمود ، وشهد حروبه بأرض الهند ، وله فيه غير ما قصيد . الى أن توفي فولى أكبر ولده بعده ، فبقى أبو الفضل على حاله عنده ، الى أن خرج بعض اخوته عليه ، فنهض لحربه ، فدبر وزراؤه في طريقه القتل به ، وشاوروا أبا الفضل في القضية ، فأبى من تلك الدنية ، وأودع أذن الأمير ، ذلك التدبير . فخاف وزراؤه أن يقتضحوا ، وعاجلوه قبل أن يصبحوا ، وقيدوه قبل أن يقدم أخوه ، فسبقهم أبو الفضل اليه ، ونص ما فعلوه بأخيه عليه . فشكر له وفاءه لصاحبه ، وقال : الوفاء حلية الأحرار ، والغدر ثوب الأشرار . ووصل القوم بعد بأخيه ، ففك عن أغلاله ، وحبس عند بعض عماله . وضرب أعناق الغدرة ، وقرب أبا الفضل واستوزره ، الى أن خرج عنه في خبر طويل ولحق بشروان شاه ، وصحبه الى أن توفي أيضا ولوا أخاه ، فكاتب أبو الفضل الخليفة أبا جعفر القائم ببغداد في الوصول اليه ، فاتفق ورود كتابه اثر وفود رسول المعز ابن باديس عليه ، فطلب الخليفة رجلا يسفر بينهما ، فأرشد الى أبي الفضل ، فوجه عنه وورد ، فجهزه وخرج مستترا من بلد الى بلد حتى وصل حلب ، فاشتهر خبره وطلب ، فمدح معز الدولة بقصيدته التي أولها : « عهود الصبا من بعد عهدك أمل » فأمر له بثياب سرية ، وحمله على فرس عربية . ثم انفصل عنه واجتاز بمعرة النعمان ، وبها المعرى أحمد بن سليمان ، فوصل اليه ، وأنشده قصيدته اللامية ، فقبله المعرى بين عينيه ، وقال له : بأبى أنت من ناظم ! ما أراك الا الرسول الى المغرب . فوصل مصر ووزيرها يومئذ صدقة بن يوسف بن علي الملقب بالفلاح ، فقصده مجلس قاضي القضاة بها ، وأثبت عقدا على رجل مشهور ، كان يومئذ ببلاد المغرب بشهادات زور ، ولما ثبت ذلك من الطومار ، خرج من مصر في زى التجار ، يؤم بلاد افريقية ، فوقع على خبره صاحب الاسكندرية ، وطلبه فأعجزه . وبلغ طرابلس المغرب أول عمل المعز ، فأفشى أمره ، وفضح سره ، فأمر المعز باشخاصه . فلما وصل سعى به عنده وأراد قتله ، فقال له : تأن في ، واستقص على ، فان صدقت والا قتلت . فمشى أبو الفضل بالقيروان مرقبا عليه ، الى أن ورد كتاب القائم بصدقه ، فاعتذر اليه ، ورفع منزلته وأكرمه ، وبسط يده في مطالبيه وحكمه . فحملهم أبو الفضل الى منزله ، وأحسن اليهم ، وخلع عليهم . فعجب المعز من كرمه ، وقلده تدبير حشمه . وكان ورود أبى الفضل بلد القيروان سنة تسع وثلاثين . حكى ذلك أبو علي بن رشيح وقال : انه أول من أدخل كتاب اليتيمة للثعالبي عندهم ، وشهد حصار القيروان معهم . فلما كان عام ستة

وأربعين صرف المعز خطبته الى صاحب مصر ، ونبذ العباسية . فخرج أبو الفضل الى سوسة ، فتناول عليه أهلها ، فخرج عنهم بعد أن أوقع الفتنة بينهم ، وتركهم فرقتين : قيسية ويمنية ، وأوقع في نفوسهم أن الحرب قائمة بين هاتين القبيلتين الى يوم القيامة . فاقتتل الفريقان الى أن تغلب عليهم تميم بن المعز . وتردد أبو الفضل هنالك عدة سنين ، وشهد الحروب مع بلقين . ثم انتبذ من تلك الناحية ، وركب البحر فنزل بدانية ، فبعث اليه أميرها ابن مجاهد بلحم وأرباع دقيق أول نزوله ، فصرفها في وجه رسوله ، وتعجل الارتحال عنه الى بلنسية فلقى برا . واستجلبه المأمون ابن ذي النون فحسن بطليطلة مثواه وأجزل قراه ، وتوسع له ولعبيده في البر ، وأجرى له ستين مثقالا في الشهر . وكان دخوله طليطلة يوم الجمعة لثلاث بقين لجمادى الأولى سنة أربع وخمسين ، وتوفى بها رحمه الله منتصف شوال سنة خمس وخمسين .

ومن غريب وفاء المأمون له - زعموا - أنه استمرت جرايته على حاشيته ، وتجافى عن ميراثه وجعله وصية له اذ لم يوص لفجأة وفاته . ورثاه الحكم أبو محمد بن خليفة بشعر يقول فيه :

سقى الله قبراً حل فيه أبو الفضل	سحاباً يسح المزن وبلا على وب
وكيف يسقى المزن قبراً يحله	وفي طيه بحر المكارم والفضل
وبدر تمام من تميم نجاره	ملوك لهم قام الملوك على رجل

ومنها :

وما الدهر الا أكل من نفوسنا ونحن لديه في الحقيقة كالأكل
وهذا كقول المعري :

وما الأرض الا مثلنا الرزق تبتغى وتأكل من هذا الأنام وتشرب
وقد كرر المعري هذا المعنى في مواضع :

فشم صارماً واركز قناة فللردى يد هي أدرى بالطعان وأدرب
أفض لهامات وأرمى بأسهم وأطعن في قلب الخميس وأضرب

جملة من أخبار بني ذي النون وذكر أولية أمرهم

قال ابن بسام : وتتلو هذا الفصل بنبذ لها بهذا الموضع موقع ، من أخبار طليطلة البائسة ، وشرح الحال التي أبادت مصانعها ، وطيرت واقعها ، وما آل اليه أمر المملكة القابضة للأنام ، المبنية على هدم دعائم الاسلام ، المجموعة من افتراق

الجماعة ، المغلوب عليها أئمة السمع والطاعة . ونذكر طرفاً من حديث مآل أميرها المترف المسرف ، الملقب - كان - من الألقاب السلطانية بالقادر بالله ، جهلاً منه بحقيقته ، وتهاوناً بالله وخليقته . خطة زاده المقدار عن مستقرها ، ودعوى دفع الليل والنهار في صدرها . ونأتى أولاً بفضل جودة ابن حيان في ذكر جده اسماعيل الملقب - كان - بالظافر ، رئيس الخلاف ، ورأس الانحراف ، وجمهور الجور والاسراف .

قال ابن حيان : وكانت أولية نباهة بنى ذي النون من جدهم ذي النون ، في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن . وقد اعتل له خصى في طريق قفوله من الثغر فتركه عنده بحصن أقليش يمرضه ، فلما أفاق لحق بالحضرة مع الخصى ، فأخذ له توقيفاً بتقديمه على حصنه . ثم تداول تلك الخطة ولده إلى أيام الحكم . فلما اضطلع بالدولة ابن أبى عامر ، تعلق به المضراس بن ذي النون واسماعيل ابنه معه ، فلما انقرضت الدولة العامرية لحق بالثغر وجمع إليه بنى عمه ، وخطب من سليمان ولاية أقليش فولاه إياه ، ثم تهيأت له قلعة كونكة ، وكانت بيد واضح العامري ، فلما مات ضابطها اسماعيل منتظراً بزعمه من يجتمع عليه الناس ، وتحت ذيله من غلول واضح كثير ، حين لم يترك إلا أطفالاً وأمهم حرته ، ألقى بنفسها إليه ، معتنقة بأمانه ، فحصل لاسماعيل البلد . وسطاً على مجاوريه من قواد الثغور ، فاستقامت له الأمور . وثنى له الوزارة سليمان وسماه ناصر الدولة . فاستقل ذلك كله ، وأثر الفرقة ، واقتطع جانبه ، فكان أول الثوار لفارقة الجماعة ، وفرطهم في نقض الطاعة . ثم اتفقت له أمور اتسع بها عمله ، وكثرت جبايته وجمعه . وكان من البخل بالمال ، والكلف بالامساك ، والتقتير في الانفاق ، بمنزلة لم يكن عليها أحد من ملوك عصره . لم يرغب في صنعة ، ولا سارع إلى حسنة ، ولا جاد بمعروف ، فما أعملت إليه مطية ، ولا حملت أحداً نحوه ناقة ، ولا عرج عليه أديب ولا شاعر ، ولا امتدحه ناظم ولا ناثر ، ولا استخرج من يده درهم في حق ولا باطل ، ولا حظى أحد منه بطائل . وكان مع ذلك سعيد الجد ، تنقاد إليه دنياء ، وتصحبه سعادته فينال صغاب الأمور بأهون سعيه . وهو كان فرط الملوك في إيثار الفرقة ؛ فاقتدى به من بعده ، وأموا في الخلاف نهجه . فصار جرثومة النفاق ، وأول من استن سنة العصيان والشقاق ، ومنه تفجر ينبوع الفتن والمحن . فتبارك من أملى له ، ولم يرض له عقوبة الدنيا مثوبة .

فقد كان أصحابه حفظوا عنه كلمات في سبيل ذكر السلف الصالح زيادة إلى مساوئه . وذلك أنه نوظر في شأن التأمير لبني أمية فقال : والله لو نازعني سلطاني هذا الصديق لقاتلته ولما سلمت له ، فكيف أسلم سلطاني لمن يدعى إليه من بني أمية ، ممن لا يوجب الله طاعتهم ، عترة مروان خيط باطل ، الذين لم يسبق لهم صحبة ، ولا أدخلهم السلف في شورى الامامة ؟ .

قال ابن حيان : ومن أشهر حكاياته في ذلك ، ما أخبر عنه أبو العباس السكري الاسكندراني - رجل ممتع الحديث طيب المجالسة - وحضر مجلس ابن حمود بمالقة ، فسأله اسماعيل بن ذي النون عن مجلسه معه ، فأثنى عليه ، فقال أثنى على أديعاء ؟ فعل الله بهم وصنع ، فبهت الاسكندراني وقال : معذرة اليك أيديك الله ، فأنى جهلت رأيك في هذا الرجل مع أني ألزمت نفسي ألا أذم ذا سلطان البتة ، وأنت غير منازع في أئمتك المروانية ، وهم أهل ذلك منك ، أقاديم الملوك ، وذوو العدل والسياسة . [ومضى] الاسكندراني في اطرائهم ظناً أنه يسره ، إذ كان يقول بدعوتهم في ذلك الوقت . فقطع عليه ابن ذي النون بأسوأ من قطعه على الهاشميين ، وأنحى على ذم بنى أمية فلم يبق ، ووصل كلامه بأن قال : توارثوا هذه الامارة مخرقة وضعها قريش لاستعمال الناس ، والناس لأب وأم ، والفخار باطل ، أحقهم بالملك من استقل به . والله ما أولى غير نفسي ، ولا أقوم الا بسلطاني ، ولو نازعني فلان وفلان - وذكر السلف الصالح الذين كرم الله ذكرهم - لضربتهم دونه بسيفي ما استمسك بيدي . فقام عنه الاسكندراني مبهوراً وأفشاه في غير أرضه . وأخبره في مثل هذا كثيرة . انتهى كلام ابن حيان .

فقلت أنا : وليت اسماعيل هذا بقي ووقي ، على فظاظلة جانبه ، واختلاف مذاهبه ، وطول اعراضه عن عواقبه ، فلقد كانت عليه وقته قليل رقبة ، وعنده بعض أهبة ، لقرب عهده بأيام الجماعة ، واستشعاره عودة السمع والطاعة ، ولوفور من كان قبله يومئذ من مشيخة ذوي الهيئات ، وزعماء سائر الطبقات . ولقد أساء من جاء بعده ، ذهاباً في الكبر ، وتهاوناً بالأمر ، وقعوداً عن النصر . واستظهاراً بأحزاب الكفر ، سلمه باطل وبطالة ، وحربه غواية وجهالة ، في المشركين نجومه وديممه ، ولهم مواليقه وديممه ، وفي المسلمين همومه وهممه ، وعندهم بوائقه ونقمه .

بلغني أنه لما مات الظافر اسماعيل ، كان حملة دولته ورؤوس جملته ، الحاج ابن محقور وابن لبون وابن سعيد بن الفرغ . وكان أكد ما عهده الى ابنه يحيى المتلقب بعده بالمأمون الاقتداء بهديهم ، والانتهاى الى رأيهم ، قال بعضهم : فدخلنا عليه لأيام يسيرة من مهلك أبيه ، وهو [في] ايوان كبير قد ملأه بنقر الفضة حتى لا فضل فيه عن مجلسه ، فأمرنا بالدنو ، فبعد لأي ما خلصنا اليه ، لكثرة ما كان من ذلك بين يديه ، وقد امتلأت صدورنا عجباً ، وتقيدت الحاظنا فما تجد متقلبا ، لهذا الاتفاق كيف وقع ، ولهذا السحت من أين جمع . فأخذ يفيل رأي أبيه في اختزانه ، ويعرض بجمود كان في بنائه ، ونحن نقول : لعله قد أنف لضياع شغوره ، وتشعث أموره ، وانتشار الشرك بازائه وظهوره . وكأنه فهم ما نحير ، وعلم الى أين نشير ، فأظلم ما بيننا وبينه ، وازور ازورارة أنكرنا بها أثره وعينه ،

[وقال:] من حق مثل هذا أن يصرف في مثل ضروب الحلية الرائقة ، وأنواع الآتية المؤانقة . وأى معنى في كونها نقر ؟ ما أعجب هذا وما أنكر ! هذه بالحجارة أشبه منها بآلات الامارة . فقال له ابن محقور ، وكان أشدهم جرأة ، وأثقلهم وطأة ، لعزة ركنه ، وادلالة بفضل سنه : ان هذه - أيدك الله - اذا كانت نقرأ بقيت ذخيرة زمان ، وعدة لحدث ان كان ، ولا تحول آلات الا بعد نفقة ، وتحيف من كل طبقة ، ثم لا تزال نصب عين من يرد من رسول ، وينتاب من ابن سبيل ، وينمى خبرها الى الطاغية فرذلند فتدعو السياسة الى أن يخص منها بقسم ، ويضرب له في أنفسها بسهم . فزوى عنهم وجهه ، ولم يأمنوا نجهه ، وثقلوا بعد عليه ، ويئسوا من شىء من الفلاح يجرى على يديه . وخالفهم الى ما أراد ، فأبدى فيه وأعاد ، وألت حاله الى ما قال الشيخ : ما لقص ولا زاد .

ذكر الخبر عن بعض ما تناهى اليه المأمون

من تشييد البنيان بقصور طليطلة

● قال ابن بسام : ثم أخذ المأمون في بناء مجلسه الكبير المكرم ببناء باء باثمه ، وخلا سريعا من اسمه ، لم يخلده في عقب ، ولا قضى من لذته به كبير أرب . وكان الذى تولى له رصف بدائعه ، واحكام مصانعه ، رجل من مهرة الفعلة ، أكثر خلق الله صلفا ، وأشدهم تتايعا وسرفا . وكان المأمون لعدم نظيره ، يحتمل من اعتدائه وتغريده ، وتهاونه بجميع أموره ، ما لا مزيد عليه ، ولا انتهاء لأحد اليه . واتفق له مع ذلك الصانع أن وعده بتمام مجلسه المشيد قبل اطلال العيد ، فرشح ابن ذي النون للجلوس في صدره ، والاستطهار على زينة عيده بالفراغ من أمره . وتقدم الى من كان بحضرته من الشعراء ، على قلتهم ببابه ، ونفارهم عن جنابه ، لقلّة نائله ، وتفاهة طائفة ، في وصف مجلسه ذلك وتقريظ مبانیه ، والثناء على مخترعه وبانيه ، ثم ان ذلك الصانع استمر على ديدنه من الخلاف ، وعمل على شاكلته من التهاون والاختلاف . واتفق أثناء ذلك أن ضربت خيل الطاغية فرذلند على بلاد المظفر بن الأفطس ؛ وطئتها وطأة محت رسومها ، واستباححت حريمها ، واجتاححت حديثها وقديمها ، وأنست ما كان قبلها من جب الذروة ، وانصداع المروة ، وأياست من البقاء ، وأذنت بشمول البلاء . فأخبرت عن وزيره أبى المطرف بن مثنى أنه كان يومئذ بمنزلة بين الوجوم والاطراق ، وعلى نهاية الحذر والاشفاق ، اذ وردت رسل المأمون عنه تترى ، وهجمت عليه زمرة بعد أخرى ، فدخل عليه فوجده قد استشاط حنقا ، حتى كاد يتميز شققا . فظن أن ذلك الضجر ، لما كان ورد به الخبر من ضرب الخيل على بلد المظفر ، واخفار الذمم ، وزلة القدم ، وانتهاك الحرم . فطفق ابن مثنى يبسطه ويقبضه ، تارة

يسليه وتارة يحرضه ، وطورا يقول له : فيك الخلف مما فات ، ومرة يقول : قد آن لك أن تنكر على الطاغية هذا الافتيات . فلما فهم منحنى ابن مثنى منه ، أعرض عنه ، وقال له : ألا ترى هذا الضالع الفاعلي الصانع - يعني عريف بنيانه - صبرت له وأغضيت. وفعلت به كيت وكيت، فما زاد الا تنغيصا للذتي، واستخفافا بامرتي ، وتصغيرا لشأني ، واجترأ على سلطاني . وهبت ريحه العقيم ، تقعد في غير شيء وتقيم ، فسقط في يد ابن مثنى وانكسر انكساراً تبينها ابن ذي النون فيه . ولم يجد بداً من أن قال له : هون عليك ، والكل طوع يدك ، وناهيك ، وأنا أكفيك ؛ وخرج ومثل بين يدي ذلك الصانع يعده ويمنيه ، ويداوره ويداريه ، والصانع مقبل على شأنه ، ما أمره بالجلوس ، ولا زاده على التجهم والعبوس ، فبعد لأي ما ضرب له مثل العامة وهو قولهم : ما أقرس الجالس . ثم قال : وبالحرى والله أن يتم الى عيد آخر ، فليجهد جهده ، وليأت بكل ما عنده . فرجع ابن مثنى الى ابن ذي النون وهون عليه الشأن ، وخفف لديه ما كان وخرج لا يدرى من أي الثلاثة يعجب : أمن اغترار [ابن] ذي النون وجهله ، أم افضاء الضرورة بنفسه الى خدمة مثله ، أم من جرأة ذلك الصانع القصير اليسد ، النزر العدد ، على ذل [ابن] ذي النون وذله .

قال ابن بسام : فتبارك من أحاط بالأشياء ، ولم يخف عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، ومن جعل اليوم ذلك القصر العجيب بنيانه . الهادم - كان - للدين والدنيا شأنه ، مربطاً للأفراس ، وملعباً للأعلاج الأرجاس . من رجال الطاغية أذفونس بن فرذلند ، بدد الله شيعته .

ذكر الخبر عن مآل حفيده المتلقب بالقادر

مع (ما) يقشبت به من خبر نادر

قد ذكرت في القسم الثاني من هذا المجموع ملك جده المأمون بقرطبة ، ويعود بنا القول الى ما بدأت به من ذكر حفيده المتخذ له ذلك الصنيع المعداد على الأيام ذنبه . الباقي في صفحة الاسلام ندبه . وقد ذكرت أيضاً في القسم الثالث منه مهلك حفيده بيلنسية ، وأوضحت صبحه ، واستوفيت شرحه . وأجرد ها هنا القول في أخذ طليطلة من يديه ، ودوران الدائرة السوء بها على المسلمين وعليه ، وما تعلق بأذيال ذلك من غريبة ، وانخرط في سلوكه من أعجوبة .

كان يحيى حفيد ابن ذي النون ركين المجلس ، ثرى المغرس ، حلو الحوار ، لين التصرف بين الايراد والاصدار ، مليح شبها الخط هذه كانت فضائله فقط .

لم يكن له ولسلفه قبله باع في الطلب ، ولا حظ في الأدب ، وكان - زعموا - آية في قرب غوره . وسكون فوره ، والحدود بعد كوره ، أمعة امرة ، أجبين من قبيرة : ان حزم لم يعزم ، وان سدى لم يلحم ، الى ما كان يغرضه من غرض ، ويلزمه أكثر مدته من مرض ، من ذرب لازم - زعموا - كان لمعدته . واستحرار حاسم لمرته ، وقد كان جده المأمون قسم الحضرة قسمين ، وأدار سياستها على رجلين ، فجعل تدبير الأجناد ، والنظر في طبقات القواد ، الى سائر الشؤون السلطانية ، والأعمال الديوانية الى ابن الفرغ ، وبقيصة الاصدار والاياراد ، والنظر لجماهير الناس وكواف البلاد ، والرأى والمشورة ، والصغيرة والكبيرة ، الى الفقيه أبى بكر بن الحديدى ، رجل كان له قدم واقدام ، وعنده نقض وابرام . وكان قد عهد لحفيده هذا المرشح لأمره متى ورث سلطانه ، وتبوا مكانه ، أن يشد على ابن الحديدى كلتا يديه ، ولا يفتات بأمر من الأمور عليه . وأخذ الموثق الغليظ على ابن الحديدى ليبلغن كل مبلغ في شد أزره ، وتثبيت أمره علما باستقلاله ، واستنامة الى يمن مناقبه وحلاله ، وحفظا لما كان عنده من يده في اقامة أوده ، وممالأته على أهل بلده . وقد كان أكثرهم فيما سلف نفروا عنه ، وهموا بالاستبدال منه ، فنكت أبو بكر هذا قوى مكرهم ، وخاطب المأمون يومئذ الى بلنسية بجلية أمرهم ، خوفا من الفتنة ، وتفاديا من المحنة ، فانكدر المأمون من حينه الى طليطلة وقد ضاق ذراعا ، وكادت نفسه تذهب شعاعا . وأدار الحيلة على مشيخة طليطلة في خبر طويل حتى سجن عامتهم بمطابق حصن [وبذة] . أخرى قلاع النبعة ، ولم يزلوا بها حتى شاب الشباب ، وبليت الأحقاب ، وتلك اليد كان المأمون يراعى لابن الحديدى ، فوضع في حياته زمامه بيده ، واستخلفه بعد وفاته على بلده وولده .

مقتل الفقيه أبى بكر بن الحديدى

فلما هلك المأمون بقرطبة ونعي بطليطلة وماج بعضها في بعضها ، وانطبقت سماؤها على أرضها ، احتوشت الى حفيده ، اللابس لبروده ، جملة ممن كان يتعلق بسببه ، وينسب الى وطء عقبه . وطفقوا يغرونه بأبى بكر ، جماع أمره ، ومظنة تأييده ونصره ، لما كانوا يدبرون من التقلب عليه ، ويتوهمون من ضعفه على ما في يديه . وخوفوه غوائل ختله ، وزعموا أن سلطانه لا يتم الا بعد الفراغ من قتله ، وقد كان أثيره أبو سعيد بن الفرغ ينهائهم عن اخفار الذمام ، ويخوفه سوء عواقب الأيام . فركب هواه ، وخالف ناصحه وعصاه ، وجرد قطعة من جنده ، وأمرها باستقبال تابوت جده في طريقهم من قرطبة ، وأنهى اليهم سرا قتل ابن الحديدى المستقل بحمله ، الناضم لأشتات فله . وقال لهم : اذا التقيتموه فكونوا حوله ، وعظموا قوله ، فاذا أمكنتم غرته ، وبدت لكم ثغرتي ، فاقتلوه كيف أمكن ، وعلى ما ظهر وبطن ، ونما الخبر الى ابن الحديدى فكفر بطاغوتهم ،

ونفض يديه من تابوتهم ، ونكب الى بعض ضياعه ، في لمة من شيعته وأتباعه ، فاضطربت الصدور ، وبطل ذلك التدبير ، ثم وافى البلد ليلة وقد استوحش من أنسه ، وأوجس خيفة في نفسه ، وأصبح في المدينة خائفاً يترقب ، ونادما يتتبع ويتعقب ، بعض يديه ، ويحسب كل صيحة عليه ، وطلق أصحاب ابن ذي النون بزعمه يقولون : قد حذرنا ، وتيقن خبرك ، ولا يصلح لك أبداً ، ولا يرد عن مكروهك يداً . ومشت بينهما الرسل ، وأعملت في اجتماعهما الحيل ، فركب اليه ذات يوم ، وقد أخذ حذره ، وحشد عرفه ونكره ، واستبطن من كان تبعه يومئذ من الدهماء ، وتعلق بركابه لمشهد أمره من الغوغاء . فملأوا أفنية القصر أسرع من الماء الى الصبيب ، وأهول من النار في الحطب . فحين ارتفعت الأصوات ، وغصت بهم العرصات ، ارتاع ابن ذي النون ، فأمر ابن الحديدى بالخروج ، فخرج والدولة متعلقة بأذياله ، وطبقات أعيانها عن يمينه وشماله ، والعامّة بين يديه ومن خلفه ، يتمسحون بآثاره ، ويرفلون في غباره ، وهو يشكر صنيعهم ، ويعم بالثناء جميعهم ، وكان عندما أذكى عيونه ، وحشر شياطينه ، قد أوقع تهمته على شيخين من شيوخ الخدمة يدعيان مؤملاً وابن صروم ، فأغرى العامة باستئصالهما ، وتحبب اليهم بنهبة أموالهما ، فكانا عنوان الفتنة ، وبأكورة المحنة .

وقد حدثت أن ابنه أشار عليه يومئذ بالفراغ من شيعة ابن ذي النون ففيل رأيه ، واستقصر سعيه ، وبود طليطلة البائسة لو أنه فعل ، ولو أمضاها ما اختلف بها اثنان ، ولا انتطح فيها عنزان .

وزين هذا الحزب المعلن بشره ، من شيعة ابن ذي النون المغلوب على أمره ، لصاحبهم اللجاج في غدره ، والتمادى على غلواء مكره ، وأرته أن ذلك من سعيها لا يستوى على سوقه ، ولا يخلو بسواء طريقه ، الا [باطلاق] تلك الطائفة المغربية بمطبق وبذة ، المحترقة أفلاذ أكبادهم ، بنيران دمهم وأحقادهم : داء دفين ، وشر مضمون ، وسولوا له أنه اذا فك أغلالهم ، ووصل بحبل الحياة حباليهم ، غسل جوانحهم ، وتآلف نصائحهم ، وشاركهم في ذوات صدورهم ، واعتد عليهم منة نشورهم ، والبعثة من قبورهم ، فأشار منهم مدى وشفارا ، [أعد] بهم لخراب ملكه أعوانا وأنصارا . فأدخلهم البلد سراً من بعض مداخله الخفية ، وقد سترهم باللثم ، وأوهم أنهم بعض الحرم ، حتى وصلوا اليه ، ومثلوا بين يديه ، وذلك اليوم يوم الجمعة لعشر خلت لمحرم سنة ثمان وستين .

وكان الذى مالاً ابن ذي النون على ذلك ، وسهل له - زعموا - تلك المناهج الخبيثة والمسالك ، الفقيه ابن المشاط متولى القضاء كان يومئذ بقونكة ، وكان أبو بكر بن الحديدى [يألفه] ويسكن اليه قديما ، فاستدرجه بالأمان . واستفزه الى

مصرعه يومئذ بمزورات الأيمان ، حتى جرعه رداه ، وأسلمه الى عداه ، ودخل ابن الحديدى يومئذ القصر ، والمقدار يزعه ، والخائن الغدار ابن المشاط يستدرجه ، فلما أفضى الى مجلس ابن ذي النون رأى وجوها قد أمنها مما تخوفها ، وأنكرها من طول ما عرفها ، فأيقن بالشر لا خلاص ، ولات حين مناص ، ثم وطن لمحنته ، واتكأ فضل منته ، فجاذبهم أطراف الخصام ، وطلع عليهم من ثنايا النقض والابرار ، فقام ابن ذي النون من موضعه وابن الحديدى متعلق بأذياله ، مستجير به من أقتاله ، فشغبوا عليه وشغلوه ، وأحاطوا به حتى قتلوه ، ففضى الأمر ، وانقضى العجز والصدر ، ولما أحست العامة بقتله ، وهمت بسلاحها من أجله ، ثار أولئك المخرجون فى وجوههم ، أطلال فى أسمال ، فأخذ كل واحد منهم بطرف من الطريق ، وذهب ممن كان هنالك من العامة بفريق ، بين صديق لهم يسر ، وعدو يفر ، وتشاغلوا بنهب دور بنى الحديدى حين عجزوا عن نصرته ، وعلموا أن لا سبيل الى كرتة ، ولم يكن الا كـ « لا » حتى أصبحت حبلا رثا ، وهباء منبثا .

وظن ابن ذي النون [أنه] قد راع أحشاء الأيام بفتكة براضية ، وهتك أستار الخطوب عن حيلة عمرية ، ولعمري لقد راع ولكن أمن سربه ، ولقد هتك ولكن حجاب قلبه ، أخلى وجهه لشرار أغمار ، لم تكن لهم أحلام تحجرهم ، ولا حلوم توقرهم ، أذية شهوات ، وفراس ضلالات ، أغضى الزمان لهم هنية فظنوا أنهم قد أعجزوه وانتهزوه ، فوجدهم مغترين ليس لهم سلاح الا مقساتهم ، ولا بهم حويل الا تدابرهم وتخاذلهم ، ونفث على نفسه من أولئك المخرجين شرار زناد ، وأسرار عداوات وأحقاد ، أحلاس السجون والأهوال ، وبقايا القيود والأغلال ، فلم يزد بموت ابن الحديدى وحياتهم على أن كان الشر سببا فأصبح أسبابا والناس حزبا فتفرقوا أحزابا ، وانتبذ ابن عبد العزيز لتلك الوهلة ببلنسية من جماعته ، وخلع يده من طاعته ، الا هدنة على دخن ، يتطارده بصيدها ، وينشده عن كيدها :

أحبك فى البتول وفى أبيها ولكنى أحبك من بعيد

وفغر الطاغية أذفونش بن فرزند فمه على ثغوره المثغورة ، فجعل لوقته يطويها طي السجل للكتاب ، وينهض فيها نهضة الشيب فى الشباب ، وابن ذي النون يلقيه أفلاذ كبده ، ويرجمه بسبده وليده ، وأذفونش لعنه الله لا يقنع منه بصيد العنقاء ، ولا ببيض الأنوق ، بل يكلفه احضار الأبلق العقوق ، ويسومه درك الشمس ، ويطلبه برد أمس . فلما أكل الانفاسق ثبج ماله ، وأخذ الخناق بكظم احتياله ، وأحس العدو المشاق بذلك من حاله ، سما الى معاقلة المنية ، ودرى

أملكه الرفيعة ، عدد الأنام ، ودروب الاسلام ، فما راهنه منها عليه غلق ، وما رام أخذه من يديه لم يدركه حتى مزق .

فرار حفيد ابن ذي النون من طليطلة ودخول المتوكل

● وانجزت الحال بينه وبين أولئك الشيوخ المخرجين من المطبق بمقدار ما رقعوا خروقههم ، وجمعوا فريقهم ؛ فلما استوثق أمرهم ، وثاب اليهم شرهم ، دلفوا لحزبه الذنوني البسيس ، تحت إحدى ليالي جديس ؛ أرغت عليهم سقب السماء ، وتمخضت لهم بالداهية الدهياء ، ورؤوسهم بأيدي الولدان لعبا ، وأتى ابن ذي النون صريخهم تلك الليلة فصادف منه رأيا مغلوبا ، وقلبا منحوبا ، طار به الذعر ففر ودونه من عبيده أسد الشرى ، والأسوار شامخة الذرى ، كأنما ناجته القتال أضغاث حلمه ، أو رأى وجوه الأقتال في وجوه حرمة ، تجفل الظليم ، لا يحفل بالعار المقيم ، ولا يصيخ إلى الصديق الحميم . حدثت أن زوجه بنت المظفر ابن أبى عامر ، طريد جده - كان - من بلنسية ، وابنته منها تبعته يومئذ راجلتين نيفا على فرسخين ، حتى أدركتا بمركوب ، وقد أخذ الجهد منهما بأوفر نصيب . واجتمع مشيخة طليطلة بفناء القصر ، مرتبكين بين اللجاج والذعر ، عامتهم تتناول بزعمها اليه ، وخاصتهم تحيل المثل بين يديه ، وهم يظنونه بحيث يرى ويسمع ، ويتوهمون أنه سيفعل ويصنع . فوجوده قد أذعن للدنية ، وخرج من بعض تلك الخارج الخفية ، ومشى القهقري ، قبل غير وما جرى ، فاستأمدت كلابهم لأكل لحم ليس له ناصر ، وهزج ذبابهم أثناء روض ليس [له] وارد ولا صادر . ولقوا يومئذ في سؤر الطاغية أذفونس من تلك الجواهر المكنونة ، والذخائر المصونة .

وتلاحق بابن ذي النون بقية سربه المنفر ، وفل عسكره المدبر ، بحصن من حصونه . وأقام أهل طليطلة بعده أياما ولا كالمسائمة المهمة نام راعيها ، وأكبت مراعيها ، يتهادون لحما بين قديد ومعجل ، ويرتمون بشحم كهذاب الدمقس المفتل ، في هياط ومياط ، ولجب واختلاط ، ليس عليهم أمير ، ولا فيهم إلى الصواب مشير . وتشاوروا في أى ملوك الطوائف يحكمونه فيهم ، ويلقون اليه بأيديهم ، فطار طائرهم ، واختلفت بواطنهم وظواهرهم ، وأشراب من كان يليهم منهم لمملكة لم يحكموا اليها أسبابا ، وغنيمة لم يوجفوا عليها خيلا ولا ركابا .

وكان عندهم يومئذ أبو محمد يوسف بن القلاس البطليوسى أحد عفاريت الضلال ، وأكلة الأموال ، من رجل أجراً خلق الله على دم وهو أجبن من صافر ، وأجسرهم على ركوب شبح محرم وهو أضعف من لحظ فاطر ، نبهت تلك الفتنة على

قدره ، ورفع عدم الرجال صوته بذكره ، فهبت ريحه شمالا وصبا ، واتخذ سبيله في البر والبحر عجبا ، فعرض عليهم بصاحبه المتوكل عمر بن المظفر بن الأفطس ، وأعرب لهم عن لين مكسره ، وضيق مسافة نظره ، واشتغاله باللذات عن أكثره ، فقالوا : برد كبرد ، ما أشبه سعدا بسعد ! فأتاه سفيرهم ، وخف اليه غيرهم ونفيرهم ، فجاءهم ينظر من خفاء ، ويمشي على استحياء ، كودنا ساموه خطة سباق ، وحبينة أقاموها على ساق ، فدخل طليطلة عقب سنة اثنتين وسبعين ، وأقام عندهم نحو من عشرة أشهر ، أضل من يد في رحم ، وأذل من لحم على وضم .

[و] قد كان ابن ذي النون حين انفلت من يد المقتنص ، انفلات الحمامة من القفص ، تهيأ له دخول كونكة في خبر طويل ، فثاب اليه حسه ، ورجعت قليلا نفسه ، وراسل الطاغية أنفوذش ، وهو بحيث ينتهز الفرصة ، ويسمع القصة . فذكره ابن ذي النون سالف عهده ، وشهد عنده أنعم جده ، فبالزناد الذنونية - زعموا - وریت ناره ، ومن التلاع المأمونية تدفق تياره ، أيام كان اسم هذا الطاغية مخمولا ، وصعبه ذلولا ، بتغلب أخويه شانجه وغرسية عليه ، وأخذهما طرفي سلكه من يديه ، فأواه المأمون ابن ذي النون ونصره ، واستقل بسلطان طاغوته حتى أظهره ، وعند الله جزاء موفور ، واليه منقلب ومصير . فلبى دعواه ، وسمع شكواه ، وأظهر الارتماض لما عزه وعراه . وأقبل معه الى طليطلة يرد ماء بماء ، ويسر حسوا في ارتقاء ، يورد وردا اليه صدره ، ويحلب حلبا له أكثره ، والمتوكل بها طليح جفان ، طريق أكواب ودنان ، مكبا على قمش ما نحتة المحنة ، وتجاقت عن انتهابه الفتنة ، من فرش فخم ، وسرادق ضخم ، وأنية وكتب ، وصعد من آلة الملك وصيب ، حتى اجتمع عنده من خبث زبرتها ، وغشاء غمرتها ، مع ما أذابوا له صدر مقدمه من شحم سنامها ، وأفاضوا من بردها وسلامها ، جملة علمته الجلوس في الصدر ، وأرته الفرق بين الخل والخمر ، وأهل طليطلة الممتحنون ، في غمرتهم ساهون ، وعلى أعقابهم ينكصون ، يخوضون ويلعبون ، ويخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين .

خروج المتوكل من طليطلة ، ورجوع ابن ذي النون اليها

● فلما تمكن المتوكل من الري والشعب ، تذكر عواقب الطمع ، ورأى أنه ان زاد على ملء بطنه ، كان كالسراج المنغمس في دهنه ، فكأيدهم بفراره ، وأجلى مبادرا الى بطلان دار قراره ينشد :

ان الله يرجعني من الغزو ولا أرى وان قل مالي طالبا ما ورائي

ومن غريب تأويل الأحلام . أن رجلا رأى المتوكل قبل دخوله طليطلة بأعوام . كأنه يأكل فيها طعاما فيه سلق مع رجل يسمى يوسف ، ففسرها الأديب أبو عمر فتح المعروف بابن برلوصه ، وقال : ان المتوكل سيدخلها على يد رجل يسمى يوسف ، وينالان من مالها وذخائرها ، لكنهما يسلقان بالأسنة فيها : ويقسح الحديث عنهما ، فخرجت الرؤيا كما فسر .

ولما دخلها وحصل اليه منها ما حصل فر وتركهم كالسفينة خانتها الريح ، والجسد بان عنه الروح ، بين ناب الطاغية أذفونش وظفره ، يقدح لهم نار الفتنة عن حجره ، ويريه الموت في أهول صورته ، مقسما لا يبرح العرضة حتى يفي لابن ذي النون بضمانه ، ويكافئه على سالف احسانه . وكان عاقده ابن ذي النون أنه اذا صرح قذاها ، وأماط أذاها ، واقتضى دينها ، خلى بينه وبينها ، هذا [ما] أضمر ، فأما الذى أظهر ، فانه وعده أداء جملة من المال ، لا تفي به مدة الاقبال ، ولا ارخاء الحال ، راهنه بها أبناء الأمجاد ، وبقايا معاقلة الأفراد ، وألقى أهل طليطلة بأيدي الصغار ، على حين أيقنوا بالبوار ، وضاعت عليهم أنشودة الحصار ، فجاء ابن ذي النون يقدمه أذفونش ، وهو يظهر من التزام بره ، واعزاز نصره ، ما بهر العقول ، وكثر القال والقليل . حتى زعموا أنه رفع صوته يدعو اليه ، وترجل يمشى بين يديه ، وصار أعجب من تورط في حبائل كيدته ، وجعل الضرغام بازا لصيده ، وكم رام أهل طليطلة قتل ابن ذي النون في أثناء تلك الوشلات مرارا ، ولكنه بلغ مداه ، وكره الله لقاءه فأبقاه ، وكانت لله فيه مشيئة أمضاها ، وقضية أنظر به أنها ، لذلك ما خباثته صروف الأيام ، وسلم من الحمام الى الحمام ، فلما كان يوم النحر سنة أربع وسبعين ، نهذوا له في عددهم وعديدهم ، وزحفوا اليه بحددهم وحديدتهم ، فتجاولوا عامة يومهم في شوارعها ، يترامون بدوامغ الحتوف وقوارعها ؛ فأجلت الحرب عنهم قد شرقوا بغصتها ، وخلوا بينه وبين عرصتها ، وتساقطوا على أذفونش يشكون ابن ذي النون اليه ويستصرخونه عليه ، فرماهم بحجر ، ولبس لهم جلدة نمر ، فتفرقوا بكل سبيل ، وطاروا على كل صعب وذلول ، حتى مات ابن مغيث كبيرهم الذى علمهم السحر ، وطاغوتهم الذى شرع لهم الكفر ، بشيمنتور من أرض قشتيلة بين الدنان والصلبان ، فسار والى الله ايسابه ، وعليه حسابه ، ورجع بنوه أخيرا فانتزوا بمدينة مجريط ، وانحشر اليهم نؤبان الوقائع ، وأذبة المطامع ، فكانت بين ابن ذي النون وبينهم أيام عدتهم له عدا ، وساقتهم اليه وردا ، حتى باد جمهورهم ، وتلاحقت أعجازهم وصدورهم ، وبلغ ابن ذي النون من هدم ربوعهم ، وصلبهم على جذوعهم ، ما يبرد صدر الموتور ، ويضحك سن الموت المبير .

**بقية الحديث عن شؤون ابن ذي النون بطليطلة
واسلامها لظهيره الطاغية أذفونش ، وما انطوى في ذلك
من خبر ، والتف به من قبيح أثر**

● قال ابن بسام : وأخذ ابن ذي النون أهل طليطلة لحين استقراره فيها بفك تلك المعازل ، وأداء ما كان ضمن لأذفونش من الأموال الجلائل ، فضرب مدبرهم بمقبلهم ، وولى آخرهم كبر أولهم ، حتى طمع فقيرهم في غنيهم ، واجترأ ضعيفهم على قويهم ، وأصبح الرجل منهم يرتاع من ظله ، ويلتفت وانما هو بين أهله ، وانكر أذفونش على طليطلة ينتسف مرافقها ، ويقعد لجلالية أهلها ثناياها ومضايقتها ، يأسر ويقتل ، ويحرق ويمثل ، وسما السعر ، وتفاقم الأمر ، وأنكرت الموارد والمصادر ، وبلغت القلوب الحناجر .

وكان من غريب ما اتفق وعجيب ما انتظم من ذلك واتسق ، أن البر كان على زعمهم يمكث عندهم أكثر من خمسين سنة لا يؤثر فيه طول القدم ، ولا يخاف عليه آفة العدم ، ولم يرفع مدة الفتنة من البيادر - على تعذر بذره ، وضيق الحيلة عن محاولة شيء من أمره - الا وقد بدا البلى عليه ، وأسرت الآفة اليه ، أمر من الله لم يكن له مرد ، ولا منه بد ، ولما شمل البلاء ، وفدحت البأساء ، وأتى على أكثر أهل طليطلة القتل والجلاء ، وقضى الطاغية أذفونش - قصمه الله - قضاءه من استباحة الحريم ، واستئصال الراحل والمقيم ، واتلاف الموجود والمعدوم ، أسرى تحت الليل ، في قطعة غير وافرة من الخيل ، فنزل المنية المصورة التي كان المأمون يحشد إليها كل حسن ، ويباهى بها جنة عدن ، ويقلب الحوير في حيد بنيانها ، والاشادة بشانها ، ظهرا لبطن ، فاتخذ عروشها مرابط لأفراسه ، وايقاناتها ملاعب لأراذلته وأرجاسه ، وهجم الشتاء فمنعه من ميرة تأتيه ، أو مدد يوافيه ، فأقام نيفا على شهرين لا يسيغ الشراب ، ولا يملك المجيء ولا الذهاب ليس له شوكة الا ظل لوائه ، ولا مدد الا ضعف من كان بازائه ، ولولا اهتبال ملوك الطوائف باقامة مرافقه ، واصغائهم الى هدر شقاشقه ، لطار شعاعا ، وذهب ضياعا ، وطفق أهل طليطلة يستصرخون من حولهم ، ويعملون في ذلك فعلهم وقولهم ، فيعكفون على طلل بائد ، ويضربون في حديد بارد ، فلما نأى الشتاء بجانبه ، وخلي بين كل ذاهب ومذاهبه ، سال بأهل طليطلة سبل لا يقوم له سهل ولا وعر ، وطلع عليهم ليل لا يلوح لهم فيه صبح ولا فجر ، واضطر من أخطأته الحوادث ، وتخطته تلك الخطوب الكوارث ، - من أشدها ضيق الحصار ، وكلب البوار ، وابطاء المرافق والأنصار - الى مداخلة الطاغية أذفونش ، فشرعوا في ذلك غير مظهرين للاستسلام ، ولا متبرئين من الصبر على ضنك ذلك المقام ، طمعا في أن يغروه ولو باغلاء سوم ، ويخدعوه على أذماء نفوسهم ولو ببياض يوم ،

إشارة الغريق الى الساحل ، واستراحة المحتضر الى الطبيب الجاهل ، فأبى أذفونش الا عرصه الدار ، وأم الأوطار ، ولجأ بين التصادى والاستمرار ، لعلمه أين ينتهى طلقهم ، وتقديره لما عسى أن يفي به رمقهم فخرج من أعيانهم جملة الى مضرب أذفونش فى بعض تلك الأيام ، وقد ضاق المجال ، وتلمظت الآجال ، وأقبلت الحتوف تختال ، فقام الحجاب دونه ، وقالوا : هو نائم فكيف توقظونه ؟ فعدلوا الى مضرب ششند ، شره العتيد ، وشيطانه المريد ، وهامانه الذى أوقد له على الطين ، وعلمه الدفع بالشك فى صدر اليقين ، أحد أعلاج ابن عباد - كان - من رجل متوقد جمرة الذكاء ، بعيد المذهب بين الجرأة والذكاء ، سفر بين المعتضد والطاغية فرزلند ، فعقد وحل ، ونهض بما حمل من ذلك واستقل ، ثم خاف المعتضد على نفسه ، فنزع به عرق اللوم ، الى المقر المذموم . واستقرت قدمه بجليقية ، فاضطلع بالدروب والثغور ، وغلب على سائر السياسة والتدبير . وصار بعد قصارى ملوك الطوائف بالجزيرة نظرة من اهتباله ، وأدنى خطرة من باله . فأدخل على أذفونش يومئذ منهم جماعة فوجدوه يمسح الكرى من عينيه ، ثائر الرأس ، خبيث النفس ، وجعلوا ينظرون اليه وهو يضغث ثغامة رأسه ، فما نسوا دفر أطماره ، ودرن أظفاره ، ثم أقبل عليهم بوجه كريه ، ولحظ لا يشكون أن الشرف فيه ، وقال لهم : الى متى تتخادعون ، وبأى شىء تطمعون ؟ قالوا : بنا بغية . [ولنا] فى فلان وفلان أمنية ، وسموا له بعض ملوك الطوائف ، فصفق ببديه ، وتهافت حتى فحص برجليه ، ثم قال : أين رسل ابن عباد ؟ فجاء بهم يرتفلون فى ثياب الخناعة ، وينبسون بالسنة السمع والطاعة . فقال لهم : مذكم تحومون علي ، وترومون الوصول الي ؟ ومتى عهدكم بفلان ، وأين ما جئتم به لا كنتم ولا كان ؟ فجاءوا بجملة ميرة ، وأحضروا بين يديه كل ذخيرة خطيرة . ثم ما زاد على أن ركل ذلك برجليه ، وأمر بانتهابه كله ، ولم يبق ملك من ملوك الطوائف الا أحضر يومئذ رسله ، وكانت حاله حال من كان قبله . وجعل أعلاجه يدفعون فى ظهورهم ، وأهل طليطلة يعجبون من ذل مقامهم ومصيرهم ، فخرج مشيختها من عنده وقد سقط فى أيديهم . وطمع كل شىء فيهم ، وخلوا بينه وبين البلد ، لثلاثة أيام من ذلك المشهد . ودخل طليطلة على حكمه ، وأثبت فى عرصتها قدم ظلمه ، حكم من الله سبق به القدر ، فلم يكن منه وزر .

وخرج ابن ذي النون خائبا مما تمناه ، شرقا بعقبى ما جناه ، والأرض تضج من مقامه ، وتستأذن فى انتقامه ، والسماء تود لو لم تطلع نجما الا كدترته عليه حتفا مبيدا ، ولم تنشئ عارضا الا مطرته عذابا فيه شديدا . واستقر بمحلة أذفونش مخفور الذمة ، مزال الحرمة ، ليس دونه باب ، ولا دون حرمة ستر ولا حجاب . حدثنى من رآه يومئذ بتلك الحال وببده اضطراب يرصد فيه أى وقت

يرحل ، وعلى أى شىء يعول ، وأى سبيل يتمثل ، وقد أطاف به النصرى والمسلمون ، أولئك يضحكون من فعله ، وهؤلاء يتعجبون من جهله .

وعتا الطاغية أذفونش - قصمه الله - لحين استقراره بطليطلة واستكبر ، وأخل بملوك الطوائف فى الجزيرة وقصر ، وأخذ يتجنى ويتعتب . وطفق يتشوف الى انتزاع سلطانهم والفراغ من شأنهم ويتسبب ، ورأى أنهم قد وقفوا دون مدها ، ودخلوا بأجمعهم تحت عصاه .

ولى ششند المذكور تدبير طليطلة ، فهون عليهم الرزية ، وحبب اليهم اعطاء الدنية ، بما أراهم من سهولة مرامه ، وبسط فيهم من عدل أحكامه ، حتى استمال قلوب أعلامها . وحبب التنصر الى عامة طغامها ، وفجأ المسلمين من اختلاف أهوائهم ، وتنصر سفهائهم ، ما ضاقت عنه صدور الأيام ، واضطربت له قواعد الاسلام . وقد كان من رأى ششند الإبقاء على أهل طليطلة ، وقال لأذفونش : لست تجد بمن تعمرها ، ولا تظفر بعامل أطوع من ابن ذي النون يدبرها ، فأبى أذفونش الا لاحا فى سفيهه ، وانحطاطا فى حبل شرهه . فلما تهيا له ملكها ، وانتشر فى يديه سلكها ، قال له ششند اخفض جناحك لأهلها ، واستجلب جاليتها بما تمد من ظلها ، ولا تلج على ملوك الجزيرة فلست تستغنى عنهم ، ولا تجد عمالا أطوع منهم ، فانك ان أبيت الا اللحاح عليهم ، والتسرع بالمكروه اليهم ، نفرتهم عن ذراك ، وأحوجتهم الى مداخلة سواك . فكان من صنع الله أن اتهم أذفونش يومئذ منحا ، وخالفه الى ركوب هواه ، وشرع لوقته فى تغيير المسجد الجامع بها ، خاتمة النوائب ، ونكبة الشاهد والغائب . فقال له ششند : انك ان فعلت أوغرت الصدور ، وأبطلت التدبير ، وسكنت من نشط ، وقبضت من انبسط ، فشمخ أذفونش - لعنه الله - بأنفه ، وثنى من عطفه ، وأصغى الى طنانة جنونه وسخفه ، وأمر بتغيير المسجد الجامع يوم [...] لربيع الأول سنة ثمان وسبعين وأربعمائة . وحدثنى من شهد طواغيته تبتدره ، فى يوم أعمى البصائر والأبصار منظره ، وليس فيه الا الشيخ الأستاذ المغامى آخر من صدر عنه ، واعتمده فى ذلك اليوم ليتزود منه ، وقد أطاف به مرده عقاريته ، وسرعان طواغيته ، وبين يديه أحد التلامذة يقرأ ، فكلموا له عجل ، أشار هو الى تلميذه بأن أكمل ، ثم قام ما طاش ولا تهيب ، فسجد به واقترب ، وبكى عليه مليا وانتحب ، والنصارى يعظمون شأنه ، ويهابون مكانه ، لم تمتد اليه يد ، ولا عرض له بمكروه أحد .

وقد حدثت أن شيعة أذفونش - لعنه الله وبدها - أشاروا عليه يومئذ بلبس التاج ، وزينوا له زى من سلف بالجزيرة قبل فتح المسلمين اياها من اعلاج ، فقال : لا ، حتى أطأ ذروة الملك ، وأخذ قرطبتهم واسطة السلك ، وكان أعد مسجدها الجامع - حمى الله ساحته من الخطوب الروائع - ناقوسا تأنق فى

إبداعه ، وتجاوز الحد في استنائه واختراعه ، فالحمد لله موهن أيده ، ومبطل كيده ، وجزى الله أمير المسلمين ، وناصر الدين ، أبا يعقوب يوسف بن تاشفين ، أفضل جزاء المحسنين ، بما بل من رماق ، ونفس من خناق ، ووصل هذه الجزيرة من جبل ، وتجشم الى تلبية دعائها واستنقاذ ما بها من حزن وسهل ، حتى [ثل] عروش المشركين ، وظهر أمر الله وهم كارهون ، والحمد لله رب العالمين .

فصل في ذكر الوزير الحكيم أبي محمد المصري

● شيخ الفتيان ، وأبدة الزمان ، وخاتمة أصحاب السلطان ، وكان رحل الى مصر واسمه خامل ، وسماؤه عاطل ، فلم ينشب أن طراً على الأندلس وقد نشأ خلقاً جديداً ، وأجرى الى النباهة طلقاً بعيداً ، فتهادته الدول ، وانتتهت اليه التفصيلات والجمال ، وكلما طراً على ملك فكأنه معه ولد ، وإياه قصد ، فجرى مع كل أحد ، وتمول في كل بلد ، وتلون في العلوم تلون الزمان ، وتلاعب بالملوك بأفقنا تلاعب الرياح بالأغصان ، حتى ظفر به المأمون بن ذي النون ، فشد عليه يد الضنين ، فوجد كنفا سهلاً ، وسلطاناً غفلاً ، فسر وساء ، وارتسم في أي الدواوين شاء ، وكان بالطب أكلف ، وعليه أوقف ، فتعلق بسببه ، حتى اشتهر به ، ولم يكن من النفوذ فيه حسبما استذاع عنه الخبر ، خلا أنه كان — زعموا — بصيراً بطب النظر ، وكان مع ما يحمله من هذا الفن حسن البيان مليح المجلس ، حاضر الجواب كثير النادر ، راوية للشعر والمثل السائر ، نساباً للمفاخر ، عارفاً بالمثالب والمناقب ، وقفت له على شعر مجموع ، عاطل أكثره من حلي البديع ، وكان بالجملة روضة أدب ممتعا للمجلس ، وهيهات أن يأتي الدهر بمثله . وقد وصفه ابن حيان ، في فصل قد أثبتته في أول هذا القسم من الديوان .

فلما انصرفت الدولة الذنونية ، تحيز أبو محمد الى اشبيلية ، فأنس المعتمد بمكانه ، وجعل له حظاً من سلطانه ، ولم يزل في من يتردد عليه ويغشاه ، حتى أشجاه من الخلع — حسبما وصفناه — ما أشجاه ، وبقي أبو محمد على حاله ، مشتملاً بفضل جده وأقباله ، غير مستريب بدهره ، ولا منكر لشيء من أمره ، ممتعا بآلاته ، مقبلاً على لذاته ، الى أن توفي سنة ست وتسعين منتصف رجب الفرد . وعلى ذكره ، فقد أجريت طرفاً من نظمه ونثره ، منبهاً على مكانه ، ومشهداً على ما وصفت من شأنه .

فصل له من رقعة خاطب بها المعتمد بن عباد ، وقد خرج عنه الى مالقة ، قيل القبض عليه ، واستفتحها بهذين البيتين :

وحلت وفي القلب جمر الغضا وهجرى لكم دون شك صواب
كما تهجر النفس حر الطعام اذا [ما] تساقط فيه الذباب

وهذا المعنى مشهور ، قد اندرج منه في تضاعيف هذا التصنيف كثير ، مثل قول بعضهم :

وتجتنب الليوث ورود حوض اذا كان الكلاب يلغن فيه
كما سقط الذباب على طعام فتتركه ونفسك تشتيه

كتبت وقلبي متقلب على جمر الغضا ، أحسر من الرمضا ، وصلت فقطعت ، وسامحت فقوبحت ، وارتفع علي الباطل فما سومحت ، حميت بقرطبة أهلك وبنيك ، وحفدتك وذويك ، أصبتهم في منزل عالي الحيطان ، وثيق الأركان ، في شهر كانون ، دون كن ولا كانون ، ولا ما يدفع عنهم ريب المنون ، أكف الرزايا تصافحهم ، وجنوب المنايا تضاجعهم ، لا يمنعهم من القر شعار ، ولا يحميمهم منه دثار ، فأنفذت الفرش وآلاتها ، وما يتعلق بجهاتها ، وافتقدت بالطرف ، وتأخفت بالتحف ، وصننتهم صون الدر في الحقائق ، والسواد في الأحداق ، والأطواق في الأعناق ، ومن عندك يعلم هذا ولا ينكره ، ويشكره ولا يكفره ، وما كانت لك علي نعمة فأرعاها ، ولا سطوة فأخشاها ، وانما فعلت ذلك بالجوهريّة التي ركبها الله في نفسه ، والطبع الذي جبل عليه حسي :

ولكن أشخاص المعالي خفية على كل عين ليس تبصر باللب

فهل سبق لأحد مثل هذا الوفاء ، أو كان له شكل هذا الولاء ، فان قيل ان السموأل أتى بمثله وشكله ، فليس الخبر كما ظن ، ولا الأمر كما احتسب .

ومن شعره في أوصاف شتى

قال :

ريم اذا رمت أن أحظى بموعده أما ترى الدر بالمرجان قد جارا
وان تلطف لاستنزال سورته ودمعه فوق روض الورد قد حارا
اذا تذكرت أياما لنا سلفت خطت يد الشوق في الأحشاء أطارا
قال الوشاة ودمع العين منحدر أصار قلبي لخيّل الهجر مضمارا
يا مجرى الدمع من عينيه في ذهب أقام لي بلسان الخلف أعذارا
النار يحرقها قلبي بزفرته من العجيب فؤاد يحرق النارا

وقال :

يا ناظرا قد سل من ناظري الى سواد القلب والخاطر

طيفك لما نام عن زورتي زادك [زاد] الكلف الساهر
ظلك أضحى لي بلا مرية مؤثراً في خدك الناضر
ما أرفق الله بأهل الهوى ان صير الجور على الصائر

وقد تقدم مثل هذا المعنى لعبد الجليل حيث يقول :

دعوت دعاء مظلوم عليه فعلق من عذاريه الذنوبيا
وقال :

السحب داء دواؤه القبل والرسل بين الأحبة المقل
يا حفظ الله ليلة سلفت حيث بيدر سماءه الكلل
بتنا وراح العفاف تلحفنا برد وفاء والشملى مشتمل
اثنان من شدة التعانق قد صارا كفرد بالروح يتصل
لو أن جود السماء أمطرنا لم يصب الأرض تحقنا بلل
حتى اذا غرة الصباح بدت وجفنه بالعبير مكتحل
فارقنى وهو خائف وجبل نشوان من حمرة الصبا ثمل
عيناي منه قريرة أبداً والنار بين الضلوع تشتعل

وقال :

قالوا الصديق شقيق النفس قلت لهم ان الصديق مع العنقاء قد طارا
اسم لعمري بلا جسم ولا نفس الا كلاما بزور القول قد سارا
فما ترى غير من يسقيك من يده أرياً وفي قلبه قد أضمر النارا
قنادم الكتب ما عمرت ان لها عندى وعيشك أسراراً وأخبارا

ومن قصيد له في ابن حماد بلقين أوله :

الرأى يسبق وقع الصارم الذكر والعزم يفصل بين الخبر والخبر
والناس قد جمعوا في أصل خلقتهم لكنهم فرقوا في اللب والنظر
كالنور أوله نار وبينهما من التفاضل ما يخفى على البشر
كما تهدي ابن حماد وقد طلعت طلائع السعد تحدوها يد القدر
والناس قد رجموا الأقوال من حذر وقال بعضهم هذا من الغرر
حتى اذا أظلم الخطب المهم لهم جلوته بصباح البيض والسممر
ليس الجسم لها صبر ولا جلد وانما الصبر بالأرواح والفكر
لا تلق دهرك الا راكبا خطراً فانما تبلغ العلياء بالخطر

بيته الثانى ، من متداولات المعانى ، ومنها قول الأول :

الناس أخياف وشتى في الشيم وكلهم يجمعهم بيت الأدم

وأخذه التهامي فقال :

الناس متفقون في ايرادهم وتفاضل الأقوام في الاصدار
وقوله : « ليس الجسوم لها صبر » ... البيت ، هو شبيه بقول الآخر :
فالعبد أصبر جسماً والحر أصبر قلباً

وقال من أخرى [يمدحه] ويذم بني رياح :

أبا المنصور ما للدهر عين	سواك فوارها فهو الصلاح
ولا تتعرضن الى رياح	فأعدى ما على العين الرياح
إذا حلفت رياح فاتهمها	ورأس الحنث ما حلفت رياح
قبيلة لها في اللؤم بأس	وعند المكرمات لها جماح
سبال اللؤم لا كانت سبال	وجوه الذل والخذ الوقاح
أناس في مفارقهم قرون	ولكن بالفقاح هو النطاح
ولا تتزوجن لهم ببنت	فلسودان عندهم مراح
بأرجلهن يستغفرن دأبا	فأرجلهن في الدعوات راح

وذكرت بمعنى هذا البيت الأخير منها خبراً أورده بعض الرواة عن شاعر
أنشد زبيدة بنت جعفر شعراً قال فيه :

أزبيدة ابنة جعفر	طوبى لزازرك المثاب
تعطين من رجليك ما	تعطى الأكف من الرغاب

فجعل عبيدها يقرعون رأسه فقالت : دعوه فانه أراد خيراً فأخطأ ، وهو
أحب إلينا ممن أراد شراً فأصاب ، سمع قولهم : شما لك أئدى من يمين فلان
فظن [أن هذا مثل ذلك] .

وله من أخرى يستأذن في الجواز الى الأندلس :

فيا أثلاث الجزع من مربع الحمى	فؤادي على تلك الرسوم ينوح
فعل أبى المنصور يدنى بسعده	ركابى منها انه لنزوح

ومنها :

فسر انما العلياء شخص مصور	وأنت له دون البرية روح
أتيت بأي أعجزت كل عالم	كأنك من بعد المسيح مسيح
ولو جيت للانصاف ما جيت مادحا	لأنك من تجر السماح صريح
ومن أصبحت [فيه] المكارم جوهراً	بلا عرض فالمدح فيه قبيح
ولكن رأيت الشعر يثبت ذكره	فلا غرو أن يهدى اليك مديح

وله من أخرى في باديس بن حبوس :

رسخت أصول علالكم تحت الثرى
تبدو شمس الدجن من أطواقكم
ان المكارم صورة معلومة
ذلت لكم قمم الخلائق مثلما
فمتى مدحت ولا مدحت سواكم
وهذا من قول أبى نواس :

وان جرت الألفاظ يوما بمدحة
وأخذه المتنبي فقال :

وظنوني مدحتهم قديما
وأنت بما مدحتهم مرادي
والمصرى أيضا القائل ، من قصيدة كأخواتها طويلة دون طائل ، أولها :
دعي لومي فما أنا بالمليم
يقول فيها :

وان شئت اختبار الناس جهرا
فجرب من تشا منهم عيانا
فان لم [تلف] ذلك مستحيلا
فقل انسي دعوى في نزار
رأينا معشرا لبسوا ثيابا
لهم دور مشيدة []
ومن المدح :

وما يحتاج يوم الحرب جيشا
وان أبقى لهم فرعون سحرا
فان عداه كالزراع الحطيم
ففى يده عصا موسى الكليم

وقد تقدم الى هذا المعنى أبو نواس بقوله . ونذكر خبرا يتعلق بذيله : كان أبو نواس قوى البديهة ، ويرتجل كل ما يقول ولا يرويه ، فقال له الخصيب يوما وهو يمازحه بالمسجد الجامع ، أنت في الشعر غير مدافع ولا منازع ، ولكنك لا تخطب ، فقام من فوره يقول مرتجلا :

منحتكم يا أهل [مصر] نصيحتي ألا فخذوا من ناصح بنصيب

رماكم أمير المؤمنين بحية أكلول لحيات القلوب شروب
فان يك باقى سحر فرعون فيكم فان عصا موسى بكف خصيب
ثم التفت اليه وقال : والله لا يأتى بمثلها خطيب مصقع ، فاعتذر اليه وأقسم
أنه ما قال ذلك الا مازحاً .

وقول المصرى : «معشراً لبسوا ثياباً» ... البيت مع الذى بعده ، ألم فيه بقول
منصور الفقيه :

لبس الثياب وتشبيد القصور وفى تلك الثياب علتها أنفوس خربه
لأضربن رجائي ألف مقررعة فيكم وأصلب آمالي على خشبه
وقال المصرى فى ابن مجاهد من قصيدة ، يرثي مهراً أخذ له ، وحكى أن الذئب
أكله :

وقد أقمت لدهرى وهو يظلمنى وقد أقمت لدهرى وهو يظلمنى
وان يكن ليس منهم فى أرومته وان يكن ليس منهم فى أرومته
يا من اليه شكوناه فقال لنا يا من اليه شكوناه فقال لنا
ومنها :

يا ويح قلبى من دهر تعمدين يا ويح قلبى من دهر تعمدين
حتى بمهر هضم الكشح ذي هيف حتى بمهر هضم الكشح ذي هيف
حلو الصهيل له فى صوته فتن حلو الصهيل له فى صوته فتن
لولا تشكله فى حين خلقتة لولا تشكله فى حين خلقتة
يا يوسف الخيل يا مقتول اخوته يا يوسف الخيل يا مقتول اخوته
ان كان يعقوب لم يقنع بكذبهم ان كان يعقوب لم يقنع بكذبهم
ومنها :

وما التناسب ان لم تكن أنفوس القربى ذوى نسب
وهذا من قول القائل :

..... اذا لم يرافقها انتساب قلوب
وقال من أخرى :

..... نفحة الخد جائل
فان الظباء المشبهيك عواطل

لئن كنت من در القلائد عاطلا

وكل رسول قد بعثت مماطل
شمولا لها من وجنتيه شمائل
بهارا فأجدى ما علينا الرسائل
وأنت بمفروض الزكاة تماطل

.....
سقاني وخذ الفجر يلطمه الضحى
.....
عليك زكاة من جمال وغرة
ومنها :

اليك ولكن لم تجبه الخلاخل
لياليه من شمس الكؤوس أصائل
وجاوبت الألسان منها البلابل
وقهوتها تبر على الدر سائل
فانى ما بين السماكين نازل
له من علي المكرمات حمائل

.....
فصاح وشاح هز
رعى الله دهرًا قد نعمنا بطيبه
لدى روضة غناء غنت قيانها
ونرجسها [در] على التبر جامد
وان سأل الأقوام عن عرض منزلى
وأنى قد قلدت سيف مآثر

الى أبيات غير هذه من قصيدة طويلة اهتمم فيها أبو محمد قصيدتى أبى الطيب
والمعري اللتين فى وزنها ورويها ، وقوله : «عليك زكاة من جمال» ... البيت ، من
قول المعري أيضا :

لغيرى زكاة من جمال فان تكن زكاة جمال فاذكرى ابن سبيل
وعلى [ذكر] هذه الزكاة فما أملح ملح البسني فى تلك الفقهيات حيث يقول :

يصيد بلحظه لحظ الكمي
فأد زكاة منظر كالبهى
برشف من مقلك الشهي
ويفتي لا زكاة على الصبي

أقول لشادن فى الحسن فد
ملك الحسن أجمع من نظام
وذلك أن تجود لمستهام
فقال أبو حنيفة لي امام
وقال الحصرى الكفيف فى مثله :

وسمته ريحان المحب الرياحين
عليك زكاة [ما] ونحن مساكين
وكيف أؤديها ولم يحسن الحين
أؤديك فالعشاق [ليس] لهم دين

وظبي غرير هز أعطافه اللين
أقول له والحب يفتي برخصة
فقال ولم يعلم زكاة أردتها
فقلت زكاة الحسن اعنى فقال لا

جملة من مقطوعات المصرى في فنون مختلفة

في صفة قصر طليطلة :

قصر يقصر عن مداه الفرقد عذبت مصادره وطاب المورد
نشر الصباح عليه ثوب مكارم فعليه ألوية السعادة تعقد
وكأنما المأمون في أرجائه بدر تمام قابله أسعد
وكأنما الأقداح في راحاته در جماد ذاب فيه العسجد
وله في صفة البركة والقية عليها :

شمسية الأنساب بدرية يحار في تشبيهها الخاطر
كأنما المأمون بدر الدجى وهى عليه الفلك الدائر
وله في صفة عود :

يا حبذا العود فكم من فتى باح له اليم بأسراريه
غنت عليه الطير رطباً وقد غنت به لما قسا جاريه
فهو على أخلاقها قد جرى وهى على أخلاقه جاريه
وبيته الثالث كقول ابن قاضى ميلة :

جاءت بعود يناغيها ويسعدها فانظر بدائع ما خصت به الشجر
غنت على عوده الأطياف مفصحة غضا فلما ذوي به البشر
فلا يزال عليه أو به طرب يهيجه الأعجمان : الطير والوتر
وقال المصرى من جملة أبيات خاطب بها صاحب المدينة يشفع للفقير البر
الطليطلى :

يا ماجدا أصبح من رفعة منزله تحت نجوم الفلك
هذا الفقيه البر ما ذنبه لقد غدا قبيرة في الشرك
أيؤخذ المسكين مع فتية قد عقدوا الأمر لحل التلك
وقارعوا بالبيض بيض الخصى وطاعنوا الأشراج [في] المعترك
وهذا مثل ما أنشدنيه لنفسه أبو بكر الخولاني المنجم ، مما خاطب به بعض
الحكام يشفع للقلمندر ، وقد أخذ في مثل ذلك سكرانا :

ان درء الحدود بالشبهات لحديث رواه [كل] الثقات
ما أراه الا تناول تفا حاً فنمت عليه في الطرقات

نفحات التفاح والراح والأترج للمرء جد مشتبهات
فبتلك الشمائل المخجلات السروض غب الغمام الهاطلات
وبحلم اليه مذ كنت تعزى وبصبر تعزى له وأناة
اعف عنه وأعفه من ثمانين تدمي أعطافه المائسات
وأقل ذنبه وعثرته فهو بمراه من ذوي السهيات

وقال :

وشادن طالبتة قبله	فأظهر الاعراض والصدأ
وأرسل الدر على عسجد	من سبج فانتظما عقدا
فقلت اذ أبصرته باكياً	نرجسة العين سقت وردا

وهذا كقول [الآخر] :

كأن تلك الدموع قطر ندى تسقط من نرجس على ورد

وقال في صباه في طريق بلاد المشرق وقافلا من الحجاز :

ألا يا هند قد قضيت حجبى	فهاش شراك العطر العجيبا
فقد ذهبت ذنوبى فى الليالى	فقومى الآن نقترف الذنوبا
خلطنا ماء زمزم فى حشانا	بماء الكرم فامتزجا قريبا
وطاف بها غزال كسروي	طبيب النفس يدعوه طبيبا
أطاعته الجسم فساعدته	كذاك يكون من ملك القلوبا
بدا غصنا وأطلع بدر تم	وأضمر فى مآزره الكثيبا
نراه فى تواصله بعيدا	ونلقى وعده أبدا قريبا

وقال :

أي هلال أطل فينا	مطلعه الطوق والجيوب
كحيل طرف ثقیل ردف	مبسمه اللؤلؤ الرطيب
يقودنا كيف شاء طوعا	لأن أعوانه القلوب

وله فى بعض اخوانه وقد عذر غلام كان يهواه :

يا ذا الذى عذر خل له	أتحت عيش العز معنى الهوان
لم ينبت الشعر على خده	بل دب فى أعضائه عقربان
رفقا على نفسك لا تفنھا	فجوهر الأنفس شيء يمان
وسقه من مزة عتقت	لتقتضى الحب بلا ترجمان

وله في غلام وسيم رمدت عيناه :

قال خلى وجفونني	لا تغطي مقلتيها
سقم عينني أراه	بعث السقم اليها
أم ترى توريد خدي	نقض الورد عليها
قلت لا أدري ولكن	أنا من قتل يديها

وقال :

رمدت عيني فجاءوا	دون رأيى بطبيب
وطبيب العين أعمى	في مداواة القلوب
رمدي من فقد خلى	فاكحلوني بالحبيب

قال ابن السيد في وصف مجلس المأمون بن ذي النون :

يا منظرا ان نظرت بهجته	أذكرني حسن جنة الخلد
تربة مسك ، وجو عنبرة ،	وغيم ند ، وطش ما ورد
والماء كاللازورد قد نظمت	فيه اللآلى فواغر الأسد
كأنما جاثل الحباب به	يلعب في جانبيه بالنرد
تراه يزهو اذا يحل به الـ	مأمون زهو الفتاة بالعقد
تخاله ان بدا به قمرا	تما بدا في مطالع السعد
كأنما أليست حدائقه	ما حاز من شيمة ومن مجد
كأنما جادها فروضها	بوابل من يمينه رغد
لا زال في رفعة مضاعفة	متمم الرفد واري الزند

وقال الفتح بن خاقان في وصف هذا المجلس بعينه ، في الكتاب الذي أفرد به لترجمة ابن السيد ، ما صورته : فمن ذلك أنه حضر مع القادر بالله بن ذي النون بمجلس الناعورة بطليطلة في المنية المتناهية البهاء والاشراق ، المباهية لزوراء العراق ، التي ينفج شذاها العطر ، ويكاد من الغضارة يطر ، والقادر بالله رحمه الله قد التحف الوقار وارتداه ، وحكم العقار في جوده ونداه ، والمجلس يشرق كالشمس في الحمل ، ومن حواه يبتهج كالنفس عند منال الأمل ، والزهر عبق ، وعلى ماء النهر مصطبح ومغتبق ، والدولاب يئن كناقاة اثر حوار ، الى آخر ما سبق .

وقال ابن ظافر في وصف هذا المجلس حاذيا حذو الفتح ، ما صورته : حضر الأستاذ أبو محمد ابن السيد عند المأمون ابن ذي النون في بعض منتزهاته ، في

وقت طاب نعيمه ، وسترت بالسعود نجومه ، والروض قد أجاد وشبه راقمه ،
والماء قد جرت بين الأعشاب أراقمه ، وثم بركة مملوءة ، كأنها مرآة مجلوة ، قد
اتخذت سباع الصفر بشاطئها غابسا ، ومجت بها من سائغ الماء لعايا ، فكأنها
أساد عين ، أدلعت ألسنة من لجين ، وهى لا تزال تقذف الماء ولا تفتقر ، وتنظم
لآلى الحباب بعدما تنثر ، فأمره بوصف ذلك الموضع ، الذى تخذ اليه ركائب
القلوب وتوضع ، فقال بديها «يا منظراً ... الخ» .

● ومنهم الوزير أبو الفضل محمد بن عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحارث
ابن أسد بن الليث بن سليمان بن الأسود بن سفيان التميمي ، الدارمي ، البغدادي
سمع من أبي طاهر محمد بن عبد الرحمن المخلص وغيره ، وخرج من بغداد رسولا
عن أمير المؤمنين القائم بأمر الله العباسي رضى الله تعالى عنه الى صاحب افريقية
المعز بن باديس ، واجتمع مع أبي العلاء المعري بالمعرة ، وأنشده قصيدة لامية
يمدح بها صاحب حلب ، فقبل عينيه ، وقال له : لله أنت من ناظم ؛ وخرج من
افريقية من أجل فتنة العرب ، وخيم عند المأمون ابن ذي النون بطليطلة ، وله فيه
أمداح كثيرة ، ومن فرائد شعره قوله :

يا ليل الا انجلت عن فلق	طلت ولا صبر لي على الأرق
جفا لحاظي التغميض فيك فما	تطبق أجفانها على الحديق
كأننى صورة ممثلة	ناظرها الدهر غير منطبق

وقال :

يزرع ورداً ناضراً ناظري	في وجنة كالقمر الطالع
أمنع أن أقطف أزهاره	في سنة المتبوع والتابع
فلم منعتم شفتي قطفها	والحكم أن الزرع للزارع

هكذا نسبها له غير واحد كابن سعيد وابن كتيلة ، وبعضهم ينسبها للقاضي
عبد الوهاب .

قلت : وقد أجاب عنها بعض المغاربة بقوله :

سلمت أن الحكم ما قلت	وهو الذى نص عن الشارع
فكيف تبغى شفة قطفه	وغيرها المدعو بالزارع

ورده شيخ شيوخنا الامام الحافظ أبو عبد الله التتسي ثم التلمساني

بقوله :

في ذا الذي قد قلتم مبحث اذ فيه ايهام على السامع
سلمتم الحكم له مطلقا وغير ذا نص عن الشارع
يعنى أنه يلزم على قول المجيب أن يباح له النظر مطلقا ، والشرع خلافه .
وأجاب بعض الحنفية بقوله :

لأن أهل الحب في حكمنا عبيدنا في شرعنا الواسع
والعبد لا ملك له عندنا فحقه للسيد المانع
وهو جواب حسن لا بأس به .

ورأيت جوابا لبعض المغاربة على غير روية ، وهو :

قل لأبي الفضل الوزير الذي باهى به مغربنا الشرق
غرس ظلما وأردت الجنى وما لعرق ظالم حق
قلت : وهذا مما يعين أن الأبيات لأبي الفضل الدارمي المذكور في الذخيرة ، لا
للقاضي عبد الوهاب ، والله تعالى أعلم .

ومن شعر الوزير المذكور قوله :

بين كريمين منزل واسع والود حال تقرب الشاسع
والبيت ان ضاق عن ثمانية متسع بالوداد للتاسع

وولد رحمه الله تعالى سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة ، وهو من بيت علم وأدب ،
قال الحميدي : أخبرني بذلك أبو عمر رزق الله بن عبد الوهاب بن عبد العزيز بن
الحارث ، وتوفي بطليطلة سنة أربع وخمسين وأربعمائة ، وقال ابن حيان : توفي
ليلة الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من شوال سنة خمس وخمسين وأربعمائة ،
في كنف المأمون يحيى بن ذي النون ، وذكر أنه كان يهتم بالكذب ، فالله تعالى أعلم
بحقيقة الأمر .

وقال ابن ظافر في كتابه «بدائع البدائ» ما نصه : حضر أبو الفضل الدارمي
البغدادي مجلس المعز بن باديس ، وبالمجلس ساق وسيم قد مسك عذاره ورد
خديه ، وعجزت الراح أن تفعل في الندامي فعل عينيه ، فأمره المعز بوصفه ، فقال
بديها :

ومعذر نقش الجمال بمسكه خدأ له بدم القلوب مضرجا
لما تيقن أن سيف جفونه من نرجس جعل العذار بنفسجا

وقوله في جارية تبخرت بالند :

ومحطوطة المتنين مهضومة الحشا منعمة الأرداف تدمى من اللمس
إذا ما دخان الند من جيبها علا على وجهها أبصرت غيما على شمس
وقوله :

لأغررن بمهجتي في حبه غررا يطيل مع الخطوب خطابي
ولئن تعزز أن عندي ذلة تستعطف الأعداء للأحباب

● [قصور بني ذي النون]

وتذكرت بما وصفه من مجلس الناصر ما حكاه غير واحد عن القصر العظيم الذى شاده ملك طليطلة المأمون ابن ذي النون بها ، وذلك أنه أتقنه الى الغاية ، وأنفق عليه أموالا طائلة ، وصنع في وسطه بحيرة ، وصنع في وسط البحيرة قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب ، وجلب الماء على رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل من أعلى القبة على جوانبها محيطا بها ويتصل بعضه ببعض ، فكانت قبة الزجاج في غلالة مما سكب خلف الزجاج لا يفتر من الجرى ، والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء ولا يصله ، وتوقد فيها الشموع فيرى لذلك منظر بديع عجيب ، وبينما هو فيها مع جواريه ذات ليلة اذ سمع منشدا ينشد :

أتبنى بناء الخالدين ، وانما بقاؤك فيها لو علمت قليل
لقد كان في ظل الأراك كفاية لمن كل يوم يقتضيه رحيل

فنقص عليه حاله ، وقال : انا لله وأنا اليه راجعون ، أظن أن الأجل قد قرب ، فلم يلبث بعدها غير شهر وتوفى ، ولم يجلس في تلك القبة بعدها ، وذلك سنة ٤٦٧ تجاوز الله تعالى عنه ، هكذا حكاه بعض مؤرخى المغرب .

وقد ذكر في غير هذا الموضع من هذا الكتاب حكاية هذه القبة بلفظ ابن بدرون شارح العبدونية فليراجع .

وتذكرت هنا قول أبى محمد المصرى في صفة قصر طليطلة :

قصر يقصر عن مداه الفرقد عذبت مصادره وطاب المورد
نشر الصباح عليه ثوب مكارم فعليه ألوية السعادة تعقد
وكأنما المأمون في أرجائه بدر تمام قابله أسعد
وكأنما الأقداح في راحاته در جماد ذاب فيه العسجد

وله في صفة البركة والقبة عليها :

شمسية الأنساب بدرية يحار في تشبيهها الخاطر
كأنما المؤمن بدر الدجى وهى عليه الفلك الدائر

● [بين دون بطره وأبى الوليد ابن الأحمر]

وبعد مدة ألب ملوك النصارى سنة تسع عشرة وسبعمائة على غرناطة ، وجاءها الطاغية دون بطره في جيش لا يحصى ومعه خمسة وعشرون ملكا ، وكان من خبر هذه الواقعة أن الافرنج حشدوا وجمعوا وذهب سلطانهم دون بطره الى طليطلة ، ودخل على مرجعهم الذى يقال له البابا ، وسجد له ، وتضرع ، وطلب منه استئصال ما بقى من المسلمين بالاندلس ، وأكد عزمه ، فقلق المسلمون بغرناطة وغيرها ، وعزموا على الاستنجاد بالمرينى أبى سعيد صاحب فاس ، وأنفذوا اليه رسلا ، فلم ينجح ذلك الدواء ، فرجعوا الى أعظم الأدوية وهو اللجأ الى الله تعالى ، وأخلصوا النيات ، وأقبل الافرنج في جموع لا تحصى ، فقضى ناصر من لا ناصر له سواء بهزم أمم النصرانية ، وقتل طاغيته دون بطره ومن معه ، وكان نصرا عزيزا ويوما مشهودا .

وكان السلطان اذ ذاك بالاندلس الغالب بالله أبو الوليد اسماعيل ابن الرئيس أبى سعيد فرج بن نصر المعروف بابن الأحمر رغب أن يحصن البلاد والثغور ، فلما بلغ النصارى ذلك عزموا على منازل الجزيرة الخضراء ، فانتدب السلطان ابن الأحمر لردهم ، وجهاز الأساطيل والرجال ، فلما رأوا ذلك طلبوا الى طليطلة ، وعزموا على استئصال بلاد المسلمين وتأهبوا لذلك غاية الأهبة ، ووصلت الأتقال والمجانيق وآلات الحصار والأقوات في المراكب ، ووصل العدو الى غرناطة ، وامتألت الأرض بهم ، فتقدم السلطان الى شيخ الغزاة الشيخ العالم أبى سعيد عثمان بن أبى العلاء المريني بالخروج الى لقائهم بأنجاد المسلمين وشجعانهم ، فخرج اليهم يوم الخميس الموفى عشرين لربيع الأول .

ولما كانت ليلة الأحد أغارت سرية من العدو على ضيعة من المسلمين ، فخرجت اليهم جماعة من فرسان الاندلس الرماة ، فقطعوه عن الجيش ، وفرت تلك السرية أمامهم الى جهة سلطانهم ، فتبعهم المسلمون الى الصبح ، فاستأصلوهم ، وكان هذا أول النصر .

ولما كان يوم الأحد ركب الشيخ أبو سعيد لقتال العدو في خمسة آلاف من أبطال المسلمين المشهورين ، فلما شاهدتهم الفرنج عجبوا من اقدامهم مع قلتهم في تلك الجيوش العظيمة ، فركبوا وحملوا بجملتهم عليهم ، فانهزم الفرنج أقبح هزيمة ،

وأخذتهم السيوف ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاث أيام ، وخرج أهل غرناطة لجمع الأموال ، وأخذ الأسرى ، فاستولوا على أموال عظيمة منها من الذهب - فيما قيل - ثلاثة وأربعون قنطاراً ، ومن الفضة مائة وأربعون قنطاراً ، ومن السبي سبعة آلاف نفس حسبما كتب بذلك بعض الغرناطيين الى الديار المصرية ، وكان من جملة الأسرى امرأة الطاغية وأولاده ، فبذلت في نفسها مدينة طريف وجبل الفتح وثمانية عشر حصناً فيما حكى بعض المؤرخين ، فلم يقبل المسلمون ذلك ، وزادت عدة القتلى في هذه الغزوة على خمسين ألفاً ، ويقال : انه هلك منهم بالوادي مثل هذا العدد ، لعدم معرفتهم بالطريق ، وأما الذين هلكوا بالجبال والشعاب فلا يحصون ، وقتل الملوك الخمسة والعشرون جميعهم ، واستمر البيع في الأسرى والأسباب والدواب ستة أشهر ، ووردت البشائر بهذا النصر العظيم الى سائر البلاد .

ومن العجب أنه لم يقتل من المسلمين والأجناد سوى ثلاثة عشر فارساً ، وقيل عشرة أنفس ، وقيل : كان عسكر الاسلام نحو ألف وخمسمائة فارس ، والرجالة نحو من أربعة آلاف راجل ، وقيل دون ذلك .

وكانت الغنيمة تفوت الوصف ، وسلخ الطاغية دون بطره وحشي جلده قطناً ، وعلق على باب غرناطة ، وبقي معلقاً سنوات ؛ وطلبت النصارى الهدنة ، فعقدت لهم بعد أن ملكوا جبل الفتح الذى كان من أعمال سلطان فاس والمغرب ، وهو جبل طارق ، ولم يزل بأيديهم الى أن ارتجعه أمير المسلمين أبو الحسن المريني صاحب فاس والمغرب ، بعد أن أنفق عليه الأموال ، وصرف اليه الجنود والحشود ، ونازلته جيوشه مع ولده وخواصه ، وضيقوا به ، الى أن استرجعوه ليد المسلمين ، واهتم ببنائه وتحصينه ، وأنفق عليه أحمال مال في بنائه وحصنه وسوره وأبراجه وجامعه ودوره ومخازنه ، ولما كاد يتم ذلك نازله العدو براً وبحراً ، فصبر المسلمون ، وخيب الله سعي الكافرين ، فأراد السلطان المذكور أن يحصن سفح الجبل بسور محيط به من جميع جهاته حتى لا يطمع عدو في منازلته ، ولا يجد سبيلاً للتضييق عند محاصرته ، ورأى الناس ذلك من المحال ، فأنفق الأموال ، وأنصف العمال ، فأحاط بمجموعه احاطة الهالة بالهلال ، وكان بقاء هذا الجبل بيد العدو نيفاً وعشرين سنة ، وحاصره السلطان أبو الحسن ستة أشهر ، وزاد في تحصينه ابنه السلطان أبو عنان ، ولما أجاز السلطان أبو الحسن المذكور الى الاندلس ، واجتمع عليه ابن الأحمر ، وقاتلهم الطاغية ، هزمهم في وقعة طريف ، واستولى على الجزيرة الخضراء ، حتى قبيض الله من بنى الأحمر الغنى بالله محمداً الذى كان لسان الدين ابن الخطيب وزيره ، فاسترجعها وجملة بلاد كجيان وغيرها .

[حريز بن عكاشة]

● ومن غريب ما يحكى من قوة أهل الاندلس وشجاعتهم : أن الأمير حريز بن عكاشة من ذرية عكاشة بن محصن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل بساحة أذفونش ملك ملوك الروم ، فبدأهم بخراب ضياعها وقطع الشجر ، فكتب اليه حريز : ليس من أخلاق القدير ، الفساد والتدمير ، فإن قدرت على البلاد أفسدت ملكك ، ولو كان الملك في عشرة أمثال عددي لم ينزل لى بساحة ، ولا تمكن منها براحة ، فلما وصلت الرسالة عف ، وأمر بالكف ، وبعث الملك يرغبه في الاجتماع به ، فاسترهنه في نفسه عدة من ملوك الروم ، فأجاب الى ما ارتهن ، ولما صاروا بالمدينة البيضاء - وهى قلعة رياح غربي طليطلة - خرج حريز لابسا لأمة حربيه ، يرمق الروم منه شخصا أوتى بسطة في الجسم والبسالة يتعجبون من آلات حربيه ، ويتحدثون بشجاعة قلبه . ولما وصل فسطاط الملك تلقتة الملوك بالرحب والسعة ، ولما أراد النزول عن فرسه ركز رمحه ، فأبصر الملك منه هيئة تشهد له بما عنه حدث ، وهيبة يجزع للمقائها الشجاع ويكثرث ، فدعاه الى البراز عظيم أبطالهم ، فقال له الملك : يا حريز أريد أن أنظر الى مبارزتك هذا البطل ، فقال له حريز : المبارز لا يبارز الا أكفاه ، وان لى بيئنة على صدق قولى أن ليس لى فيهم كفاء ، هذا رمحي قد ركزته ، فمن ركب واقتلعه بارزته ، كان واحدا أو عشرة ، فركب عظيمهم فلم يهز الرمح من مكانه حين رامه ، ثم فعل ذلك مرارا ، فقال له الملك : أرني يا حريز كيف تقلعه ، فركب وأشار بيده واقتلعه ، فعجب القوم ، ووصله الملك وأكرمه ، انتهى .

وكان حريز هذا شاعرا ، ولما اجتاز به كاتب ابن ذي النون الوزير أبو المطرف ابن المثنى كتب اليه :

يا فريداً دون ثان وهلالا في العيان
عدم الراح فصارت مثل دهن البيلسان

فجاوبه حريز ، وهو يومئذ أمير قلعته :

يا فريداً لا يجارى بين أبناء الزمان
جاء من شعرك روض جاده صوب البيان
فبعثناها سلافا كسجاياك الحسان

وكان لحريز كاتب يقال له عبد الحميد بن لاطون فيه تغفل شديد ، فأمره أن يكتب الى المأمون بن ذي النون في شأن حصن دخله النصارى ، فكتب : وقد بلغنى أن الحصن الفلاني دخله النصارى ان شاء الله تعالى ، فهذه الواقعة التى ذكرها

الله تعالى في القرآن ، بل هي الحادثة الشاهدة بأشراط الزمان ، فانا لله على هذه المصيبة التي هدت قواعد المسلمين ، وأبقت في قلوبهم حسرة الى يوم الدين . فلما وصل الكتاب للمؤمن ضحك حتى وقع للأرض ، وكتب لابن عكاشة جوابه ، وفيه : وقد عهدناك منتقيا لأمورك ، نقادا لصغيرك وكبيرك ، فكيف جاز عليك أمر هذا الكاتب الأبله الجلف ، وأسندت اليه الكتب عنك دون أن تطلع عليه ، وقد علمت أن عنوان الرجل كتابه ، ورائد عقله خطابه ، وما أدري من أي شيء يتعجب منه ، هل من تعليقه ان شاء الله تعالى بالماضي ؟ أم من حسن تفسيره للقرآن ووضع مواضعه ؟ أم من تورعه عن تأويله الا بتوقيف من سماع عن امام ؟ أم من تهويله لما طرأ على من يخاطبه ؟ أم من علمه بشأن هذا الحصن الذي لو أنه القسطنطينية العظمى ما زاد عن عظمه وهوله شيئا ؟ ولو أن حقيرا يخفى عن علم الله تعالى لخفى عنه هذا الحصن ، ناهيك من صخرة حيث لا ماء ولا مرعى ، منقطع عن بلاد الاسلام ، خارج عن سلك النظام ، لا يعبره الا لص فاجر ، أو قاطع طريق غير متظاهر ، حراسه لا يتجاوزون الخمسين ، ولا يرون خبز البر عندهم الا في بعض السنين ، باعه أحدهم بعشرين دينارا ، ولعمري انه لم يغب في بيعه ولا ربح أرباب ابتياعه ، وأراح من الشين بنسبته والنظر في خداعه ، فليت شعري ما الذي عظمه في عين هذا الجاهل ، حتى خطب في أمره بما لم يخطب به في حرب وائل .

فلما وقف حريز على الكتاب كتب لابن ذي النون جوابا منه : وان المذكور ممن له حرمة قديمة ، تغنيه عن أن يمت بسواها ، وخدمة محمود أولاها وأخراها ، ولسنا ممن اتسعت مملكته ، وعظمت حضرته ، فنحتاج الى انتقاء الكتاب ، والتحفظ في الخطاب ، وانما نحن أحلاس شعور ، وكتاب كتائب لا سطور ، وان كان الكاتب المذكور لا يحسن فيما يلقيه على القلم ، فانه يحسن كيف يصنع في مواطن الكرم ، وله الوفاء الذي تحدث به فلان وفلان ، بل سارت بشأنه في أقصى البلاد الركبان ، وليس ذلك يقدح عندنا فيه ، بل زاده لكونه دالا على صحة الباطن والسداجة في الاكرام والتنويه ، انتهى .

ولهذا الكاتب شعر يسقط فيه سقوط الأغبياء ، وقد يتنبه فيه تنبه الأنكباء ، فمنه قوله من قصيدة يمدح حريزا المذكور مطلعها :

يذكرني بهم العنبر وظلم ثناياهم سكر

الى أن قال :

ولولا معاليك يا ذا الندى لما كان في الارض من يشعر
فلا تنكرن زحاما على ذراك وفي كفك الكوثر

ومشى في موكبه وهم في سفر ، وكان في فصل المطر والطين ، فجعل فرسه في ذنب فرس ابن عكاشة ، فلما أثارت يدا فرسه طينا جاء في عنق أميره ، ففطن لذلك الأمير ، فقال له : يا أبا محمد ، تقدم ، فقال : معاذ الله أن أسوء الأدب بالتقدم على أميرى ، فقال : فان كان كذلك فتأخر مع الخيل ، فقال : مثلى لا يزال عن ركابك في مثل هذه المواضع ، فقال له : فقد والله أهلكتنى بما ترمى يدا فرسك علي من الطين ، فقال : أعز الله الأمير ، يعذرني ، فوالله ما علمت أن يد فرسى تصل الى عنقك ، فضحك ابن عكاشة حتى كاد يسقط عن مركوبه .

● وقال القاضى الأديب ، والفيلسوف الأريب ، أبو الوليد الوراقى قاضى طليطلة :

برح بي أن علوم الورى قسما ما ان فيهما من مزيد
حقيقة يعجز تحصيلها وباطل تحصيله لا يفيد

[وفود أردون على المستنصر]

● وفي آخر صفر من سنة احدى وخمسين أخرج الخليفة الحكم المستنصر بالله مولايه محمدا وزيدا ابني أفلح الناصري بكتيبة من الحشم لتلقي غالب الناصري صاحب مدينة سالم الموردين للطاغية أردون بن أذفونش الخبيث في الدولة المتملك على طوائف من أمم الجلالقة والمنازع لابن عمه الملك قبله شانجه بن رذمير ، وتبرع هذا اللعين أردون بالمسير الى باب المستنصر بالله من ذاته ، غير طالب اذن ولا مستظهر بعهد ، وذلك عندما بلغه اعتزام الحكم المستنصر بالله في عامه ذلك على الغزو اليه ، وأخذ في التأهب له ، فاحتال في تأميل المستنصر بالله والارتقاء عليه ، وخرج قبل أمان يعقد له أو ذمة تعصمه في عشرين رجلا من وجوه أصحابه ، تكنفهم غالب الناصري الذي خرجوا اليه ، فجاء به نحو مولاة الحكم ، وتلقاهم ابنا أفلح بالجيش المذكور فأنزلاهم ، ثم تحركا بهم ثانی يوم نزولهم الى قرطبة ، فأخرج المستنصر بالله اليهم هشاما المصحفي في جيش عظيم كامل التعبئة ، وتقدموا الى باب قرطبة ، فمروا بباب قصرها ، فلما انتهى أردون الى ما بين باب السدة وباب الجنان سأل عن مكان رمس الناصر لدين الله فأشير الى ما يوازي موضعه من داخل القصر في الروضة ، فخلع قلنسوته ، وخضع نحو مكان القبر ، ودعا ، ثم رد قلنسوته الى رأسه . وأمر المستنصر بانزال أردون في دار الناعورة ، وقد كان تقدم في فرشها بضروب الغطاء والوطاء ، وانتهى من ذلك الى الغاية ، وتوسع له في الكرامة ولأصحابه ، فأقام بها الخميس والجمعة ، فلما كان يوم السبت تقدم المستنصر بالله باستدعاء أردون ومن معه بعد اقامة الترتيب وتعبية

الجيش والاحتفال في ذلك من العدد والأسلحة والزينة ، وقعد المستنصر بالله على سرير الملك في المجلس الشرقي من مجالس السطح ، وقعد الاخوة وبنوهم والوزراء ونظرائهم صفا في المجلس فيهم القاضي منذر بن سعيد والحكام والفقهاء ، فأتى محمد بن القاسم بن طملىس بالملك أردون وأصحابه وعالي لبوسه ثوب ديباجي رومي أبيض ولبليوال من جنسه وفي لونه ، وعلى رأسه قلنسوة رومية منظومة بجوهر ، وقد حفته جماعة من نصارى وجوه الذمة بالاندلس يؤنسونه ويصرونه ، فيهم وليد بن خيزران قاضي النصارى بقرطبة وعبيد الله بن قاسم مطران طليطلة وغيرهما ، فدخل بين صفي الترتيب يقرب الطرف في نظم الصفوف ، ويجيل الفكر في كثرتها وتظاهر أسلحتها ورائق حليتها ، فراعهم ما أبصروه ، وصلبوا على وجوههم ، وتأملوا ناكسى رؤوسهم غاضين من أجفانهم قد سكرت أبصارهم حتى وصلوا الى باب الأقباء أول باب قصر الزهراء ، فترجل جميع من كان خرج الى لقائه ، وتقدم الملك أردون وخاصة قوامسه على دوابهم ، حتى انتهوا الى باب السدة ، فأمر القوامس بالترجل هناك والمشى على الأقدام ، فترجلوا ، ودخل الملك أردون وحده راكبا مع محمد بن طملىس ، فانزل في برطل البهو الأوسط من الأبهاء القبلية التي بدار الجند على كرسى مرتفع مكسو الأوصال بالفضة ، وفي هذا المكان بعينه نزل قبله عدوه ومناوئته شانه بن رذمير الوافد على الناصر لدين الله - رحمه الله تعالى - فقعد أردون على الكرسى ، وقعد أصحابه بين يديه ، وخرج الاذن لأردون الملك من المستنصر بالله بالدخول عليه ، فتقدم يمشي وأصحابه يتبعونه الى أن وصل الى السطح ، فلما قابل المجلس الشرقي الذي فيه المستنصر بالله وقف وكشف رأسه وخلع برنسه ، وبقي حاسرا اعظاما لما بان له من الدنو الى السرير ، واستنهض فمضى بين الصفيين المرتبين في ساحة السطح ، الى أن قطع السطح وانتهى الى باب البهو ، فلما قابل السرير خرا ساجدا سويعة ، ثم استوى قائما ، ثم نهض خطوات ، وعاد الى السجود ، ووالى ذلك مرارا الى أن قدم بين يدي الخليفة وأهوى الى يده فناوله اياها وكر راكعا مقهقرا على عقبه الى وساد ديباج مثقل بالذهب ، جعل له هناك ، ووضع على قدر عشرة أذرع من السرير ، فجلس عليه ، والبهر قد علاه ، وأنهض خلفه من استدنى من قوامسه وأتباعه ، فدنوا ممتثلين في تكرير الخنوع وناولهم الخليفة يده فقبلوها وانصرفوا مقهقرين فوقفوا على رأس ملكهم ، ووصل بوصولهم وليد ابن خيزران قاضي النصارى بقرطبة ، فكان الترجمان عن الملك أردون ذلك اليوم ، فأطرق الحكم عن تكليم الملك أردون اثر قعوده أمامه وقدأ كيما يفرخ روعه ، فلما رأى أن قد خفض عليه افتتح تكليمه فقال : ليسرك اقبالك ويغبطك تأميك ، فلدينا لك من حسن رأينا ورحب قبولنا فوق ما قد طلبته ، فلما ترجم له كلامه اياه تطلق وجه أردون ، وانحط عن مرتبته ، فقبل البساط ، وقال : أنا عبد أمير المؤمنين

مولاي ، المتورك على فضله ، القاصد الى مجده ، المحكم في نفسه ورجاله ، فحيث وضعني من فضله وعوضني من خدمته رجوت أن أتقدم فيه بنية صادقة ، ونصيحة خالصة ، فقال له الخليفة : أنت عندنا بمحل من يستحق حسن رأينا ، وسينالك من تقديمنا لك وتفضيلنا اياك على أهل ملكك ما يغبطك ، وتتعرف به فضل جنوحك اليينا ، واستظلالك بظل سلطاننا ، فعاد أردون الى الاسجود عند فهمه مقالة الخليفة ، وابتهل داعيا ، وقال : ان شانجه ابن عمي تقدم الى الخليفة الماضي مستجيبرا به مني ، فكان من اعزازه اياه ما يكون من مثله من أعظم الملوك وأكارم الخلفاء لمن قصدهم وأملهم ، وكان قصده قصد مضطر قد شئته رعيته ، وأنكرت سيرته ، واختارتني لمكانه من غير سعي مني علم الله ذلك ، ولا دعاء اليه ، فخلعته وأخرجته عن ملكه مضطرا مضطهدا ، فتطول عليه - رحم الله - بأن صرفه الى ملكه ، وقوي سلطانه ، وأعز نصره ، ومع ذلك فلم يقم بفرض النعمة التي أسديت اليه ، وقصر في أداء المفروض عليه وحقه وحق مولاي أمير المؤمنين من بعده ، وأنا قد قصدت باب أمير المؤمنين لغير ضرورة ، من قرارة سلطانني وموضع أحكامي ، محكما له في نفسي ورجالي ومعالي ومن تحويه من ريعتي ، فشتان ما بيننا بقوة الثقة ومطرح الهمة ، فقال الخليفة : قد سمعنا قولك ، وفهمنا مغزاك ، وسوف يظهر من اقراضنا اياك على الخصوصية شأنه ، ويترادف من احساننا اليك أضعاف ما كان من أينا - رضى الله تعالى عنه - الى نذك ، وان كان له فضل التقدم بالجنوح اليينا والقصد الى سلطاننا ، فليس ذلك مما يؤخر عنه ، ولا ينقصك مما أئللناك ، وسنصرفك مغبوطا الى بلدك ، ونشد أواخي ملكك ونملك جميع من انحاش اليك من أمتك ونعقد لك بذلك كتابا يكون بيدك نقرر به حد ما بينك وبين ابن عمك ، ونقبضه عن كل ما يصرفه من البلاد الى يدك ، وسيترادف عليك من افضالنا فوق ما احتسبته ، والله على ما نقول وكيل .

فكرر أردون الخضوع ، وأسهب في الشكر ، وقام للانصراف مقهقرا لا يولى الخليفة ظهره ، وقد تكنفه الفتيان ، فأخرجوه الى المجلس الغربي في السطح ، وقد علاه البهر وأذهله الروع ، من هول ما باشره وجلالة ما عاينه من فخامة الخليفة وبهاء العزة ، فلما أن دخل المجلس ووقعت عينه على مقعد أمير المؤمنين خاليسا منه انحط ساجدا اعظاما له ، ثم تقدم الفتيان به الى البهو الذي بجوف هذا المجلس ، فأجلسوه هنالك على وساد مثقل بالذهب ، وأقبل نحوه الحاجب جعفر ، فلما بصر به قام اليه ، وخنع له ، وأومأ الى تقبيل يده ، فقبضها الحاجب عنه ، وانحنى اليه فعانقه ، وجلس معه ، فغيطه ، ووعده من انجاز عداة الخليفة له بما ضاعف سروره ، ثم أمر الحاجب جعفر فصبت عليه الخلع الى أمر له بها الخليفة ، وكانت دراعه منسوجة بالذهب ، وبرنسا مثلها له لوزة مفرغة من خالص التبر مرصعة بالجواهر والياقوت ملأت عين العليج تجلة ، فخر ساجدا

وأعلن بالدعاء ، ثم دعا الحاجب أصحابه رجلا رجلا فخلع عليهم على قدر استحقاقهم ، فأكمل جميع ذلك بحسب ما يصلح لهم ، وخر جميعهم خانعين شاكرين ، ثم انطلق الملك أردون وأصحابه ، وقدم لركابه في أول البهو الأوسط فرس من عتاق خيل الركاب عليه سرج حلي ولجام حلي مفرغ ، وانصرف مع ابن طملس الى قصر الرصافة مكان تضييفه ، وقد أعد له فيه كل ما يصلح لمثله من الآلة والفرش والماعون ، واستقر أصحابه فيما لا كفاء له من سعة التضييف وارغاد المعاش .

[بنو ذي النون بطليطلة]

ومن أعظم ملوك الطوائف بنو ذي النون ملوك طليطلة من الثغر الجوفي ، وكانت لهم دولة كبيرة ، وبلغوا في البذخ والترف الى الغاية ، ولهم الاعذار المشهور الذي يقال له «الاعذار الذنوني» وبه يضرب المثل عند أهل المغرب ، وهو عندهم بمثابة عرس بوران عند أهل المشرق ، والمأمون من بني ذي النون هو صاحب ذلك ، وهو الذي عظم بين ملوك الطوائف سلطانه ، وكان بينه وبين الطاغية مواقف مشهورة ، وغلب على قرطبة ، وملكها من يد ابن عباد المعتمد ، وقتل ابنه أبا عمرو وغلب أيضا على بلنسية وأخذها من يد بني أبي عامر .

وفي أيام حفيد المأمون - وهو القادر بن ذي النون - كان الطاغية ابن انذونش قد استفحل أمره ، لما خلا الجو من مكان الدولة الخلافية ، وخف ما كان على كاهله من أصر العرب ، فاكتسح البسائط ، وضايق ابن ذي النون ، حتى أخذ من يده طليطلة ، فخرج له عنها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة كما سبق ، وشرط عليه أن يظاهره على أهل بلنسية ، فقبل شرطه ، وتسلمها [ابن] الفونش ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

[بنو هود بسرقسطة]

ومن ملوك الطوائف بالاندلس بنو هود ملوك سرقسطة وما اليها ، ومن أشهرهم المقتدر بالله ، وابنه يوسف المؤتمن ، وكان المؤتمن قائما على العلوم الرياضية ، وله فيها تأليف ، ومنها كتاب الاستكمال والمنظر ؛ وولي بعده ابنه المستعين أحمد سنة أخذ طليطلة ، وعلى يده كانت وقعة وشقة - زحف سنة تسع وثمانين في آلاف لا تحصى من المسلمين ليدافع الطاغية عن وشقة ، وكان محاصرا لها ، فلقى الطاغية وهزمه ، وهلك من المسلمين نحو عشرة آلاف ، وهلك هو شهيدا سنة ثلاث وخمسمائة ، بظاهر سرقسطة في زحف الطاغية اليها ، وولي ابنه

عبد الملك عماد الدولة ، وأخرجه الطاغية من سرقسطة سنة ثني عشرة ، وتولى ابنه سيف الدولة ، وبالغ في النكاية بالطاغية ، ثم اتفق معه ، وانتقل بحشمه الى طليطلة ، فكان فيها حمامه .

ومن شعر المقتدر بن هود قوله رحمه الله في مبانیه :

قصر السرور ومجلس الذهب بكما بلغت نهاية الأرب
لو لم يحز ملكي خلافكما كانت لدى كفاية الطلب

● [غزوة الأرك]

وولى الأمر بعد عبد المؤمن ابنه يوسف ، وأجاز الى الاندلس ، وكانت له مواقف في جهاد العدو ، وولى بعده ابنه يعقوب المنصور الطائر الصيت ، وكانت له في النصرارى بالاندلس نكاية كبيرة ، ومن أعظمها غزوة الأرك التى تضاهى وقعة الزلاقة أو تزويد ، والأرك : موضع بنواحي بطليوس ، وكانت سنة احدى وتسعين وخمسائة ، وغنم فيها المسلمون ما عظم قدره ، وكان عدة من قتل من الفرنج - فيما قيل - مائة ألف وستة وأربعين ألفا ، وعدة الأسارى ثلاثين ألفا ، وعدة الخيام مائة ألف وخمسين ألف خيمة ، والخيول ثمانين ألفا ، والبغال مائة ألف ، والحمير أربعمائة ألف ، جاء بها الكفار لحمل أثقالهم لأنهم لا ابل لهم ، وأما الجواهر والأموال فلا تحصى ، وبيع الأسير بدرهم ، والسيوف بنصف درهم ، والفرس بخمسة دراهم ، والحمار بدرهم ، وقسم يعقوب الغنائم بين المسلمين بمقتضى الشرع ، ونجا الفنش ملك النصرارى الى طليطلة في أسوأ حال ، فحلق رأسه ولحيته ، ونكس صليبه ، وآلى أن لا ينسام على فراش ، ولا يقرب النساء ، ولا يركب فرسا ولا دابة ، حتى يأخذ بالثأر ، وصار يجمع من الجزائر والبلاد البعيدة ويستعد ، ثم لقيه يعقوب وهزمه وساق خلفه الى طليطلة وحاصره ورمى عليها بالمجانيق وضيق عليها .

● ذكر ابن حيان والرازى والحجاري أن أكتبيان - ثاني قياصرة الروم الذى ملك أكثر الدنيا وصفح نهر رومية بالصفير ، فأرخت الروم من ذلك العهد ، وكان من قبل ميلاد المسيح عليه السلام بثمان وثلاثين سنة - أمر ببناء المدن العظيمة بالاندلس ، فبنيت في مدته قرطبة واشبيلية وماردة وسرقسطة ، وانفرد الحجاري بأن أكتبيان المذكور وجه أربعة من أعيان ملوكه للاندلس فبنى كل واحد منهم مدينة في الجهة التى ولاه عليها ، وسماها باسمه ، وأن هذه الأسماء الأربعة كانت أسماء لأولئك الملوك ، وغير الحجاري جعل أسماء هذه المدن مشتقة مما تقتضيه أوضاعها كما مر ؛ وذكروا أنه قد تداولت على قرطبة ولادة الروم الأخيرة

الذين هم بنو عيصو بن اسحاق بن ابراهيم ، على نبينا وعليهم الصلاة والسلام ، الى أن انتزعها من أيديهم القوط من ولد يفاث المتغلبون على الاندلس ، الى أن أخذها منهم المسلمون ، ولم تكن في الجاهلية سريرا لسلطنة الاندلس ، بل كرسيا لخاص مملكتها ، وسعدت في الاسلام ، فصارت سريرا لسلطنة العظمى الشاملة ، وقطباً للخلافة المروانية ، وصارت اشبيلية و**طليطلة** تبعاً لها ، بعدما كان الأمر بالعكس .

● ومنهم أبو عبد الله الأنصاري ، وهو محمد بن ابراهيم بن موسى بن عبد السلام ، ويعرف بابن شق الليل ، من أهل **طليطلة** ، سمع بمصر أبا الفرج الصوفي وأبا القاسم الطحان الحافظ وأبا محمد ابن النحاس وأبا القاسم ابن ميسرة وأبا الحسن ابن بشر وغيرهم ، وسمع ب**طليطلة** من جماعة ، وحدث عن جماعة من المحدثين كثيرة .

قال ابن بشكوال : وكان فقيها عالماً ، واماماً متكلماً ، حافظاً للفقه ، والحديث ، قائماً بهما متقناً لهما ، الا أن المعرفة بالحديث وأسماء رجاله والبصر بمعانيه وعمله كان أغلب عليه ، وكان مليح الخط ، جيد الضبط ، من أهل الرواية والدراية والمشاركة في العلوم ، وكان أديباً شاعراً مجيداً لغوياً دينياً فاضلاً ، كثير التصانيف والكلام على علم الحديث ، حلوا الكلام في تأليفه ، وله عناية بأصول الديانات واطهار الكرامات ، توفي بطليطلة يوم الجمعة منتصف شعبان سنة ٤٥٥ ، رحمه الله تعالى .

● ومنهم محمد بن حزم بن بكر ، التنوخي ، من أهل **طليطلة** ، وسكن قرطبة ، يعرف بابن المديني ، سمع من أحمد بن خالد وغيره ، وصحبه محمد بن مسرة الجبلي قديماً ، واختص بمرافقته في طريق الحج ، ولأزمه بعد انصرافه ، وكان من أهل الورع والانقباض ، وحكى عن ابن مسرة أنه كان في سكناه المدينة يتتبع آثار النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : ودله بعض أهل المدينة على دار مارية أم ابراهيم سرية النبي صلى الله عليه وسلم ، فقصده اليها فاذا دويرة لطيفة بين البساتين بشرقى المدينة عرضها وطولها واحد قد شق في وسطها بحائط ، وفرش على حائطها خشب غليظ يرتقى الى ذلك الفرش على خارج لطيف ، وفي أعلى ذلك بيتان وسقيفة كانت مقعد النبي صلى الله عليه وسلم في الصيف ، قال : فرأيت أبا عبد الله بعدما صلى في البيتين والسقيفة وفي كل ناحية من نواحي تلك الدار ضرب أحد البيتين بشبره ، فكشفته بعد انصرافه وهو ساكن في الجبل عن ذلك ، فقال : هذا البيت الذي ترانى فيه بنيته على تلك الحالة في العرض والطول بلا زيادة ولا نقصان ، انتهى .

● ومن الراحلين من الاندلس الى المشرق يوسف بن يحيى بن يوسف الأزدي ، المعروف بالمغامي . من أهل قرطبة ، وأصله من طليطلة ، وهو من ذرية أبي هريرة رضى الله تعالى عنه .

سمع من يحيى بن يحيى وسعيد بن حسان ، وروى عن عبد الملك بن حبيب مصنفاته ، وارتحل الى مصر ، وسمع من يوسف بن يزيد القراطيسي ، وعاد الى الاندلس ، وكان فقيها ، نبيلاً ، فصيحاً [بصيراً] بالعربية ، ثم بعد عوده من مصر أقام بقرطبة أعواماً ، ثم عاد الى مصر ، وأقام بها ، وسمع الناس منه ، وعظم أمره بالبلاد الشرقية ، ثم انه عاد الى المغرب فتوفي بالقيروان سنة ثمان وثمانين ومائتين ، وبين بمصر «الواضحة» لابن حبيب ، وصنف شيئاً في الرد على الشافعية في عشرة أجزاء ، وألف كتاب «فضائل مالك» رضى الله تعالى عنه .

والذى يرتضى أن من قلد اماماً من المجتهدين لا ينبغي له أن يغض من قدر غيره ، وان كان ولا بد من الانتصار لمذهبه وتقوية حجته فليكن ذلك بحسن أدب مع الأئمة ، رضى الله تعالى عنهم ، فانهم على هدى من ربهم ، وقد ضل بعض الناس فحمله التعصب لمذهبه على التصريح بما لا يجوز في حق العلماء الذين هم نجوم الملة ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، وقد حكى أبو عبد الله الوادى أشى - حسبما رأيته بخطه - أن القاضى عبد الوهاب ابن نصر البغدادي المالكي ألف كتاباً لنصرة مذهب مالك على غيره من المذاهب في مائة جزء ، وسماه «النصرة لمذهب امام دار الهجرة» ، فوقع الكتاب بخطه بيد بعض قضاة الشافعية بمصر ، فغرقه في الذيل ، ففضى الله تعالى أن السلطان فرج بن برقوق سافر الى الشام ومعه القضاة الأربعة وغيرهم من الأعيان لدفع تيمورلنك عن البلاد ، فلم يستطع شيئاً ، وهزم الى مصر ، وتفرقت العساكر ، وأخذ القضاة والعلماء أسارى ومن جملتهم ذلك القاضى ، فبقى في أسر تيمورلنك الى أن ارتحل عن الشام ، فأخذه معه أسيراً الى أن وصل الى الفرات ، فغرق فيه ، أعنى القاضى ، فرأى بعض الناس أن ذلك بسبب تفريقه الكتاب المذكور ، والجزاء من جنس العمل ، والله تعالى أعلم .

[أشعار للحجاء]

● وقال أبو تمام غالب بن رباح الحجاء في دولاب طار منه لوح فوقف :

وذاث شدو وما لهم حلم	كلمدة العين ثم أجراها
وطار لوح بها فأوقفها	كل فتى بالضمير حياها

وكان المذكور ربي في قلعة رباح غربى **طليطلة** ، ولا يعلم له أب ، وتعلم الحجابة فأتقنها ، ثم تعلق بالأدب حتى صار آية ، وهو القائل في ثريا الجامع :

تحكى الثريا الثريا في تألقها وقد عراها نسيم فهى تتقد
كأنها لذوي الايمان أفئدة من التخضع جوف الليل ترتعد

وقال :

زرت الحبيب ولا شئ أحاذره في ليلة خلت من حسن كواكبها
دراهما وحسبت البدر دينارا

وقال في الثريا أيضا :

انظر الى سرج في الليل مشرقة كأنها ألسن الحيات قد برزت
عند الهجير فما تنفك تضطرب من الزجاج تراها وهى تلتهب

وقال :

ترى النسر والقتلى على عدد الحصى وقد مزقت أحشاءها والتراثبا
مزرجة مما أكلن كأنها عجائز بالحناء خضبن ذوائبا

وقال ، وقد أبدع غاية الابداع ، وأتى بما يحير الألباب ، وان كان أبو نواس ففتح هذا الباب :

وكأس ترى كسرى بها في قرارة غريقا ولكن في خليج من الخمر
ومما صورته فارس عبثا به ولكنهم جاءوا بأخفى من السحر
أشاروا بما كانوا له في حياته فنومى اليه بالسجود وما ندرى

وما أحلى قوله :

الأقحوان رمى عليك ظلامه لما عنفت عليه بالمسواك
لا يحمل النور الأنيق تمسه كف بعود بشامة وأراك
وجلاؤه المخلوق فيه قد كفى من أن يراع عراره بسواك

وقوله :

صغار الناس أكثرهم فسادا وليس لهم لصاحبة نهوض
ألم تر في سباع الطير سرا تسالنا ، ويأكلنا البعوض

وقد بلغ غاية الاحسان في قوله :

فما للملك ليس يرى مكاني وقد كحلت لواظظه بنورى
كذا المسواك مطرحا مهانا وقد أبقي جلاء فى الثغور
ومن حسناته قوله :

لى صاحب لا كان من صاحب فانه فى كبىدى جرحه
يحكى اذا ابصر لى زلة ذبابة تضرب فى قرحه
ولقيه أبو حاتم الحجارى على فرس فى غاية الضعف والرزالة قد أهلكها
الوجى ، وكانا فى جماعتين ، فقال له : يا أبا تمام ، أنشدنى قولك :

وتحتى ريح تسبق الريح ان جرت وما خلت أن الريح ذات قوائم
لها فى المدى سبق الى كل غاية كأن لها سبقا يفوق عزائمى
وهمة نفسى نزعتها عن الوجى فيا عجا حتى العلا فى البهائم
فلما أنشده اياها رد رأسه أبو حاتم الى الجماعتين وقال : ناشدتك الله أيجوز
لحجام على فرس مثل هذه الرمكة الهزيلة العرجاء ، أن يقول مثل هذا ؟ فضحك
جميع من حضر ، وأقبل أبو تمام فى غيظه يسبه .

ومن شعر الحجام المذكور قوله :
لا يفخر السيف والأقلام فى يده قد صار قطع سيوف الهند للقصب
فان يكن أصلها لم يقو قوتها «فان فى الخمر معنى ليس فى العنب»
وقال :

ثقلت على الأعداء الا أنها خفت على السباب والابهام
أخذت من الليل البهيم سواده وبدت تنمق أوجه الأيام
وقال :

نظر الحسود فازدرى لى هيئة والفضل منى لا يزال مبينا
قبحت صفاتى من تغير وده صدأ المرأة يقبح التحسينا
وقال :

تصبر وان أبدى العدو مذمة فمهما رمى ترجع اليه سهامه
كما يفعل النحل الملم بلسعه يريد به ضراً وفيه حمामه
وقال :

وبادر الشعر لم يؤلم به ولقد أضر منه جميع الناس واعتزلا
كأنه الصل لا تؤذيه ريقته حتى اذا مجها فى غيره قتلا

رسائل :

● وكتب أبو محمد عبد الله بن عذرة الى بعض أصحابه من الأسر في **طليطلة** :

لو كنت حيث تجيبني	لأذاب قلبك ما أقول
يكفيك مني أننى	لا أستقل من الكبول
واذا أردت رسالة	لكم فما ألقى رسول
هذا وكم بتنا وفي	أيماننا كأس الشمول
والعود يخفق والدخا	ن العنبري به يجول
حال الزمان ولم يزل	مذ كنت أعده حصول

● وأما ابراهيم بن الفخار اليهودى فكان قد تمكن عند الأذفونش ملك **طليطلة** النصرانى ، وصيره سفرا بينه وبين ملوك المغرب ، وكان عارفا بالمنطق والشعر ، قال ابن سعيد : أنشدنى لنفسه يخاطب أديبا مسلما كان يعرفه قبل أن تعلق رتبته ويسفر بين الملوك ، ولم يزد على ما كان يعامله به من الانذال ، فضاق ذرع ابن الفخار وكتب اليه :

أيا جاعلا أمرين شبيهين ما له	من العقل احساس به يتفقد
جعلت الغنى والفقر والذل والعلا	سواء فما تنفك تشقى وتجهد
وهل يستوى فى الأرض نجد وتلعة	فتطلب تسهلا وسيرك مصعد
وما كنت ذا ميز لمن كنت طالبا	بما كنت فى حال الفراغ تعود
وقد حال ما بينى وبينك شاغل	فلا تطلبنى بالذى كنت تعهد
فان كنت تأبى غير اقدام جاهل	فانك لا تنفك تلحى وتطرده
ألا فأت فى أبوابه كل مسلك	ولا تك محلا حيثما قمت تقعد

قال ابن سعيد : وأنشدنى لنفسه :

ولما دجا ليل العذار بخده	تيقنت أن الليل أخفى وأستر
وأصبح عذالى يقولون صاحب	فأخلو به جهرا ولا أستر

وقال يمدح الأذفونش لعنهما الله تعالى :

حضرة الأذفونش لا برحت	عادة أيامها عرس
فأخلع النعلين تكرمة	فى ثراها انها قدس

قال : وأدخلونى الى بستان الخليفة المستنصر ، فوجدته فى غاية الحسن كأنه الجنة ، ورأيت على بابه بوابا فى غاية القبح ، فلما سألتنى الوزير عن حال فرجتى

قلت : رأيت الجنة الا أنى سمعت أن الجنة يكون على بابها رضوان ، وهذه على بابها مالك ، فضحك وأخبر الخليفة بما جرى ، فقال له : قل له انا قصدنا ذلك ، فلو كان رضوان عليها بوابا لخشنا أن يرده عنها ، ويقول له : ليس هذا موضعك ، ولما كان هناك مالك أدخله فيها ، وهو لا يدري ما وراءه ، ويخيل أنها جهنم ، قال : فلما أعلمنى الوزير بذلك قلت له : «الله أعلم حيث يجعل رسالته» (الأنعام : ١٢٤) .

● [فى رثاء طليطلة]

ومن ذلك قول بعضهم يندب طليطلة أعادها الله تعالى للسلام :

<p>لشكك كيف تبتسم الثغور أما وأبى مصاب هد منه لقد قصمت ظهور حين قالوا ترى فى الدهر مسرورا بعيش أليس بها أبى النفس شهم لقد خضعت رقاب كن غلبا وهان على عزيز القوم ذل طليطلة أباح الكفر منها فليس مثالها ايوان كسرى محصنة محسنة بعيد ألم تك معقلا للدين صعبا وأخرج أهلها منها جميعا وكانت دار ايمان وعلم فعادت دار كفر مصطفىة مساجدها كنائس ، أى قلب فيا أسفاه يا أسفاه حزنا وينشر كل حسن ليس يطوى أدبيلت قاصرات الطرف وكانت وأدركها فتور فى انتظار وكان بنا وبالقينات أولى لقد سخنت بحالتهن عين لئن غبنا عن الاخوان انا نذور كان للأيام فيهم</p>	<p>سرورا بعدما سببت ثغور ثبير الدين فاتصل الثبور أمير الكافرين له ظهور مضى عنا لطيته السرور يدير على الدوائر اذ تدور وزال عتوها ومضى النفور وسامح فى الحريم فتى غيور حماها ، ان ذا نبأ كبير ولا منها الخورنق والسدير تناولها ومطلبها عسير فذلله كما شاء القدير فصاروا حيث شاء بهم مصير معالمها التى طمست تنير قد اضطربت بأهلها الأمور على هذا يقر ولا يطير ؟ يكرر ما تكررت الدهور الى يوم يكون به النشور مصونات مساكنها القصور لسرب فى لواحظه فتور لو انضمت على الكل القبور وكيف يصح مغلوب قرير بأحزان وأشجان حضور بمهلكهم فقد وفت النذور</p>
--	---

فان قلنا العقوبة أدركتهم
 فاننا مثلهم وأشد منهم
 أنأمن أن يحل بنا انتقام
 وأكل للحرام ولا اضطرار
 ولكن جرأة في عقردار
 يزول الستر عن قوم اذا ما
 يطول علي ليالي ، رب خطب
 خذوا ثأر الديانة وانصروها
 ولا تهنوا وسلوا كل غضب
 وموتوا كلكم فالموت أولى
 أصبراً بعد سبي وامتحان
 فأم الثكل مذكور ولود
 نخور اذا دهبنا بالرزايا
 ونجبين ليس نزار ، لو شجعنا
 لقد ساءت بنا الأخبار حتى
 أتننا الكتب فيها كل شر
 وقيل تجمعوا لفراق شمل
 فقل في خطة فيها صغار
 لقد صم السميع فلم يعول
 أجازبنا الأعداء باصطناع
 فباق في الديانة تحت خزي
 وآخر مارق هانت عليه
 كفى حزنا بأن الناس قالوا
 أنترك دورنا ونفر عنها
 ولا ثم الضياع تروق حسنا
 وظل وارف وخرير ماء
 ويؤكل من فواكهها طري
 يؤدي مغرم في كل شهر
 فهم أحمى لحوزتنا وأولى
 لقد ذهب اليقين فلا يقين
 فلا دين ولا دنيا ولكن
 رضوا بالرق يا الله ماذا
 مضى الاسلام فابك دما عليه

وجاءهم من الله النكير
 نجور وكيف يسلم من يجور
 وفينا الفسق أجمع والفجور
 اليه فيسهل الأمر العسير
 كذلك يفعل الكلب العقور
 على العصيان أرخيت الستور
 يطول لهوله الليل القصير
 فقد حامت على القتل النصور
 تهاب مضارباً منه النحور
 بكم من أن تجاروا أو تجوروا
 يلام عليهما القلب الصبور
 وأم الصقر مقلات نزور
 وليس بمعجب بقر يخور
 ولم نجبن لكان لنا زئير
 أمات المخبرين بها الخبير
 وبشرنا بأنحسنا البشير
 طليطلة تملكها الكفور
 يشيب لكرها الطفل الصغير
 على نبأ كما عمى البصير
 فينجذب الخول والفقير
 تثبطه الشويهة والبعير
 مصائب دينه فله السعير
 الى أين التحول والمسير
 وليس لنا وراء البحر دور
 نباكرها فيعجبنا البكور
 فلا قر هناك ولا حرور
 ويشرب من جداولها نمير
 ويؤخذ كل صائفة عشور
 بنا وهم الموالى والعشير
 وغر القوم بالله الغرور
 غرور بالمعيشة ما غرور
 رآه وما أشار به مشير
 فما ينفي الجوى الدمع الغزير

ونح وانذب رفاقا في فلاة
ولا تجنح الى سلم وحارب
أنعمى عن مرشدنا جميعا
ونلقى واحداً ويفر جمع
ولو أننا ثبتنا كان خيراً
إذا ما لم يكن صبر جميل
ألا رجل له رأى أصيل
يكر إذا السيوف تناولته
ويطعن بالقنا الخطار حتى
عظيم أن يكون الناس طراً
أذكر بالقراع الليث حرصاً
يبادر خرقها قبل اتساع
يوسع للذى يلقاه صدرأ
تنغصت الحياة فلا حياة
فليل فيه هم مستكن
ونرجو أن يتيح الله نصراً

حيارى لا تحط ولا تسير
عسى أن يجبر العظم الكسير
وما ان منهم الا بصير
كما عن قانص فرت حمير
ولكن ما لنا كرم وخير
فليس بنافع عدد كثير
به مما نحاذر نستجير
وأين بنا اذا ولت كرور
يقول الرمح ما هذا الخطير
بأندلس قتيل أو أسير
على أن يقرع البيض الذكور
لخطب منه تنخسف البذور
فقد ضاقت بما تلقى صدور
وودع جيرة ان لا مجير
ويوم فيه شر مستطير
عليهم ، انه نعم النصير

● وزعموا أنه لم يسبق عبادة وشاح من معاصريه الذين كانوا في زمان ملوك الطوائف ، وجاء مصليا خلفه منهم ابن أرفع رأسه شاعر المأمون بن ذي النون صاحب **طليطلة** ، قالوا : وقد أحسن في ابتدائه في الموشحة التى طارت له حيث يقول :

العود قد ترنم بأبدع تلحين وشقت المذانب رياض البساتين
وفي انتهائه حيث يقول :

تخطر ولم تسلم عساك المأمون مروع الكتائب يحيى بن ذي النون

● أخبرنى ابن القطان أنه سائر الأمير يحيى بن أبى بكر الى **طليطلة** في جيوش فاضت سيلا ، وخاضت المطايا قتامها ليلا ، وكان ملكا لم يعقد على مثله لواء ، ولم يحتو على شبهه حواء ، جمال محيا ، وكمال عليا ، وحسن شيم ، وبعد هم ، أغنى العفاة ، وأحيا الرفات ، وألغى الأجواد ، وأنسى كعب ابن مامة وابن أبى داود ، فلما شارف طليطلة وكشفها ، واشتف بلالتها وارثشفها ، وضرب بكنفها مضاربه ، وأجال بساحتها زنجه وأعاربه ، سقط أحد ألويته عن يد حامله ، وانكسر عند عامله ، فطائفة تفاعلت ، وطائفة تطيرت ، وفرقة ابتهجت ، وأخرى تغيرت ، فقال :

لم ينكسر عود اللواء لطيرة يخشى عليك بها وأن تتأولا
لكن تحقق أنه يندق في نحر العدا ولدى الوغى فتعجلا

● وحكى الامام ابن بشكوال عن الشيخ أبى بكر بن سعادة أنه دخل مدينة
طليطلة مع أخيه على الشيخ الأستاذ أبى بكر المخزومي ، قال : فسألنا : من أين ؟
فقلنا : من قرطبة ، فقال : متى عهدكما بها ؟ فقلنا : الآن وصلنا منها ، فقال :
اقربا الى أشم نسيم قرطبة ، فقربنا منه ، فشم رأسى وقلبه ، وقال لى : اكتب :

أقرطبة الغراء هل لى أوبة اليك ؟ وهل يدنو لنا ذلك العهد
سقى الجانب الغربي منك غمامة وقعقع فى ساحات دوحاتك الرعد
لياليك أسحار ، وأرضك روضة ، وتربك فى استنشاقها عنبر ورد

● [طليطلة - ٤٧٨]

ولنرجع الى ما كنا بصده من أخذ النصارى قواعد الاندلس فنقول : قد قدمنا
أوائل هذا الباب أن طليطلة أعادها الله تعالى من أول ما أخذ الكفار من المدن
العظام بالاندلس ، قال ابن بسام : لما توالى على أهل طليطلة الفتن المظلمة ،
والحوادث المصطلمة ، وترادف عليهم البلاء والجلأ ، واستباح الفرنج لعنهم الله
تعالى أموالهم وأرواحهم ، كان من أعجب ما جرى من النوادر الدالة على الخذلان
أن الحنطة كانت تقيم عندهم مخزونة خمسين سنة لا تتغير ، ولا يؤثر فيها طون
المدة بما يمنع من أكلها ، فلما كانت السنة التى استولى عليها العدو فيها لم ترفع
الغلة من الأندر حتى أسرع فيها الفساد ، فعلم الناس أن ذلك بمشيئة الله تعالى
لأمر أراد ، من شمول البلوى ، وعموم الضراء ، فاستولى العدو على طليطلة ،
 وأنزل من بها على حكمه ، وخرج ابن ذى النون منها على أقبح صورة ، وأفظع
سيرة ، وراه الناس وبيده اضطراب يأخذ به وقتا يرحل فيه ، فتعجب منه
المسلمون ، وضحك عليه الكافرون ، وبسط الكافر العدل على أهل المدينة ، وحبيب
التنصر الى عامة طغامها ، فوجد المسلمون من ذلك ما لا يطاق حمله ، وشرع فى
تغيير الجامع كنيسة فى ربيع الاول سنة ست وتسعين وأربعمائة .

ومما جرى فى ذلك اليوم أن الشيخ الاستاذ المغامى رحمه الله تعالى صار الى
الجامع ، وصلى فيه ، وأمر مريداً له بالقراءة ، ووافاه الفرنج لعنهم الله تعالى
وتكاثروا لتغيير القبلة ، فما جسر أحد منهم على أزعاج الشيخ ولا معارضته ،
وعصمه الله تعالى منهم ، الى أن أكمل القراءة وسجد سجدة ، ورفع رأسه ، وبكى
على الجامع بكاء شديدا ، وخرج ولم يعرض أحد له بمكروه . وقيل لملك
النصارى : ينبغى أن تلبس التاج كمن كان قبلك فى هذا الملك ، فقال : حتى نأخذ
قرطبتهم ، وأعد لذلك ناقوسا تأنق فيه وفيما رصع به من الجواهر ، فأكذبه الله

وأزعجه ، وورد أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين ، فما قصر فيما أشر من إذلال المشركين ، وارغام الكافرين ، واستدراك أمور المسلمين ؛ انتهى ملخصا ، وقد مر مطولا .

● [وقعة بطرنة - ٤٥٦]

وكانت قبلها وقعة بطرنة سنة ست وخمسين وأربعمائة ، وذلك أن الفرنج - خذلهم الله تعالى - انتدبت منهم قطعة كثيفة ، ونزلت على بلنسية في السنة المذكورة ، وأهلها جاهلون بالحرب ، مغترون بأمر الطعن والضرب ، مقبلون على اللذات من الأكل والشرب ، وأظهر الفرنج النذم على منازلها ، والضعف عن مقاومة من فيها ، وخدعهم بذلك فانخدعوا ، وأطمعهم فطمعوا ، وكمنوا في عدة أماكن جماعة من الفرسان ، وخرج أهل البلد بثياب زينتهم ، وخرج معهم أميرهم عبد العزيز بن أبي عامر ، فاستدرجهم العدو - لعنهم الله تعالى - ثم عطفوا عليهم فاستأصلوهم بالقتل والأسر ، وما نجا منهم الا من حصنه أجله ، وخلص الأمير نفسه ، ومما حفظ عنه أنه أنشد لما أعياه الأمر .

خليلى ليس الرأي فى صدر واحد أشيرا على اليوم ما تريان

وفى أهل بلنسية يقول بعض الشعراء حين خرجوا فى ثياب الزينة والترفة :

لبسوا الحديد الى الوغى ولبستم حلل الحرير عليكم ألوانا
ما كان أقبحهم وأحسنكم بها لو لم يكن ببطرنة ما كان

قال ابن بسام : وهكذا جرى لأهل طليطلة ، فان العدو - خذله الله تعالى - استظهر عليهم ، وقتل جماهيرهم ، وكان من جملة ما غنمه الفرنج من أهلها لما خرجوا اليهم فى ثياب الترفه ألف غفارة خارجاً عما سواها .

● [بريشتر]

وقال ابن حيان : وكان تغلب العدو - خذله الله تعالى - على بريشتر قسبة بلد برطانية ، وهى تقرب من سرقسطة ، سنة ست وخمسين وأربعمائة ، وذلك أن جيش الأردمليس نازلها وحاصرها ، وقصر يوسف بن سليمان بن هود فى حمايتها ، ووكّل أهلها الى نفوسهم ، فأقام العدو عليها أربعين يوما ، ووقع فيما بين أهلها تنازع فى القوات لقلته ، واتصل ذلك بالعدو ، فشدد القتال عليها والحصار لها حتى دخل المدينة الأولى فى خمسة آلاف مدرع ، فدهش الناس ، وتحصنوا بالمدينة الداخلة ، وجرت بينهم حروب شديدة قتل فيها خمسمائة أفرنجى ، ثم

اتفق أن القناة التي كان الماء يجرى فيها من النهر الى المدينة تحت الارض في سرب موزون انهارت وفسدت ، ووقعت فيها صخرة عظيمة سدت السرب بأسره ، فانقطع الماء عن المدينة ، ويئس من بها من الحياة ، فلاندوا بطلب الأمان على أنفسهم خاصة دون مال وعيال ، فأعطاهم العدو الأمان ، فلما خرجوا نكث بهم وغدر ، وقتل الجميع الا القائد ابن الطويل والقاضى ابن عيسى في نفر من الوجوه ، وحصل للعدو من الأموال والأمتعة ما لا يحصى ، حتى ان الذى خص بعض مقدمي العدو لحصنه - وهو قائد خيل رومة - نحو ألف وخمسمائة جارية أبكارا ، ومن أوقار الأمتعة والحلى السوأى من القائم يومئذ بأيديهم اليه - أمور قبيحة الصور ، مؤذونات الصدور بأعجاز الغير :

أمور لو تدبرها حكيم اذا لنهى وهيب ما استطاعا

● [استرجاع بربشتر]

ثم قال ابن حيان : فلما كان عقب جمادى الاول سنة ٤٥٧ شاع الخبر بقرطبة برجوع المسلمين اليها ، وذلك أن أحمد المقتدر بن هود المفرط فيها ، والمتهم على أهلها ، لانحرافهم الى أخيه ، صمد لها مع امداد لحليفه عباد ، وسعى لاصمات سوء المقالة عنه ، وقد كتب الله تعالى عليه منها ما لا يمحوه الا عفوه ، فتأهب لقصده بربشتر في جموع من المسلمين ، فجالدوا الكفار بها جلاداً ارتاب منه كل جبان ، وأعز الله سبحانه أهل الحفيظة والشجعان ، وحمى الوطيس بينهم الى أن نصر الله تعالى أوليائه ، وخذل أعداءه ، وولوا الأدبار مقتحمين أبواب المدينة ، فاقتحمها المسلمون عليهم ، وملكوهم أجمعين ، الا من فر من مكان الوقعة ، ولم يدخل المدينة ، فأجبل السيف في الكافرين ، واستوصلوا أجمعين ، الا من استرق من أصاغره ، وفدى من أعاضلهم ، وسبوا جميع من كان فيها من عيالهم وأبنائهم ، وملكوا المدينة بقدرة الخالق البارئ ، وأصيب على منحة النصر المتاح طائفة من حماة المسلمين الجادين في نصر الدين ، نحو الخمسين ، كتب الله تعالى شهادتهم . وقتل فيه من أعداء الله الكافرين نحو ألف فارس وخمسة آلاف راجل ، فغسلها المسلمون من رجس الشرك ، وجلوها من صدا الافك ، انتهى .

وليت طليطلة البائسة استرجعت كهذه ، ومع هذا فقد غلب العدو بعد على الكل ، والله سبحانه المرجو في الادالة .

● [بلنسية والقنبيطور]

ولما صار أمر بلنسية الى الفقيه القاضى أبى أحمد ابن جحاف قاضيا صيرها لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، فحصره بها القادر بن ذي النون الذى مكن

الأذفونش من طليطلة ، فهجم عليه القاضي في لمة من المرابطين ، وقتله ، ودفع ابن جحاف لما لم يعهد من تدبير السلطان ، ورجعت عنه طائفة الملتزمين الذين كان يعتد بهم ، وجعل يستصرخ الى أمير المسلمين فييطيء عليه ، وفي أثناء ذلك أنهض يوسف بن أحمد بن هود صاحب سرقسطة ردريق الطاغية للاستيلاء على بلنسية ، فدخلها ، وعاهده القاضي ابن جحاف ، واشترط عليه احضار ذخيرة كانت للقادر بن ذي النون ، فأقسم أنها ليست عنده ، فاشترط عليه أنه ان وجدها عنده قتله ، فاتفق أنه وجدها عنده ، فأحرقه بالنار ، وعاث في بلنسية ، وفيها يقول ابن خفاجة حينئذ :

عماثت بساحتك الظبا يا دار	ومحسا محاسنك البلى والنار
فاذا تردد في جنابك ناظر	طال اعتبار فيك واستعبار
أرض تقاذفت الخطوب بأهلها	وتمخضت بخرابها الاقدار
كتبت يد الحدثان في عرصاتها	لا أنت أنت ولا الديار ديار

وكان استيلاء القنبيطور - لعنه الله تعالى - عليها سنة ثمان وثمانين وأربعمائة .

● [الاستيلاء على طليطلة]

ومن أول ما استرد الافرنج من مدن الاندلس العظيمة مدينة طليطلة من يد ابن ذي النون سنة ٤٧٥ ، وفي ذلك يقول عبد الله بن فرج اليعصبى المشهور بابن السعال :

يا أهل أندلس حثوا مطيكم	فما المقام بها الا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى	ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا	كيف الحياة مع الحيات في سبط
ويروى صدر البيت الثالث هكذا :	
من جاور الشر لا يأمن بوائقة	كيف الحياة مع الحيات في سبط
وتروى الأبيات هكذا :	

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس	فما المقام بها الا من الغلط
السلك ينثر من أطرافه ، وأرى	سلك الجزيرة منتورا من الوسط
من جاور الشر لا يأمن عواقبه	كيف الحياة مع الحيات في سبط
وقال آخر :	

يا أهل أندلس ردوا المعار فما	في العرف عارية الا مردات
ألم تروا بيدق الكفار فرزنه	وشاهنا آخر الأبيات شهات

وقال بعض المؤرخين : أخذ الأذفونش **طليطلة** من صاحبها القادر بالله بن المأمون يحيى بن ذي النون بعد أن حاصرها سبع سنين ، وكان أخذه لها في منتصف محرم سنة ٤٧٨ ، انتهى . وفيه بعض مخالفة لما قبله في وقت أخذها ، وسيأتى قريباً بعض ما يؤيده .

قال : وهى مدينة حصينة قديمة أزلية من بناء العمالقة ، على ضفة النهر الكبير ، ولها قصبة حصينة فى غاية المنعة ، ولها قنطرة واحدة عجيبة البنيان على قوس واحد والماء يدخل تحته بعنف وشدة جري ، ومع آخر النهر ناعورة ارتفاعها فى الجو تسعون ذراعاً ، وهى تصعد الماء الى أعلى القنطرة ، ويجري الماء على ظهرها فيدخل المدينة ، و**طليطلة** هذه دار مملكة الروم ، وبها كان البيت المغلق الذى كانوا يتحامون فتحه حتى فتحه لذريق فوجد فيه صورة العرب : انتهى .

وقد تقدم شئ من هذا فيما مر من هذا الكتاب .

وقد حكى ابن بدرون فى شرح العبدونية أن المأمون يحيى بن ذي النون صاحب **طليطلة** بنى بها قصرأ تأنق فى بنائه ، وأنفق فيه مالا كثيراً ، وصنع فيه بحيرة ، وبنى فى وسطها قبة ، وسبق الماء الى رأس القبة على تدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل من أعلى القبة حوالىها محيطاً بها متصلاً بعضه ببعض ، فكانت القبة فى غلالة من ماء سكب لا يفتقر ، والمأمون بن ذي النون قاعد فيها لا يمسه من الماء شئ ، ولو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل ، فبينما هو فيها اذ سمع منشداً ينشد :

أتبني بناء الخالدين ، وانما بقاؤك فيها ، لو علمت ، قليل
لقد كان فى ظل الأراك كفاية لمن كل يوم يعتريه رحيل

فلم يلبث بعد هذا الا يسيراً حتى قضى نحبه ، انتهى .

وقال ابن خلكان : ان **طليطلة** أخذت يوم الثلاثاء مستهل صفر سنة ٤٧٨ بعد حصار شديد ؛ انتهى .

وقال ابن علقمة : ان **طليطلة** أخذت يوم الأربعاء لعشر خلون من المحرم سنة ٤٧٨ ، وكانت وقعة الزلافة فى السنة بعدها ، انتهى .

[وقعة الزلافة نقلاً عن الروض المعطار وغيره]

ورأيت أن أذكر هنا وقعة الزلافة التى نشأت عن أخذ **طليطلة** وما يتبع ذلك من كلام صاحب «الروض المعطار» وغيره فنقول : انه لما ملك يوسف بن تاشفين اللمتوني المغرب ، وبنى مدينتي مراكش وتلمسان الجديدة ، وأطاعته البربر مع

شكيمتها الشديدة ، وتمهدت له الأقطار الطويلة المديدة ، تاقت نفسه الى العبور لجزيرة الاندلس ، فهم بذلك ، وأخذ في انشاء المراكب والسفن ليعبر فيها ، فلما علم بذلك ملوك الاندلس كرهوا المسامه بجزيرتهم ، وأعدوا له العدة والعدد ، وصعبت عليهم مدافعتة ، وكرهوا أن يكونوا بين عدوين الفرنج من شمالهم والمسلمين من جنوبهم ، وكانت الفرنج تشتد وطأتها عليهم ، وتغير نتهب ، وربما يقع بينهم صلح على شيء معلوم كل سنة يأخذونه من المسلمين ، والفرنج ترهب ملك المغرب يوسف بن تاشفين ، اذ كان له اسم كبير وصيت عظيم ، لنفاذ أمره وسرعة تملكه بلاد المغرب ، وانتقال الأمر اليه في أسرع وقت ، مع ما ظهر لأبطال المثلثين ومشايخ صنهاجة في المعارك من ضربات السيوف التي تقصد الفارس ، والطعنات التي تنظم الكلى ، فكان له بسبب ذلك ناموس ورعب في قلوب المنتدبين لقتاله ، وكان ملوك الاندلس يفيئون الى ظله ، ويحذرونه خوفاً على ملكهم ، مهما عبر اليهم وعابن بلادهم ، فلما رأوا ما دلهم على عبوره اليهم وعلموا ذلك ، راسل بعضهم بعضاً يستنجدون آراءهم في أمره ، وكان مفزعهم في ذلك الى المعتمد ابن عباد ، لأنه أشجع القوم ، وأكبرهم مملكة ، فوقع اتفاقهم على مكاتبتهم لما تحققوا أنه يقصدهم يسألونه الاعراض عنهم ، وأنهم تحت طاعته ، فكتب عنهم كاتب من أهل الاندلس كتاباً ، وهو : أما بعد فانك ان أعرضت عنا نسبت الى كرم ، ولم تنسب الى عجز ، وان أجبننا داعيك نسبنا الى عقل ، ولم ننسب الى وهن ، وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبتي ، فاختر لنفسك أكرم نسبتيك ، فانك بالمحل الذي لا يجب أن تسبق فيه الى مكرمة ، وان في استبقائك ذوي البيوت ما شئت من دوام لأمرك وثبوت ، والسلام . فلما وصله الكتاب مع تحف وهدايا ، وكان يوسف بن تاشفين لا يعرف باللسان العربى ، لكنه ذكي الطبع ، يجيد فهم المقاصد ، وكان له كاتب يعرف اللغتين العربية والمرابطية ، فقال له : أيها الملك ، هذا الكتاب من ملوك الاندلس يعظمونك فيه ، ويعرفونك أنهم أهل دعوتك ، وتحت طاعتك ، ويلتمسون منك أن لا تجعلهم في منزلة الأعداء ، فانهم مسلمون وذوو بيوتات ، فلا تغير بهم ، وكفى بهم من وراءهم من الأعداء الكفار ، وبلدهم ضيق لا يحتمل العساكر ، فأعرض عنهم اعراضك عمن أطاعك من أهل المغرب ، فقال يوسف بن تاشفين لكاتبه : فما ترى أنت ؟ فقال : أيها الملك اعلم أن تاج الملك وبهجته شاهده الذى لا يرد ، فانه خليق بما حصل في يده من الملك والمال أن يعفو اذا استغفى ، وأن يهب اذا استوهب ، وكلما وهب جليلاً جزيلاً كان لقدره أعظم ، فاذا عظم قدره تأصل ملكه ، واذا تأصل ملكه تشرف الناس بطاعته ، واذا كانت طاعته شرفاً جاءه الناس ، ولم يتجشم المشقة اليهم ، وكان وارث الملك من غير اهلاك لآخرته ، واعلم أن بعض الملوك الحكماء الأكابر البصراء بطريق تحصيل الملك قال : من جاد ساد ، ومن ساد قاد ، ومن قاد ملك البلاد ؛ فلما ألقى الكاتب

هذا الكلام على السلطان يوسف بلغته فهمه وعلم صحته ، فقال للكاتب : أجب القوم ، واكتب بما يجب في ذلك ، واقرأ علي كتابك ، فكتب الكاتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، من يوسف بن تاشفين ، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، تحية من سالمكم وسلم عليكم ، وانكم مما في أيديكم من الملك في أوسع إباحة ، مخصوصين منا بأكرم أيثار وسماحة ، فاستديموا وفاءنا بوفائكم ، واستصلحوا اخاءنا باصلاح اخائكم ، والله ولي التوفيق لنا ولكم ، والسلام . فلما فرغ من كتابه قرأه على يوسف بن تاشفين بلسانه ، فاستحسنه ، وقرن به ما يصلح لهم من التحف ودرق اللط التي لا توجد الا ببلاده ، وأنفذ ذلك اليهم ، فلما وصلهم ذلك وقرأوا كتابه فرحوا به ، وعظموه ، وسروا بولايته ، وتقوت نفوسهم على دفع الفرنج عنهم ، وأزمعوا ان رأوا من الفرنج ما يريبهم أنهم يرسلون الى يوسف ابن تاشفين ليعبر اليهم ، أو يمدهم باعانة منه .

وكان ملك الافرنج الأذفونش لما وقعت الفتنة بالاندلس وثار الخلاف ، وكان كل من حاز بلداً وتقوى فيه ملكه وادعى الملك وصار مثل ملوك الطوائف ، فطمع فيهم الأذفونش بسبب ذلك ، وأخذ كثيراً من ثغورهم ، فقوى شأنه ، وعظم سلطانه ، وكثرت عساكره ، وأخذ **طليطلة** من صاحبها القادر بالله بن المأمون يحيى بن ذي النون بعد أن حاصرها سبع سنين ، وكان أخذه لها في منتصف محرم سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، فزاد لعنه الله تعالى بملكه **طليطلة** قوة الى قوته ، وأخذ يجوس خلال الديار ، ويستفتح المعازل والحصون .

قال ابن الأثير في «الكامل» : وكان المعتمد بن عباد أعظم ملوك الاندلس ومتملك أكثر بلادها ، مثل قرطبة واشبيلية ، وكان - مع ذلك - يؤدي الضريبة الى الأذفونش كل سنة ، فلما تملك الأذفونش **طليطلة** أرسل اليه المعتمد الضريبة المعتادة ، فلم يقبلها منه ، وأرسل اليه يهدده ويتوعده بالمسير الى قرطبة ليفتحها ، الا أن يسلم اليه جميع الحصون النبعة ، ويبقى السهل للمسلمين ، وكان الرسول في جمع كثير نحو خمسمائة فارس ، فأنزله المعتمد ، وفرق أصحابه على قواد عسكريه ، ثم أمر قواده أن يقتل كل منهم من عنده من الكفرة ، وأحضر الرسول وصفه حتى خرجت عيناه ، وسلم من الجماعة ثلاثة نفر ، فعادوا الى الأذفونش وأخبروه الخبر ، وكان متوجها الى قرطبة ليحاصرها ، فرجع الى **طليطلة** ليجمع آلات الحصار ، ويكثر العدد والعدة ، انتهى .

وقال الفقيه أبو عبد الله [محمد] بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري في كتابه «الروض المعطار في ذكر المدن والأقطار» ما ملخصه : انه لما اشتغل المعتمد بغزو ابن صمادح صاحب المرية حتى تأخر الوقت الذي كان يدفع فيه الضريبة للأذفونش وأرسلها اليه بعد ذلك ، استشاط الطاغية غضبا وتشطط ، وطلب بعض الحصون

زيادة على الضريبة ، وأمعن في التجني ، وسأل في دخول امرأته القمبيطة الى جامع قرطبة لتلد فيه ، اذ كانت حاملا ، لما أشار عليه بذلك القسيسون والأساقفة لمكان كنيسة كانت في الجانب الغربي منه معظمة عندهم عمل عليها المسلمون الجامع الأعظم ، وسأل أن تنزل امرأته المذكورة بالمدينة الزهراء غربي مدينة قرطبة - وهي التي أنشأ بناءها الناصر لدين الله ، وأمعن في بنائها ، وأغرب في حسننها ، وجلب اليها الرخام الملون والمرمر الصافي والحوض المشهور من البلاد والأقطار ، وكان يثيب على السارية بكذا وكذا غير الثمن وأجرة الحمل ، وأنفق فيها الأموال العظيمة ، واشتغل بها ، وكان يباشر الصناعات بنفسه ، حتى تخلف عن حضور الجمعة ثلاث مرات متواليات ، وحضر في الرابعة ، وكان الخطيب يومئذ الفقيه الزاهد منذر بن سعيد البلوطي ، فعرض به في الخطبة ، ووبخه على رؤوس الملائكة ، وقصته في ذلك مشهورة ، وبناء الزهراء أيضا من أغرب مباني الاسلام ، فمن أراد الوقوف على ذلك فعليه بتاريخ ابن حيان .

ولنرجع الى الأذفونش فان الأطباء والقسوس لما أشاروا أن تكون المرأة المذكورة ساكنة بالزهراء ، وتتردد الى الجامع المذكور حتى تكون ولادتها بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة موضع الكنيسة من الجامع المذكور ، وكان السفير في ذلك يهوديا كان وزير الأذفونش ، فامتنع ابن عباد من ذلك ، فراجعه ، فأباه وأياسه من ذلك ، فراجعه اليهودي في ذلك ، وأغلظ له في القول ، وواجهه بما لم يحتمله ابن عباد ، فأخذ ابن عباد محيرة كانت بين يديه وضرب بها رأس اليهودي ، فأنزله دماغه في حلقة ، وأمر به فصلب منكوسا بقرطبة ، واستفتى لما سكن غضبه الفقهاء عن حكم ما فعله باليهودي ، فبادره الفقيه محمد بن الطلاع بالرخصة في ذلك لتعدي الرسول حدود الرسالة الى ما استوجب به القتل ، اذ ليس له ذلك ، وقال للفقهاء : انما بادرت بالفتوى خوفا أن يكسل الرجل عما عزم عليه من منابذة العدو ، وعسى الله أن يجعل في عزيمته للمسلمين فرجا .

وبلغ الأذفونش ما صنعه ابن عباد ، فأقسم بالهته ليغزونه باشبيلية ، ويحاصره في قصره ، فجرد جيشين جعل على أحدهما كلبا من مساعير كلابه وأمره أن يسير على كورة باجة من غرب الاندلس ويغير على تلك التخوم والجهات ، ثم يمر على لبلة الى اشبيلية ، وجعل مواعده اياه طريانة للاجتماع معه ، ثم زحف الأذفونش بنفسه في جيش آخر عرمرم ، فسلك طريقا غير الطريق التي سلكها الآخر ، وكلاهما عاث في البلاد وخرب ودمر ، حتى اجتمعا لموعدهما بضفة النهر الأعظم قبالة قصر ابن عباد ، وفي أيام مقامه هنالك كتب الى ابن عباد زاريا عليه : كثر بطول مقامي في مجلسي الذبان ، واشتد علي الحر ، فأتحنفني من قصرك بمروحة أروح بها على نفسي ، وأطرد بها الذباب عن وجهي ، فوقع له ابن عباد بخط يده في ظهر الرقعة : قرأت كتابك ، وفهمت خيالك وأعجابك ، وسأنظر لك في

مراوح من الجلود اللمطية تروح منك لا تروح عليك ، ان شاء الله تعالى . فلما وصلت الأذفونش رسالة ابن عباد ، وقرئت عليه ، وعلم مقتضاها ، أطارق اطارق من لم يخطر له ذاك ببال .

وفشا في الاندلس توقيع ابن عباد ، وما أظهر من العزيمة على جواز يوسف بن تاشفين ، والاستظهار به على العدو ، فاستبشر الناس ، وفرحوا بذلك ، وفتحت لهم أبواب الآمال . وأما ملوك الاندلس فلما تحققوا عزم ابن عباد وانفرادهم برأيه في ذلك ، اهتموا منه ، ومنهم من كاتبه ، ومنهم من كلمه مواجهة ، وحذروه عاقبة ذلك ، وقالوا له : الملك عقيم ، والسيوفان لا يجتمعان في غمد واحد ، فأجابهم ابن عباد بكلمته السائرة مثلاً : رعي الجمال خير من رعي الخنازير ، ومعناه ان كونه مأكولاً ليوسف بن تاشفين أسيراً يرعى جماله في الصحراء خير من كونه ممزقاً للأذفونش أسيراً له يرعى خنازيره في قشتالة . وقال لعذاله ولوامه : يا قوم اني من أمري على حالتين : حالة يقين ، وحالة شك ، ولا بد لي من احدهما ، أما حالة الشك فاني ان استندت الى ابن تاشفين أو الى الأذفونش ففي الممكن أن يفي لي ويبقى على وفائه ، ويمكن أن لا يفعل ، فهذه حالة شك ، وأما حالة اليقين فاني ان استندت الى ابن تاشفين فأنا أَرْضَى الله ، وان استندت الى الأذفونش أسخطت الله تعالى ، فاذا كانت حالة الشك فيها عارضة ، فلاي شيء أدع ما يرضى الله وأتي ما يسخطه ؟ فحينئذ قصر أصحابه عن لومه .

ولما عزم أمر صاحب بطليوس المتوكل عمر بن محمد وعبد الله بن حبوس الصنهاجي صاحب غرناطة أن يبعث اليه كل منهما قاضي حضرته ، ففعلا ، واستحضر قاضي الجماعة بقرطبة أبا بكر عبيد الله بن أدهم ، وكان أعقل أهل زمانه ، فلما اجتمع عنده القضاة باشبيلية أضاف اليهم وزيره أبا بكر ابن زيدون ، وعرفهم أربعتهم أنهم رسله الى يوسف بن تاشفين ، وأسند الى القضاة ما يليق بهم من وعظ يوسف بن تاشفين وترغيبه في الجهاد ، وأسند الى وزيره ما لا بد منه في تلك السفارة من ابرام العقود السلطانية ، وكان يوسف بن تاشفين لا تزال تفد عليه وفود ثغور الاندلس مستعطفين ، مجهشين بالبكاء ، ناشدين الله والاسلام ، مستنجدين بفقهاء حضرته ووزراء دولته ، فيسمع اليهم ، ويصغى لقولهم ، وترق نفسه لهم .

فما عبرت رسل ابن عباد البحر الا ورسل يوسف بالمرصاد ، ولما انتهت الرسل الى ابن تاشفين أقبل عليهم ، وأكرم مثواهم ، واتصل ذلك بابن عباد ، فوجه من اشبيلية أسطولا نحو صاحب سبتة ، فانتظمت في سلك يوسف ، ثم جرت بينه وبين الرسل مراوضات ، ثم انصرفت الى مرسلها ، ثم عبر يوسف البحر عبورا سهلا ، حتى أتى الجزيرة الخضراء ، ففتحوا له ، وخرج اليه أهلها بما عندهم من الأقوات والضيافات ، وأقاموا له سوقا جلبوا اليه ما عندهم من سائر

المرافق ، وأذنوا للغزاة في دخول البلد والتصرف فيه ، فامتألت المساجد والرحبات بالمطوعين ، وتواصوا بهم خيرا ، هذا مساق صاحب «الروض المعطار» .

وأما ابن الأثير فإنه لما ذكر وقعة الزلاقة ذكر ما تقدم من فعل المعتمد بالارسال وقتلهم ، وتخوف أكابر الاندلس من الأذفونش ، وأنه اجتمع منهم رؤساء ، وساروا الى القاضي عبيد الله بن محمد [بن أدهم] وقالوا له : ألا تنظر الى ما فيه المسلمون من الصغار والذلة واعطائهم الجزية ، بعد أن كانوا يأخذونها ، وقالوا : قد غلب على البلاد الفرنج ، ولم يبق الا القليل ، وإن طال هذا الأمر عادت نصرانية كما كانت أولا ، وقد رأينا رأياً نعرضه عليك ، قال : وما هو ؟ قالوا : نكتب الى عرب افريقية ، ونبذل لهم اذا وصلوا اليها شطر أموالنا ، ونخرج معهم مجاهدين في سبيل الله ، فقال لهم : انا نخشى ان وصلوا اليها أن يخربوا بلادنا كما فعلوا بافريقية ، ويتركوا الانرج ويبدأوا بنا ، والمرابطون أصلح منهم ، وأقرب اليها ، فقالوا له : فكاتب أمير المسلمين ، واسأله العبور اليها أو اعانتنا بما تيسر من الجند ، فبينما هم في ذلك يتراضون اذ قدم عليهم المعتمد ابن عباد قرطبة ، فعرض عليه القاضي ابن أدهم ما كانوا فيه ، فقال له ابن عباد : أنت رسول الله في ذلك ، فامتنع ، وانما أراد أن يبريء نفسه من ذلك ، فألح عليه المعتمد فسار الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، فوجده بسببة ، وأبلغه الرسالة وأعلمه بما فيه المسلمون من الخوف من الأذفونش ، ففي الحال أمر بعبور العساكر الى الاندلس ، وأرسل الى مراکش في طلب من بقى من العساكر ، فأقبلت اليه يتلو بعضها بعضاً ، فلما تكاملت عنده عبر البحر ، واجتمع بالمعتمد ابن عباد باشبيلية ، وكان المعتمد قد جمع عساكره أيضاً ، وخرج من أهل قرطبة عسكر كثير ، وقصده المطوعة من سائر بلاد الاندلس ، ووصلت الأخبار الى الأذفونش فجمع عساكره ، وحشد جنوده ، وسار من طليطلة ، وكتب الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كتاباً كتبه له بعض غواة أدباء المسلمين يغلظ له في القول ، ويصف ما معه من القوة والعدد والعدد ، وبألف في ذلك ، فلما وصله وقرأه يوسف أمر كاتبه أبا بكر ابن القصيرة أن يجيبه ، وكان كاتباً مقلداً ، فكتب وأجاد ، فلما قرأه على أمير المسلمين قال : هذا كتاب طويل ، أحضر كتاب الأذفونش وكتب في ظهره : «الذي يكون ستره» وأرسله اليه ، فلما وقف عليه الأذفونش ارتاع له ، وعلم أنه بلى برجل لا طاقة له به .

وذكر ابن خلكان أن يوسف بن تاشفين أمر بعبور الجمال فعبور منها ما أغص الجزيرة ، وارتفع رغاؤها الى عنان السماء ، ولم يكن أهل الجزيرة رأوا جملا قط ولا خيلهم ، فصارت الخيل تجمع من رؤية الجمال ومن رغاؤها ، وكان ليوسف في عبور الجمال رأي مصيب ، فكان يحدق بها عسكره ، ويحضرها للحرب ، فكانت خيل الفرنج تجمع منها ، وقدم يوسف بين يديه كتاباً للأذفونش يعرض عليه فيه

الدخول في الاسلام أو الجزية أو الحرب ، كما هي السنة ، ومن جملة ما في الكتاب : بلغنا يا أذفونش أنك دعوت الى الاجتماع بنا ، وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر بها البحر إلينا ، فقد عبرنا اليك ، وقد جمع الله تعالى في هذه الساحة بيننا وبينك ، وسترى عاقبة دعائك «وما دعاء الكافرين الا في ضلال» (غافر : ٥٠) انتهى بمعناه ، وأكثره بلفظه .

ولنرجع الى كلام صاحب «الروض المعطار» فانه أقعد بتاريخ الاندلس ، اذ هو منهم ، وصاحب البيت أدري بالذى فيه ، قال رحمه الله تعالى : فلما عبر يوسف وجميع جيوشه الى الجزيرة الخضراء انزعج الى اشبيلية على أحسن الهيئات ، جيشاً بعد جيش ، وأميراً بعد أمير ، وقبيلاً بعد قبيل ، وبعث المعتمد ابنه الى لقاء يوسف ، وأمر عمال البلاد بجلب الأقوات والضيافات ، ورأى يوسف من ذلك ما سره ونشطه ، وتواردت الجيوش مع أمرائها على اشبيلية ، وخرج المعتمد الى لقاء يوسف من اشبيلية في مائة فارس ووجوه أصحابه ، فلما أتى محلة يوسف ركض نحو القوم ، وركضوا نحوه ، فبرز اليه يوسف وحده ، والتقى منفردين ، وتصافحا وتعانقا ، وأظهر كل منهما لصاحبه المودة والخلوص ، وشكروا نعم الله تعالى ، وتواصيا بالصبر والرحمة ، وبشرا أنفسهما بما استقبلاه من غزو أهل الكفر ، وتضرعا الى الله تعالى في أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه ، مقرباً اليه ، وافترقا ، فعاد يوسف لمحلته ، وابن عباد الى جهته ، وألحق ابن عباد ما كان أعده من هدايا وتحف وضيافات أوسع بها على محلة يوسف بن تاشفين ، وباتوا تلك الليلة ، فلما أصبحوا وصلوا الصبح ركب الجميع ، وأشار ابن عباد على يوسف بالتقدم نحو اشبيلية ، ففعل ، ورأى الناس من عزة سادانه ما سرهم ، ولم يبق من ملوك الطوائف بالاندلس الا من بادر أو أعان وخرج أو أخرج ، وكذلك فعل الصحراويون مع يوسف ، كل صقع من أصقاعه رابطوا وصابروا . وكان الأذفونش لما تحقق الحركة والحرب استنفر جميع أهل بلاده وما يليها وما وراءها ورفع القسيسون والرهبان والأساقفة صلبانهم ، ونشروا أناجيلهم ، فاجتمع له من الجلالة والافرجة ما لا يحصى عدده ، وجواسيس كل فريق تتردد بين الجميع ، وبعث الأذفونش الى ابن عباد : ان صاحبكم يوسف قد تعنى من بلاده ، وخاض البحور ، وأنا أكفيه العناء فيما بقى ، ولا أكلفكم تعباً ، أمضى اليكم وألقاكم في بلادكم رفقا بكم وتوفيرا عليكم ، وقال لخاصته وأهل مشورته : اني رأيت أنني ان مكنتهم من الدخول الى بلادى ، فناجزوني فيها وبين جدرها ، وربما كانت الدائرة علي ، يستحكمون البلاد ، ويحصدون من فيها غداة واحدة ، ولكني أجعل يومهم معي في حوز بلادهم ، فان كانت علي اكتفوا بما نالوه ، ولم يجعلوا الدروب وراءهم الا بعد أهبة أخرى فيكون في ذلك صون لبلادى ، وجبر لكاسري ، وان كانت الدائرة عليهم كان مني فيهم وفي بلادهم ما خفت أنا أن

يكون في وفي بلادى اذا ناجزوني في وسطها ، ثم برز بالمختار من جنوده ، وانجاد جموعه على باب دريه ، وترك بقية جموعه خلفه ، وقال حين نظر الى ما اختاره منهم : بهؤلاء أقاتل الجن والانس وملائكة السماء ، فالمقلل يقول : المختارون أربعون ألف دارع ، ولكل واحد أتباع ، وأما النصارى فيعجبون ممن يزعم ذلك ، ويرون أنهم أكثر من ذلك كله . واتفق الكل أن عدد المسلمين أقل من الكفرة ، ورأى الأذفونش في نومه كأنه راكب فيل يضرب نقيرة طبل ، فهالته الرؤيا ، وسأل عنها القسوس والرهبان فلم يجبه أحد ، فدرس يهوديا عن يعلم تأويلها من المسلمين ، فدل على معبر ، فقصها عليه ، ونسبها لنفسه ، فقال له المعبر ، كذبت ، ما هذه الرؤيا لك ، ولا أعبرها لك الا ان صدقتنى بصاحب الرؤيا ، فقال له : اكتم علي ، الرؤيا للأذفونش ، فقال المعبر : صدقت ولا يراها غيره ، والرؤيا تدل على بلاء عظيم ، ومصيبة فادحة فيه وفي عسكره ، وتفسيرها قوله تعالى «ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل» (الفيل : ١) وأما ضربه النقيرة فتأويلها «فاذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير» (المدثر : ٨ ، ٩) . فانصرف اليهودي وذكر للأذفونش ما وافق خاطره .

ثم خرج الأذفونش ووقف على الدروب ، ومال بجيوشه الى الجهة الغربية من بلاد الاندلس ، وتقدم السلطان يوسف فقصدته ، وتأخر ابن عباد لبعض مهماته ، ثم انزعج يقفو أثره بجيش فيه حماة الثغور ، ورؤساء الاندلس ، وجعل ابنه عبد الله على مقدمته ، وسار وهو ينشد لنفسه متفائلا مكمل البيت المشهور :

لا بد من فرج قريب	يأتيك بالعجب العجيب
غزو عليك مبارك	سيعود بالفتح القريب
لله سعدك أنه	نكس على دين الصليب
لا بد من يوم يكو	ن له أخا يوم القليب

ووافت الجيوش كلها بطليوس ، فأناخوا بظاهرها ، وخرج اليهم صاحبها المتوكل عمر بن محمد بن الأفطس ، فلقبهم بما يجب من الضيافات والأقوات وبذل المجهود ، وجاءهم الخبر بشخوص الأذفونش ، ولما ازدلف بعضهم الى بعض أذكى المعتمد عيونه في محلات الصحراويين خوفاً عليهم من مكاييد الأذفونش ، اذ هم غرباء لا علم لهم بالبلاد ، وجعل يتولى ذلك بنفسه ، حتى قيل : ان الرجل من الصحراويين لا يخرج على طرف المحلة لقضاء أمر أو حاجة الا ويجد ابن عباد بنفسه مطيافاً بالمحلة ، بعد ترتيب الخيل والرجال على أبواب المحلات ، وقد تقدم كتاب السلطان يوسف الى الأذفونش يدعوه الى احدى الثلاث المأمور بها شرعا ، فامتأ الكافر غيظا ، وعتا وطغى ، وراجع بما يدل على شقائه ، وقامت الأساقفة والرهبان فرفعوا صلبانهم ، ونشروا أناجيلهم وتبايعوا على

الموت ، ووعظ يوسف وابن عباد أصحابهما ، وقام الفقهاء والصالحون مقام الوعظ ، وحضوهم على الصبر والثبات ، وحذروهم من الفشل والفرار ، وجاءت الطلائع تخبر أن العدو مشرف عليهم صبيحة يومهم ، وهو يوم الأربعاء ، فأصبح المسلمون وقد أخذوا مصافهم ، فكع الأذفونش ، ورجع الى اعمال المكر والخديعة ، فعاد الناس الى محلاتهم ، وباتوا ليلتهم ، ثم أصبح يوم الخميس فبعث الأذفونش الى ابن عباد يقول : غدا يوم الجمعة ، وهو عيدكم ، والأحد عيدنا ، فليكن لقاءنا بينهما ، وهو يوم السبت ، فعرف المعتمد بذلك السلطان يوسف ، وأعلمه أنها حيلة منه وخديعة ، وانما قصده الفتك بنا يوم الجمعة ، فليكن الناس على استعداد له يوم الجمعة كل النهار ، وبات الناس ليلتهم على أهبة واحتراس . وبعد مضي جزء من الليل انتبه الفقيه الناسك أبو العباس أحمد ابن رميلة القرطبي - وكان في محلة ابن عباد - فرداً مسروراً يقول : انه رأى النبي صلى الله عليه وسلم ، تلك الليلة في النوم فبشره بالفتح والموت على الشهادة في صبيحة تلك الليلة ، فتأهب ودعا وتضرع ودهن رأسه وتطيب ، وانتهى ذلك الى ابن عباد ، فبعث الى يوسف يخبره بها تحقيقاً لما توقعه من غدر الكافر بالله تعالى .

ثم جاء بالليل فارسان من طلائع المعتمد يخبران أنهما أشرفا على محلة الأذفونش وسمعا ضوضاء الجيوش واضطراب الأسلحة ، ثم تلاحق بقية الطلائع متحققين بتحريك الأذفونش ، ثم جاءت الجواسيس من داخل محلتهم تقول : استرقنا السمع فسمعنا الأذفونش يقول لأصحابه : ابن عباد مسعر هذه الحروب ، وهؤلاء الصحراويون وان كانوا أهل حفاظ وذوي بصائر في الحروب فهم غير عارفين بهذه البلاد ، وانما قادهم ابن عباد ، فاقصدوه واهجموا عليه ، واصبروا فان انكشف لكم هان عليكم الصحراويون بعده ، ولا أرى ابن عباد يصبر لكم ان صدقتموه الحملة ، فعند ذلك بعث ابن عباد الكاتب أبا بكر ابن القصيرة الى السلطان يوسف يعرفه باقبال الأذفونش ، ويستحث نصرته ، فمضى ابن القصيرة يطوى المحلات حتى جاء يوسف بن تاشفين ، فعرفه بجلية الأمر ، فقال له : قل له اني سأقرب منه ان شاء الله تعالى ، وأمر يوسف بعض قواده أن يمضى بكتيبة رسمها له حتى يدخل محلة النصارى فيضرمها ناراً ما دام الأذفونش مشغولاً مع ابن عباد .

وانصرف ابن القصيرة الى المعتمد ، فلم يصله الا وقد غشيته جنود الطاغية ، فصدم ابن عباد صدمة قطعت آماله ، ومال الأذفونش عليه بجموعه ، وأحاطوا به من كل جهة ، فهاجت الحرب ، وحمى الوطيس ، واستحرق القتل في أصحاب ابن عباد ، وصبر ابن عباد صبراً لم يعهد مثله لأحد ، واستبطن السلطان يوسف وهو يلاحظ طريقه ، وعضته الحرب ، واشتد عليه وعلى من معه البلاء ، وأبطأ عليه الصحراويون وساءت الظنون ، وانكشف بعض أصحاب ابن عباد وفيهم

ابنه عبد الله ، وأثخن ابن عباد جراحات ، وضرب على رأسه ضربة فلقت هامته حتى وصلت الى صدغه وجرحته اليمنى يديه ، وطعن في أحد جانبيه ، وعقرت تحته ثلاثة أفراس كلما هلك واحد قدم له آخر ، وهو يقاسى حياض الموت ، ويضرب يمينا وشمالا ، وتذكر في تلك الحالة ابداً له صغيراً كان مغرماً به تركه في اشبيلية عليلاً ، وكنيته أبو هاشم ، فقال :

أبا هاشم هشمتني الشفار فله صبري لذاك الأوار
ذكرت شخصيك تحت العجاج فلم يثنني ذكره للفرار

ثم كان أول من وافى ابن عباد من قواد ابن تاشفين داود بن عائشة ، وكان بطلاً شجاعاً شهماً ، فنفس بمجيئه عن ابن عباد ، ثم أقبل يوسف بعد ذلك ، وطبوله تصعد أصواتها الى الجو ، فلما أبصره الأذفونش وجه حملته اليه ، وقصده بمعظم جنوده ، فبادر اليهم السلطان يوسف ، وصدمهم بجمعه ، فردهم الى مركزهم ، وانتظم به شمل ابن عباد ، واستنشق ريح الظفر ، وتباشر بالنصر ، ثم صدقوا جميعاً الحملة ، فتزلزلت الأرض بحوافر خيولهم ، وأظلم النهار بالعجاج والغبار ، وخاضت الخيل في الدماء ، وصبر الفريقان صبراً عظيماً ، ثم تراجع ابن عباد الى يوسف ، وحمل معه حملة جاء معها النصر ، وتراجع المنهزمون من أصحاب ابن عباد حين علموا بالتحام الفئتين ، وصدقوا الحملة ، فأنكشف الطاغية ، ومر هارباً منهزماً وقد طعن في إحدى ركبتيه طعنة بقي يخضع بها بقية عمره .

وعلى سياق ابن خلكان أن ابن تاشفين نزل على أقل من فرسخ من عسكر العدو في يوم الأربعاء ، وكان الموعد في المناجزة في يوم السبت ، فغدر الأذفونش ومكر ، فلما كان سحر يوم الجمعة منتصف رجب أقبلت طلائع ابن عباد ، والروم في أثرها ، والناس على طمأنينة ، فبادر ابن عباد للركوب ، وبث الخبر في العساكر فماجت بأهلها ، ووقع البهت ، ورجفت الأرض ، وصار الناس فوضى على غير تعبئة ولا أهبة ، ودهمتهم خيل العدو ، فأحاطت بابن عباد ، وحطمت ما تعرض لها ، وتركت الأرض حصيداً خلفها ، وجرح ابن عباد جرحاً أشواء ، وفر رؤساء الاندلس وتركوا محلاتهم وأسلموها ، وظنوا أنه وهى لا يرقع ، ونازلة لا تدفع ، وظن الأذفونش أن السلطان يوسف في المنهزمين ولم يعلم أن العاقبة للمتقين ، فركب أمير المسلمين ، وأحدق به أنجاد خيله ورجله من صنهاجة رؤساء القبائل . وقصدوا محلة الأذفونش فاقترحوها ودخلوها ، وقتلوا فيها ، وضربت الطبول ، وزعقت البوقات ، فاهتزت الأرض ، وتجاوبت الجبال والآفاق ، وتراجع الروم الى محلاتهم بعد أن علموا أن أمير المسلمين فيها ، فصدموا أمير المسلمين ، فأخرج لهم عنها ، ثم كر عليهم فأخرجهم منها ، ثم كروا عليه فخرج لهم عنها ،

ولم تزل الكرات بينهم تتوالى الى أن أمر أمير المسلمين حشمة السودان فترجل منهم زهاء أربعة آلاف ، ودخلوا المعترك بدرق اللط وسيوف الهند ومزاريق الران ، فطعنوا الخيل فرمحت بفرسانها ، وأجحمت عن أقرانها ، وتلاحق الأذفونش بأسود نفدت مزاريقه ، فأهوى ليضربه بالسيف ، فلصق به الأسود ، وقبض على عنانه ، وانتضى خنجرًا كان متمنطقًا به ، فأثبتته في فخذه ، فهتك حلق درعه ، ونفذ من فخذه مع بداد سرجه ، وكان وقت الزوال ، وهبت ريح النصر ، فأنزل الله سكينته على المسلمين ، ونصر دينه القويم ، وصدقوا الحملة على الأذفونش وأصحابه ، فأخرجوهم عن محلتهم ، فولوا ظهورهم وأعطوا أعناقهم ، والسيوف تصفعهم والرماح تطعنهم ، الى أن لحقوا ربوة لجأوا اليها واعتصموا بها ، وأحدقت بهم الخيل ، فلما أظلم الليل انساب الأذفونش وأصحابه من الربوة ، واقلتوا بعدما تشبثت بهم أظفار المنية ، واستولى المسلمون على ما كان في محلتهم من الآلات والسهل والمضارب والأواني وغير ذلك ، وأمر ابن عباد بضم رؤوس قتلى المشركين ، فاجتمع من ذلك تل عظيم ؛ انتهى ، وبعضه بالمعنى .

رجع الى كلام صاحب «الروض المعطار» قال :

ولجأ الأذفونش الى تل كان يلي محلته في نحو خمسمائة فارس كل واحد منهم مكلول ، وأباد القتل والأسر من عداهم من أصحابهم ، وعمل المسلمون من رؤوسهم مآذن يؤذنون عليها ، والمخدول ينظر الى موضع الوقعة ومكان الهزيمة فلا يرى الا نكالا محيطا به وبأصحابه ، وأقبل ابن عباد على السلطان يوسف وصافحه وهناه وشكره وأثنى عليه ، وشكر يوسف صبر ابن عباد ومقامه وحسن بلائه وجميل صبره ، وسأله عن حاله عندما أسلمته رجاله بانهمزاهم عنه ، فقال له : هم هؤلاء قد حضروا بين يديك فليخبروك .

وكتب ابن عباد الى ابنه باشبيلية كتابا مضمونه : كتابى هذا من المحلة المنصورة يوم الجمعة الموافق عشرين من رجب ، وقد أعز الله الدين ، ونصر المسلمين ، وفتح لهم الفتح المبين ، وهزم الكفرة والمشركين ، وأذاقهم العذاب الأليم ، والخطب الجسيم ، فالحمد لله على ما يسره وسناه من هذه المسرة العظيمة ، والنعمة الجسيمة ، في تشييت شمل الأذفونش والاحتواء على جميع عساكره ، أصلاه الله نكال الجحيم ، ولا أعدمه الوبال العظيم المليم ، بعد اتيان النهب على محلاته ، واستئصال القتل في جميع أبطاله وحماته ، حتى اتخذ المسلمون من هاماتهم صوامع يؤذنون عليها ، فله الحمد على جميل صنعه ، ولم يصبني والحمد لله الا جراحات يسيرة آلت لكنها فرجت بعد ذلك ، فله الحمد والمنة ، والسلام .

واستشهد في ذلك اليوم جماعة من الفضلاء والعلماء وأعيان الناس ، مثل ابن رميلة صاحب الرؤيا المذكورة ، وقاضى مراکش أبي مروان عبد الملك المصمودي ، وغيرهما ، رحمهم الله تعالى .

وحكي أن موضع المعترك كان على اتساعه ما كان فيه موضع قدم ، الا على ميت أو دم ، وأقامت العساكر بالموضع أربعة أيام ، حتى جمعت الغنائم ، واستؤذن في ذلك السلطان يوسف ، فعف عنها ، وأثر بها ملوك الاندلس ، وعرفهم أن مقصده الجهاد والأجر العظيم ، وما عند الله في ذلك من الثواب المقيم ، فلما رأَت ملوك الاندلس ايثار يوسف لهم بالغنائم استكرموه ، وأحبوه وشكروا له ذلك .

ولما بلغ الأذفونش الى بلاده وسأل عن أبطاله وشجعانه وأصحابه ففقدهم ولم يسمع الا نواح الثكلى عليهم ، اهتم ولم يأكل ولم يشرب حتى هلك غمًا وهماً ، وراح الى أمه الهاوية ، ولم يخلف الا بنتا واحدة جعل الأمر اليها ، فتحصنت **بطليطة** .

ورحل المعتمد الى اشبيلية ومعه الساطان يوسف بن تاشفين ، فأقام السلطان يوسف بن تاشفين بظاهر اشبيلية ثلاثة أيام ، ووردت عليه من المغرب أخبار تقتضى العزم فسافر وذهب معه ابن عباد يوما وليلة ، فحلف ابن تاشفين وعزم عليه في الرجوع ، وكانت جراحاته تورمت عليه ، فسير معه ولده عبد الله الى أن وصل البحر ، وعبر الى المغرب .

ولما رجع ابن عباد الى اشبيلية جلس للناس ، وهنيء بالفتح ، وقرأت القراء ، وقام على رأسه الشعراء ، فأنشده ، قال عبد الجليل بن وهبون : حضرت ذلك اليوم ، وأعددت قصيدة أنشدها بين يديه ، فقرأ القارئ «الا تنصروه فقد نصره الله» (التوبة : ٤٠) فقلت : بعداً لي ولشعري ، والله ما أبقت لي هذه الآية معنى أحضره وأقوم به .

ولما عزم السلطان يوسف بن تاشفين الى بلاده ترك الأمير سير بن أبي بكر أحد قواده المشاهير ، وترك معه جيشا برسم غزو الفرنج ، فاستراح الأمير المذكور أياما قلائل ، ودخل بلاد الأذفونش ، وأطلق الغارة ونهب وسبى ، وفتح الحصون المنيعية والمعازل الصعبة العويصة ، وتوغل في البلاد ، وحصل أموالا ونخائر عظيمة ، ورتب رجالا وفرسانا في جميع ما أخذه ، وأرسل للسلطان يوسف جميع ما حصله ، وكتب له يعرفه أن الجيوش بالثغور مقيمة على مكابدة العدو وملازمة الحرب والقتال في أضيق العيش وأنكده ، وملوك الاندلس في بلادهم وأهليهم في أرغد العيش وأطيبه ، وسأله مرسومه ، فكتب اليه أن يأمرهم بالنقلة والرحيل

الى أرض العدو ، فمن فعل فذاك ، ومن أبى فحاصره وقاتله ، ولا تنفس عليه ، ولتبدأ بمن والى الثغور ، ولا تتعرض للمعتمد بن عباد ، الا بعد استيلائك على البلاد ، وكل بلد أخذته فول فيه أميرا من عساكرك ، فأول من ابتدأ به من ملوك الاندلس بنو هود ، وكانوا بروطة - بضم الراء المهملة ، وبعدها واو ساكنة ، وطاء مهملة مفتوحة ، وبعدها هاء ساكنة ، وهى قلعة منيعة من عاصمات الذرا ، وماؤها ينبع من أعلاها ، وفيها من الأقوات والذخائر المختلفات ما لا تقضيه الأزمان - فحاصرها فلم يقدر عليها ، ورحل عنها ، وجند أجنادا على هيئة الفرنج وزيهم ، وأمرهم أن يقصدوها ويغيروا عليها ، وكمن هو وأصحابه يقرب منها ، فلما رآهم أهل القلعة استضعفهم ، فنزلوا اليهم ، ومعهم صاحب القلعة ، فخرج عليه سير المذكور ، وقبضه باليد ، وتسلم الحصن . ثم نازل بني طاهر بشرق الاندلس ، فأسلموا له البلاد ، ولحقوا ببر العدو . ثم نازل بني صمادح بالمرية ، ولها قلعة حصينة ، فحاصروهم وضيق بهم ، ولما علم ابن صمادح الغلب أسف ومات غبذاً ، فأخذ القلعة واستولى على المرية وجميع أعمالها ، ثم قصد بطليوس ، وكان بها المتوكل عمر بن محمد بن الأفتس المتقدم ذكره ، فحاصره وأخذه واستولى على جميع أعماله وماله ، ولم يبق له الا المعتمد بن عباد ، فكتب للسلطان يوسف يعرفه بما فعل ، ويسأله مرسومه في ابن عباد ، فكتب اليه يأمره أنه يعرض عليه النقلة لبر العدو بجميع الأهل والعشيرة ، فان رضي ، والا فحاصره وخذه وأرسل به كسائر أصحابه ، فواجهه وعرفه بما رسم به السلطان يوسف ، وسأله الجواب ، فلم يجب بنفي ولا اثبات ، ثم انه نازل اشبيلية وحاصره بها وألح عليه فأقام الحصار شهراً ، ودخل البلد قهراً ، واستخرجه من قصره ، فحمل وجميع أهله وولده الى العدو فأنزل بأغمات ، وأقام بها الى أن مات ، رحمه الله تعالى وعفا عنه .

● [عبد المؤمن بن علي]

ولما كانت سنة ٥٤٥ سار الأذفونش صاحب **طليطلة** وبلاد الجلالة الى قرطبة ومعه أربعون ألف فارس فحاصرها ، وكان أهلها في غلاء شديد ، فبلغ الخبر عبد المؤمن ، فجهز اليهم جيشا يحتوي على اثني عشر ألف فارس ، فلما أشفروا على الأذفونش رحل عنها ، وكان فيها القائد أبو الغمر السائب ، فسلمها الى صاحب جيش عبد المؤمن يحيى بن ميمون فبات فيها ، فلما أصبح رأى الفرنج عادوا الى مكانهم ، ونزلوا في المكان الذى كانوا فيه ، فلما عاين ذلك رتب هنالك ناساً ، وعاد الى عبد المؤمن ، ثم رحل الفرنج الى ديارهم .

وفي السنة بعدها دخل جيش عبد المؤمن الى الاندلس في عشرين ألفاً عليهم الهنتاتي ، فصار اليه صاحب غرناطة ميمون وابن همشك وغيرهما ، فدخلوا

تحت طاعة الموحدين ، وحرصوا على قصد ابن مردنيش ملك شرق الاندلس ، وبلغ ذلك ابن مردنيش ، فخاف وأرسل الى صاحب برشلونة من الافرنج يستجده ، فتجهز اليه في عشرة آلاف من الافرنج عليهم فارس ، وسار صاحب جيش عبد المؤمن الى أن قارب ابن مردنيش ، فبلغه أمر البرشلوني الافرنجي فرجع ، ونازل مدينة المرية وهي بأيدي الروم فحاصرها ، فاشتد الغلاء في عسكره فرجع الى اشبيلية فأقام فيها ، وسار عبد المؤمن الى سبتة فجهز الأساطيل وجمع العساكر . ثم سار عبد المؤمن سنة ٥٤٧ الى المهدي فملكها ، وملك افريقية ، وضخم ملكه كما قدمناه .

[يوسف بن عبد المؤمن]

ولما مات بويغ بعده ولده يوسف بن عبد المؤمن ، ولما تمهدت له الأمور ، واستقرت قواعده ملكه ، دخل الى جزيرة الاندلس لكشف مصالح دولته وتفقده أحوالها ، وكان ذلك سنة ست وستين وخمسائة ، وفي صحبته مائة ألف فارس من الموحدين والعرب ، فنزل بحضرة اشبيلية ، وخافه ملك شرق الاندلس - مرسية وما انضاف اليها - الأمير الشهير أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش ، وحمل على قلب ابن مردنيش ، فمرض مرضاً شديداً ومات ، وقيل : انه سم ، ولما مات جاء أولاده وأهله الى أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن وهو باشبيلية ، فدخلوا تحت حكمه وسلموا لأحكامه البلاد ، فصاهرهم وأحسن اليهم وأصبحوا عنده في أعز مكان ، ثم شرع في استرجاع البلاد التي استولى عليها الافرنج ، فاتسعت مملكته بالاندلس ، وصارت سراياه تغير الى باب **طليطلة** ، وقيل : انه حاصرها ، فاجتمع الفرنج كافة عليه ، واشتد الغلاء في عسكره ، فرجع عنها الى مراكش حضرة ملكه ، ثم ذهب الى افريقية فمهدها ، ثم رجع الى حضرة مراكش ، ثم جاز البحر الى الاندلس سنة ثمانين وخمسائة ومعه جمع كثيف ، وقصد غربي بلادها ، فحاصر مدينة شنترين ، وهي من أعظم بلاد العدو ، وبقي محاصراً لها شهراً ، فأصابه المرض فمات في السنة المذكورة ، وحمل في تابوت الى اشبيلية ، وقيل : أصابه سهم من قبل الافرنج ، والله سبحانه وتعالى أعلم بحقيقة الحال .

[يعقوب المنصور]

ولما مات يوسف قام بالأمر بعده ابنه الشهير أمير المؤمنين يعقوب المنصور ابن يوسف بن عبد المؤمن ، فقام بالأمر أحسن قيام ، ولما مات يوسف المذكور رثاه أديب الاندلس أبو بكر يحيى بن مجبر بقصيدة طويلة أجاد فيها ، وأولها :

جل الأسى فأسل دم الأجفان ماء الشؤن لغير هذا الشان

ويعقوب المنصور هو الذى أظهر أبهة ملك الموحدين ، ورفع راية الجهاد ، ونصب ميزان العدل ، وبسط الأحكام الشرعية ، وأظهر الدين وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وأقام الحدود على القريب والبعيد ، وله فى ذلك أخبار ، وفيه يقول الأديب أبو اسحاق ابراهيم بن يعقوب الكانمي الأسود الشاعر المشهور :

أزال حجابيه عني وعيني تراه من المهابة فى حجاب
وقربني تفضله ولكن بعدت مهابة عند اقترابي

وكثرت الفتوحات فى أيامه ، وأول ما نظر فيه عند صيرورة الأمر اليه بلاد الأندلس ، فنظر فى شأنها ورتب مصالحها ، وقرر المقاتلين فى مراكزهم ، ورجع الى كرسي مملكته مراکش المحروسة . وفى سنة ٥٨٦ بلغه أن الافرنج ملكوا مدينة شلب وهى من غرب الاندلس ، فتوجه اليها بنفسه وحاصرها وأخذها ، وأنفذ فى الوقت جيشا من الموحدين والعرب ، ففتح أربع مدن مما بأيدي الافرنج من البلاد التى كانوا أخذوها من المسلمين قبل ذلك بأربعين سنة ، وخافه صاحب طليطلة ، وسأله الهدنة والصلح ، فهادنه خمس سنين ، وعاد الى مراکش.

● رجع الى أخبار المنصور بعد هدنة الافرنج :

ولما انقضت مدة الهدنة ، ولم يبق منها الا القليل ، خرج طائفة من الافرنج فى جيش كثيف الى بلاد المسلمين فنهبوا وسعوا وعاثوا عيثاً فظيماً ، فانتهى الخبر اليه ، فتجهز لقصدهم فى جيوش موفرة وعساكر مكتبة ، واحتفل فى ذلك ، وجاز الى الاندلس سنة ٥٩١ ، فعلم به الافرنج ، فجمعوا جمعا كثيرا من أقاصي بلادهم وأدانيها ، وأقبلوا نحوه ، وقيل : انه لما أراد الجواز من مدينة سلا مرض مرضا شديدا ، ويئس منه أطباؤه ، فعاث الأذفونش فى بلاد المسلمين بالاندلس ، وانتهاز الفرصة ، وتفرقت جيوش المسلمين بسبب مرض السلطان ، فأرسل الأذفونش يتهدد ويتوعد ويرعد ويبرق ، ويطلب بعض الحصون المتاخمة له من بلاد الاندلس ، وخلاصة الأمر أن المنصور توجه بعد ذلك الى لقاء النصارى ، وتزاحف الفريقان ، فكان المصاف شمالى قرطبة على قرب قلعة رباح فى يوم الخميس تاسع شعبان سنة ٥٩١ ، فكانت بينهم وقعة عظيمة استشهد فيها جمع كبير من المسلمين .

وحكى أن يعقوب المنصور جعل مكانه تحت الأعلام السلطانية الشيخ أبا يحيى ابن أبي حفص عم السلطان أبي زكريا الحفصي الذى ملك بعد ذلك افريقية ، وخطب له ببعض الاندلس ، فقصد الافرنج الأعلام ظلما أن السلطان تحتها ،

فأثروا في المسلمين أثرا قبيحا ، فلم يرعهم الا والسلطان يعقوب قد أشرف عليهم بعد كسر شوكتهم ، فهزمهم شر هزيمة ، وهرب الأذفونش في طائفة يسيرة ، وهذه وقعة الأرك الشهيرة الذكر .

وحكي أن الذي حصل لببيت المال من دروع الافرنج ستون ألفاً ، وأما الدواب على اختلاف أنواعها فلم يحصر لها عدد ، ولم يسمع بعد وقعة الزلاقة بمثل وقعة الأرك هذه ، وربما صرح بعض المؤرخين بأنها أعظم من وقعة الزلاقة .

وقيل : ان فل الافرنج هربوا الى قلعة رباح فتحصنوا بها ، فحاصرها السلطان يعقوب حتى أخذها ، وكادت قبل للمسلمين ، فأخذها العدو ، فردت في هذه المرة ، ثم حاصر طليطلة وقاتلها أشد قتال وقطع أشجارها وشن الغارات على أرجائها ، وأخذ من أعمالها حصونا وقتل رجالها وسبى حريمها وخرب منازلها وهدم أسوارها وترك الافرنج في أسوأ حال ، ولم يبرز اليه أحد من المقاتلة ، ثم رجع الى اشبيلية ، وأقام الى سنة ٥٩٣ ، فعاد الى بلاد الفرنج ، وفعل فيها الأفاعيل ، فلم يقدر العدو على لقائه ، وضاعت على الافرنج الأرض بما رحبت ، فطلبوا الصلح فأجابهم اليه ، لما بلغه من ثورة الميرقي عليه بافريقية مع قراقوش مملوك بني أيوب سلاطين مصر والشام .

ثم توفي السلطان يعقوب سنة ٥٩٥ . وما يقال «انه ساح في الأرض وتخلي عن الملك ووصل الى الشام ، ودفن بالبقيع» لا أصل له ، وان حكى ابن خلكان بعضه . وممن صرح ببطلان هذا القول الشريف الغرناطي في شرح مقصورة حازم ، وقال : ان ذلك من هذيان العامة ، لولوعهم بالسلطان المذكور .

● أوليتي : يعرف بيتنا في القديم بوزير ، ثم حديثا بلوشة ببني الخطيب ، انتقلوا مع أعلام الجالية القرطبية كيحيى بن يحيى الليثي وأمثاله عند وقعة الربض الشهيرة ، الى طليطلة ، ثم تسربوا محومين على وطنهم قبل استيلاء الطاغية عليه ، فاستقر منهم بالموسطة الاندلسية جملة من النبهاء تضمن منهم ذكر خلق ، كعبد الرحمن قاضى كورة باغه ، وسعيد المستوطن بلوشة الخطيب بها ، المقرون اسمه بالتسويد عند أهلها ، جاريا مجرى التسمية بالمركب في تاريخ الغافقي وغيره ، وسكن عقبهم بها ، وسكن بعضهم منتقري مملكين اياها مخطتين جبل التحصن والمنعة فنسبوا اليها . (لسان الدين بن الخطيب)

● قال ابن القرصي : ولما انصرف يحيى الى الاندلس كان امام وقته ، وواحد بلاده ، وكان ممن أتهم بالهيج في وقعة الربض المشهورة ففر الى طليطلة ثم استأمن فكتب له الأمير الحكم أمانا ، وانصرف الى قرطبة .

ولحق سليمان ابن أخيهما الحكم بن سليمان بن أمير المؤمنين الناصر بجنود

البربر ، وقد اجتمعوا بظاهر قرطبة (بعد طردهم منها) وتوأمروا ، فبايعوه ولقبوه المستعين بالله ، ونهضوا به الى ثغر **طليطلة** ، فاستجاش بإبن أذفونش ثم نهض في جموع البرابرة والنصرانية الى قرطبة ، وبرز اليه المهدي في كافة أهل البلد وخاصة الدولة ، فكانت الدائرة عليهم ، واستلحم منهم ما يزيد على عشرين ألفاً ، وهلك من خيار الناس وأئمة المساجد وسدنتها ومؤذنيها عالم ، ودخل المستعين قرطبة ختام المائة الرابعة ، ولحق المهدي **بطليطلة** . واستجاش بإبن أذفونش ثانية ، فنهض معه الى قرطبة ، وهزم المستعين والبرابرة بعقبة البقر من ظاهر قرطبة ، ودخل قرطبة - أعني المهدي - وملكها ، وخرج المستعين مع البربر ، وتفرقوا في البسائط ينهبون ولا يبقون على أحد ، ثم ارتحلوا الى الجزيرة الخضراء ، فخرج المهدي ومعه ابن أذفونش لاتباعهم ، فكروا عليهم ، فانهزم المهدي وإبن أذفونش ومن معه من المسلمين والنصارى ، واتبعهم المستعين الى قرطبة ، فأخرج المهدي هشاماً المؤيد للناس ، وبايع له ، وقام بأمر حجابته ، ظناً منه أن ذلك ينفعه ، وهيئات ، وحاصرهم المستعين والبربر ، فخشى أهل قرطبة من اقتحامهم عليهم ، فأغروا أهل القصر وحاشية المؤيد بالمهدي وأن الفتنة انما جاءت من قبله ، وتولى كبر ذلك واضح العامري ، فقتلوا المهدي ، واجتمع الكافة على المؤيد ، وقام واضح بحجابته ، واستمر الحصار ، ولم يغن عن أهل قرطبة ما فعلوه شيئاً ، الى أن هلكت القرى والبسائط بقرطبة ، وعمدت المرافق ، وجهدهم الحصار وبعث المستعين الى أهل [إبن] أذفونش يستقدمهم لمظاهرة ، فبعث اليهم هشام وحاجبه واضح يكفونهم عن ذلك ، بأن ينزلوا لهم عن ثغور قشتالة التي كان المنصور افتتحها ، فسكن عن مظاهرتهم عزم أذفونش ، ولم يزل الأمر حتى دخل المستعين قرطبة ومن معه من البربر عنوة سنة ثلاث وأربعمئة ، وقتل هشام سراً ، ولحق بيوتات قرطبة معرة في نسائهم وأبنائهم .

وظن المستعين أن قد استحکم أمره ، وتوثبت البرابرة والعبيد على الأعمال ، فولوا المدن العظيمة ، وتقلدوا البلاد الواسعة ، مثل باديس بن حبوس في غرناطة ، والبرز الى قرمونة ، واليفرني في رندة ، وخزرون في شريش ، واقترق شمل الجماعة بالاندلس ، وصار الملك طوائف في آخرين من أهل الدولة ، مثل ابن عباد باشبيلية ، وابن الأفطس ببطليوس ، وابن ذي النون **بطليطلة** ، وابن أبي عامر ببلنسية ، وابن هود بسرقسطة ، ومجاهد العامري بدانية والجزائر ...

● وكان هشام يقول برموز الملاحم وكتب الحدثن ، وخامر نفسه من ذكر قائم بسبته ، أول اسمه عين ، ما لا شيء يزيله ، ولم يزل مرتقباً لظهوره ، فلذلك ما كاتب علي بن حمود لرفع بيته ، وبعد صيته ، فكان منه في أخذه بتأثره بعد موته ما كان ، فان كان كذلك ، فهشام - على مشهور عجزه - أحد كائدي

الأعداء بغيره من منكوبي الملوك بما لا شئ فوقه ، فما أدرك فيه بعد هلاكه بوتره واستفاد بدمه وسطا بعدوه ؛ انتهى ما لخصته من خبره مع ابن حمود .

فصل : قال ابن حيان : وأما حربه مع المهدي ، فإنه لما استوسق الأمر لسليمان حسبما تقدم ، وتابعت البرابرة ، اجتمعوا لحرب قرطبة ، فنزلوا في سفح الجبل بها وبشرقيها ، يوم الخميس الحادي عشر من ربيع الاول سنة أربعمائة ، وقد كان واضح الفتى وافيها قبلهم بيومين في أجناده من رجال الثغر ، فقلده المهدي أمر الحرب ، واحتشد الناس من الكور والبادية ، فعسكروا في جموع لم يحصها الا خالقهم ، فتداني الزحفان يوم السبت الثالث عشر من ربيع المؤرخ ، فتسرع اليهم أهل قرطبة ، وخالفوا واضحا في تدبير حربهم ، فاستجرتهم البرابرة ، حتى اذا تمكنوا منهم عطفوا عليهم ، فانكشفوا عنهم انكشافا ما سمع بمثله ، وانهمزوا الى منازلهم ، وتشعبت الطرق بهم ، وعاد تضيق مسالك كانوا أعدوها لعدوهم شدادا دونهم ، فازدحموا وتناشبا وقتل بعضهم بعضا ، ووضع البرابرة والنصارى السيوف عليهم ، فقتل في هذه الواقعة عالم ، وأبادوا أمة ، وهى وقعة قنتيش المشهورة بالاندلس التى قطع المقال على أنه قتل فيها عشرة آلاف قتيل وأزيد . والله أعلم .

ومال النصارى يومئذ على المنهزمين من المسلمين ، فقتلوا منهم في صعيد واحد نيفا على ثلاثة آلاف رجل ، وخرج الأمر عن يد واضح ، فلم يثبت أحد ممن كان معه ، ولا كر في تلك الواقعة عامي ولا خاصي ، وكان أمره عجبا . ونادى واضح بشعاره ، فاجتمع اليه رجاله ، وثبت الى أن أجنه الليل واتخذة جملا ، وسار عن قرطبة هاربا الى الثغر ، وانبسط البربر يومئذ في أرض قرطبة يقتلون ويأسرون .

قال ابن حيان : وأصيب في تلك الواقعة من المؤيدين خاصة نيف على ستين ، أعريت سقائهم ، في غداة واحدة منهم ، وتعطل صبيانهم لعدمهم . وأصيب فيها زربوط الطنبوري ، وأقام الطنبوريون أصحابه عليه مأتما مشهودا بعد الحادثة . وهلك في تلك الواقعة أخلاط من الناس ، وكان بعض الظرفاء يقول : من كل طبقة أخذت وقعة قنتيش حتى من أهل الباطل ، فانها ألصقت بالصميم في قتل قنبوط المهدي ، وزربوط المغني ونمطهما ، فهيهات أن يخلف الدهر مثلهما .

وكان المهدي ، اذ دخل قرطبة منتصف جمادي الآخرة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة وقتل عبد الرحمن بن أبي عامر ، أظهر موت هشام المؤيد في رمضان من العام ، وورى الشخص الذى موه به وقسم تراثه ، فلما كان غداة الأحد ثاني وقعة قنتيش ، أظهر المهدي هشاما المؤيد رجاء أن يستميل البرابرة به ، لما كانوا يكثر من الترحم عليه والطلب بدمه ، فأبرزه للناس وعجبوا من ذلك ، فقال له البربر : الله محمود على سلامته ، ونحن فلا حاجة لنا في امامته ، ولا نرضى بغير

سليمان ، فلما سمع المهدي ذلك ، خرج في الليل عن القصر ، وتطمر بقرطبة الى أن لحق بطليطلة ، ودعا الناس الى القيام بنصرته ، فجمع له واضح عساكر الافرنجة وأهل الثغور ، وجاءهم مع واضح الى قرطبة ، فبرز اليه سليمان ، والتقى الجمعان يوم الجمعة في شوال من العام ، فانهزم سليمان ، فدخل المهدي قرطبة وبويع له بها ، وتردد عليه البربر يحاربونه ، فشرع في حفر الخندق حول قرطبة ، وألزم أهلها القيام بأمره ، فاشتدت الكلفة عليهم ، ودبر واضح مع الموالي العامريين الغدر بالمهدي ، وشغبوا عليه في ذي الحجة من العام ، وأخرجوا هشاما المؤيد ، من محبسه بالقصر ، وأجلسوه للخلافة بالسطح ، ونادوا بشعاره ، وضربوا عنق المهدي بين يديه ، وألقوا جسده من أعلى السطح ، ورفعوا رأسه على قناة طيف بها البلد كله ، وقطعت يده ورجله ، وعاد هشام المؤيد الى الخلافة ، وجددت له البيعة ، واستحجب واضحا الفتى ، واستولى على تدبير الأمور ، وأرسل برأس المهدي الى عسكر سليمان على معاودة طاعة هشام ، وقد رجا استمالتهم به فأبوا ذلك ، وأغلظ سليمان على رسله ، وأراد قتلهم ، وأظهر الجزع على ابن عمه المهدي ، وبكى عليه ، وأمر بتنظيف الرأس ، وأنفذه الى طليطلة ، الى ولد المهدي عبيد الله . فأعظم قتل أبيه ودفع بيعة هشام ، وكان بعسكر سليمان عبد الرحمن بن متيويه ، فلما بلغه مهلك المهدي بن عبد الجبار عدوه ، كاتب واضحا وتوثق له ، فهرب الى قرطبة ، فدبر أمر هشام مدة بعد قتل واضح وعلي بن وداعة ، في أخبار طويلة ، الى أن ضعف أمر هشام ، ودخل عليه سليمان دولته الأخيرة ، ودبر قرطبة ، الى أن وقع له مع علي بن حمود ما وصفناه . انتهى ما لخصته من كلام ابن حيان .

● ورأيت بخطي في بعض مسوداتي ما صورته : محمد بن عبد الله بن يحيى ابن يحيى الليثي قاضي الجماعة بقرطبة ، سمع عم أبيه عبيد الله بن يحيى ومحمد ابن عمر بن لبابة وأحمد بن خالد ، ورحل من قرطبة سنة ٣١٢ ، ودخل مصر وحج وسمع بمكة من ابن المنذر والعقيلي وابن الأعرابي وغيرهم ؛ وكان حافظا معتنيا بالآثار جامعاً للسنن ، وتصرفا في علم الاعراب ومعاني الشعر ، شاعرا مطبوعا ؛ وشاوره القاضي أحمد بن بقي ، واستقضاه الناصر عبد الرحمن ابن محمد على البيرة وبجانة ، ثم ولاه قضاء الجماعة بقرطبة بعد أبي طالب سنة ٣٢٦ ، وجمعت له مع القضاء الصلاة ، وكان كثيرا ما يخرج الى الثغور ويتصرف في اصلاح ما وهى منها ، فاعتل في آخر خرجاته ومات في بعض الحصون المجاورة لطليطلة سنة ٣٣٧ ، ومولده سنة ٢٨٤ ؛ انتهى وأظن أنني نقلته من كتاب ابن الأبار الحافظ ، والله أعلم .

● ومن الفضلاء الذين أدركهم وأخذ عنهم الخافض أبو بكر ابن الجدي ، وأبو بكر ابن زهر ، وغيرهما ، وحضر حصار طليطلة مع منصور بني عبد المؤمن ،

وكتب ملك البرين أبى محمد عبد الواحد ، وكتب أيضا عن مأمون بنى عبد المؤمن ، وكتب أخيرا عن ملك بجاية والغرب الأوسط الأمير أبى يحيى ابن عمران ابن سعيد ملك افريقية ، رحم الله تعالى الجميع .

● وذكر ابن عبد الحكم أن عبد الرحمن الداخل أقام ببرقة مستخفيا خمس سنين ، وآل أمره في سفره الى أن استجار ببني رستم ملوك تيهرت من المغرب الأوسط ، وتقلب في قبائل البربر الى أن استقر على البحر عند قوم من زناتة ، وأخذ في تجهيز بدر مولاه الى العبور للأندلس لموالي بني أمية وشيعتهم بها ، وكانت الموالى المروانية المدونة بالأندلس في ذلك الأوان ما بين الأربعمئة والخمسمئة ، ولهم جمرة ، وكانت رياستهم الى شخصين : أبى عثمان عبيد الله بن عثمان ، وعبد الله بن خالد ، وهما من موالى عثمان ، رضى الله تعالى عنه ، وكانا يتوليان لواء بني أمية يعتقبان حملة ورياسة جند الشام النازلين بكورة البيرة ، فعبر بدر مولى عبد الرحمن الى أبى عثمان بكتاب عبد الرحمن يذكره فيه أيادي سلفه من بني أمية وسببه بهم ويعرفه مكانه من السلطان وسعيه لنيله ، ان كان الأمر لجده هشام فهو حقيق بوراثته ، ويسأله القيام بشأنه وملاقة من يثق به من الموالى الأموية وغيرهم ، ويتلطف في ادخاله الى الأندلس ليبللي عذرا في الظهور عليها ، ويعدده بأعلاء الدرجة ، ولطف المنزلة ، ويأمره أن يستعين في ذلك بمن يأمنه ، ويرجو قيامه معه ، ويأخذ فيه مع اليمانية ذوي الحق على المضرة لما بين الحيين من الترات ، فمشى أبو عثمان لما دعاه اليه ، وبانت له فيه طماعية ، وكان عند ورود بدر قد تجهز الى ثغر سرقسطة لنصرة صاحبها الصميل بن حاتم وجه دولة يوسف بن عبد الرحمن صاحب الأندلس ، فقال لصهره عبد الله بن خالد المذكور : لو كنا ذاكرنا الصميل خبر بدر وما جاء به لنختبر ما عنده في موافقتنا ، وكانا على ثقة في أنه لا يظهر على سرهما أحدا لمروءته وأنفته ، فقال له : ان نحن فعلنا لم نأمن من أن تدركه الغيرة على سلطان يوسف لما هو عليه من شرف القدر وجلالة المنزلة فيتوقع سقوط رياسته فلا يساعدنا ، قال أبو عثمان : فنمسخ اذا على أمره ، ونذكر له أنه قصد لارادة الايواء والأمان وطلب أخماس جده هشام لدينا ليتعيش بها ، لا يريد غير ذلك ، فاتفقا على هذا . فلما ودعا الصميل خلوا به في ذلك ، وقد ظهر لهما منه حقد على صاحبه يوسف في ابطائه عن امداده لما حاربه الحباب الزهري بكورة سرقسطة ، فقال لهما : أنا معكما فيما تحبان ، فاكتبنا اليه أن يعبر ، فاذا حضر سألنا يوسف أن ينزله في جواره وأن يحسن له ، ويزوجه بابنته ، فان فعل والا ضربنا صلته بأسياقنا ، وصرفنا الأمر عنه اليه ، فشكراه وقبلا يده ثم ودعاه ، وأقام **بطليلة** وقد ولاد يوسف عليها وعزله عن الثغر ، وانصرفا الى وطنهما بالبيرة ، وقد كانا لقيما من كان معهما في العسكر من وجوه الناس وثقاتهم ، فطارحهم أمر ابن

معاوية ، ثم دسا في الكور الى ثقافتهما بمثل ذلك ، فدب أمره فيهم دبيب النار في الجمر ، وكانت سنة خلف بالاندلس بعد خروج من المجاعة التي دامت بالناس .

وفي رواية أن الصميل لان لهما في أن يطلب الأمر عبد الرحمن الداخل لنفسه ثم دبر ذلك لما انصرفا ، فتراجع فيه ، فردهما ، وقال : اني رويت في الأمر الذي أدركته معكما فوجدت الفتى الذي دعوتاني اليه من قوم لو بسال أحدهم بهذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم في بوله ، وهذا رجل نتحكم عليه ، ونميل على جوانبه ، ولا يسعنا بدل منه ، والله لو بلغتما بيوتكما ثم بدا لي فيما فارقتكما عليه لرأيت أن لا أقصر حتى ألقاكما لئلا أغركما من نفسي ، فاني أعلمكما أن أول سيف يسلم عليه سيفي ، فبارك الله لكما في رأيكما ، فقالا له : ما لنا رأيي الا رأيك ، ولا مذهب لنا عنك ، ثم انصرفا عنه على أن يعينهما في أمره ان طلب غير السلطان ، وانفصلا عنه الى البيرة عازمين على التصميم في أمره ، ويؤسا من مضر وربيعه ، ورجعا الى اليمانية ، وأخذوا في تهيج أحقاد أهل اليمن على مضر ، فوجداهم قوما قد وغرت صدورهم عليهم ، يتمنون شيئا يجدون به السبيل الى ادراك ثأرهم ، واغتنما بعد يوسف صاحب الاندلس في الثغر ، وغيبة الصميل ، فابتاعا مركبا ووجها فيه أحد عشر رجلا منهم مع بدر الرسول ، وفيهم تمام بن علقمة وغيره ، وكان عبد الرحمن قد وجه خاتمه الى مواليه ، فكتبوا تحت ختمه الى من يرجونه في طلب الأمر ، فبثوا من ذلك في الجهات ما دب به أمرهم ، ولما وجه أبو عثمان المركب المذكور مع شيعة ألفوه بشط مغيلة من بلاد البربر ، وهو يصل ، وكان قد اشتد قلقه وانتظاره لبدر رسوله ، فبشره بدر بتمكن الأمر ، وخرج اليه تمام مكثرا لتبشيريه ، فقال له عبد الرحمن : ما اسمك ؟ قال : تمام ، قال : وما كنيته ؟ قال : أبو غالب ، فقال : الله أكبر ! الآن تم أمرنا وغلبنا بحول الله تعالى وقوته ، وأدنى منزلة أبي غالب لما ملك ، ولم يزل حاجبه حتى مات عبد الرحمن . وبادر عبد الرحمن بالدخول الى المركب ، فلما هم بذلك أقبل البربر فتعرضوا دونه ، ففرقت فيهم من مال كان مع تمام صلوات على أقدارهم ، حتى لم يبق أحد حتى أرضاه ، فلما صار عبد الرحمن بداخل المركب أقبل عات منهم لم يكن أخذ شيئا فتعلق بحبل الهودج يعقل المركب ، فحول رجل اسمه شاكر يده بالسيف ، فقطع يد البربري ، وأعانتهم الريح على التوجه بمركبهم ، حتى حلوا بساحل البيرة في جهة المنكب ، وذلك في ربيع الآخر سنة ١٣٨ ، فأقبل اليه نقيباه أبو عثمان وصهره أبو خالد ، فنقلاه الى قرية طرش منزل أبي عثمان ، فجاءه يوسف بن بخت ، وانثالت عليه الأموية ، وجاءه جدار بن عمرو المذحجي من أهل مالقة ، فكان بعد ذلك قاضيه في العساكر ، وجاءه أبو عبدة حسان بن مالك الكلبي من اشبيلية فاستوزره ، وانثال عليه الناس انثيالا ، فقوي أمره مع الساعات فضلا عن الأيام ، وأمد الله تعالى بقوة عالية ، فكان دخوله قرطبة بعد ذلك بسبعة أشهر .

وكان خبر دخوله (عبد الرحمن الداخل) للأندلس قد صادف صاحبها يوسف الفهري بالشجر ، وقد قبض على الحباب الزهري الثائر بسرقسطة ، وعلى عامر العبدري الثائر معه ، فبينما هو بوادي الرمل بمقرية من **طليطلة** وقد ضرب عنق عامر العبدري وابن عامر برأى الصميل اذ جاءه قبل أن يدخل رواقه رسول يركض من عند ولده عبد الرحمن بن يوسف من قرطبة يعلمه بأمر عبد الرحمن ونزوله بساحل جند دمشق ، واجتماع الموالى المروانية اليه ، وتشوف الناس لأمره ، فانتشر الخبر في العسكر لوقته ، وشمت الناس بيوسف لقتله القرشيين عامرا وابنه ، وختره بعهدهما ، فسارع عدد كثير الى البدار لعبد الرحمن الداخل ، وتنادوا بشعارهم ، وقوطوا عن عسكره ، واتفق أن جادت السماء بوابل لا عهد بمثله لما شاء الله تعالى من التضييق على يوسف ، فأصبح وليس في عسكره سوى غلمانته وخاصته وقوم الصميل قيس وأتباعه ، فأقبل الى **طليطلة** وقال للصميل : ما الرأي ؟ فقال : بادره الساعة قبل أن يغلظ أمره ، فاني لست آمن عليك هؤلاء اليمانية لحنقهم علينا ، فقال له يوسف : أتقول ذلك ؟ ومع من نسير اليه وأنت ترى الناس قد ذهبوا عنا ؟ وقد أنفضنا من المال ، وأنضينا الظهر ، ونهكتنا المجاعة في سفرتنا هذه ، ولكن نسير الى قرطبة ، فنستأنف الاستعداد له ، بعد أن ننظر في أمره ويتبين لنا خبره ، فلعله دون ما كنت الينا . فقال الصميل : الرأي ما أشرت به عليك ، وليس غيره ، وسوف تتبين غلطك فيما تنكبه ، ومضوا الى قرطبة .

وسار عبد الرحمن الداخل الى اشبيلية ، وتلقاه رئيس عربيها أبو الصباح ابن يحيى اليحصبي ، واجتمع الرأي على أن يقصدوا به دار الامارة قرطبة ، فلما نزلوا بطشانة قالوا : كيف نسير بأمر لا لواء له ولا علم نهدي اليه ؟ فجاءوا بقناة وعمامة ليعقدوها عليه ، فكرهوا أن يميلوا القناة لتعقد تطيراً فأقاموها بين زيتونتين متجاورتين ، فصعد رجل فرع احدهما فعقد اللواء والقناة قائمة ، كما سيأتي ؛ وحكي أن فرقدا العالم صاحب الحدثان مر بذلك الموضع ، فنظر الى الزيتونتين ، فقال : سيعقد بين هاتين الزيتونتين لواء لأمر لا يثور عليه لواء الا كسره ، فكان ذلك اللواء يسعد به هو وولده من بعده ، ولما أقبل الى قرطبة خرج له يوسف ، وكانت المجاعة توالى قبل ذلك ست سنين فأورثت أهل الاندلس ضعفا ، ولم يكن عيش عامة الناس بالعسكر ما عدا أهل الطاقة مذ خرجوا من اشبيلية الا القول الأخضر الذى يجدونه في طريقهم ، وكان الزمان زمن ربيع ، فسمى ذلك العام عام الخلف ، وكان نهر قرطبة حائلا ، فسار يوسف من قرطبة وأقبل ابن معاوية على بر اشبيلية والنهر بينهما ، فلما رأى يوسف تصميم عبد الرحمن الى قرطبة رجع مع النهر محاذيا له ، فتسايرا والنهر حاجز بينهما ، الى أن حل يوسف بصحراء المصاراة غربي قرطبة ، وعبد الرحمن في مقابلته ، وتراسلا

في الصلح ، وقد أمر يوسف بذبح الجزر ، وتقديم بعمل الأطعمة ، وابن معاوية أخذ في خلاف ذلك قد أعد للحرب عدتها ، واستكمل أهبتها ، وسهر الليل كله على نظام أمره ، كما سنذكره ، ثم انهزم أهل قرطبة ، وظفر عبد الرحمن الداخل ، ونصر نصرأ لا كفاء له ، وانهزم الصميل ، وفر الى شوندر من كورة جيان ، وفر يوسف الى جهة ماردة .

وذكر أن أبا الصباح رئيس اليمانية قال لهم عند هزيمة يوسف : يا معشر يمن ، هل لكم الى فتحين في يوم ؟ قد فرغنا من يوسف وصميل ، فلنقتل هذا الفتى المقدامة ابن معاوية فيصير الأمر لنا ، نقدم عليه رجلا منا ، ونحل عنه هذه المضرة ، فلم يجبه أحد لذلك ، وبلغ الخبر عبد الرحمن فأسرهما في نفسه الى أن اغتاله بعد عام ، فقتله .

ولما انقضت الهزيمة أقام ابن معاوية بظاهر قرطبة ثلاثة أيام ، حتى أخرج عيال يوسف من القصر ، وعف وأحسن السيرة ، ولما حصل بدار الامارة ، وحل محل يوسف ، لم يستقر به قرار من افلات يوسف والصميل ، فخرج في اثر عدوه واستخلف على قرطبة القائم بأمره أبا عثمان ، واستكتب كاتب يوسف أمية بن زياد ، واستناب اليه اذ كان من موالى بني أمية ، ونهض في طلب يوسف ، فوقع يوسف على خبره فخالفه الى قرطبة ودخل القصر ، وتحصن أبو عثمان خليفة عبد الرحمن بصومعة الجامع فاستنزله بالأمان ، ولم يزل عنده الى أن عقد الصلح بينه وبين ابن معاوية ، وكان عقد الصلح المشتمل عليه وعلى وزيره الصميل في صفر سنة ١٣٩ ؛ وشارطه على أن يخلى بينه وبين أمواله حيثما كانت ، وأن يسكن بلاط الحر - منزله بشرقي قرطبة - على أن يختلف كل يوم الى ابن معاوية ويريه وجهه ، وأعطاه رهينة على ذلك ابنه أبا الأسود محمد بن يوسف ، زيادة على ابنه عبد الرحمن الذي أسره ابن معاوية يوم الوقعة ، ورجع العسكران وقد اختلطا الى قرطبة .

وذكر ابن حيان أن يوسف بن عبد الرحمن نكث سنة ١٤١ ، فهرب من قرطبة ، وسعى بالفساد في الارض ، وقد كانت الحال اضطربت به في قرطبة ودس له قوم قاموا عليه في أملاكه ، زعموا أنه غصبهم اياها ، فدفع معهم الى الحكام فأعنتوه ، وحمل عنه في التآلم بذلك كلام رفع الى ابن معاوية أصاب أعداء يوسف به السبيل الى السعاية به والتخويف منه ، فاشتد توحشه ، فخرج الى جهة ماردة ، واجتمع اليه عشرون ألفا من أهل الشتات ، فغلظ أمره ، وحدثته نفسه ببقاء ابن معاوية ، فخرج نحوه من ماردة ، وخرج ابن معاوية من قرطبة ، فبينما ابن معاوية في حصن المدور مستعد ، اذ التقى بيوسف عبد الملك بن عمر بن مروان صاحب اشبيلية ، فكانت بينهما حرب شديدة انكشف عنها يوسف بعد بلاء عظيم منهزما ، واستحر القتل في أصحابه ، فهلك منهم خلق كثير ، وسار يوسف لناحية

طليلة ، فلقية في قرية من قراها عبد الله بن عمرو الأنصاري ، فلما عرفه قال لمن معه : هذا الفهري يفر ، قد ضاقت عليه الأرض ، وقتله الراحة له ، والراحة منه ، فقتله واحتز رأسه وقدم به الى عبد الرحمن ، فلما قرب وأوذن عبد الرحمن به أمره أن يتوقف به دون جسر قرطبة ، وأمر بقتل ولده عبد الرحمن المحبوس عنده ، وضم الى رأسه رأسه ، ووضع على قناتين مشهرين الى باب القصر .

وكان عبد الرحمن لما فر يوسف قد سجن وزيره الصميل لأنه قال له : أين توجه ؟ فقال : لا أعلم ، فقال : ما كان ليخرج حتى يعلمك ، ومع ذلك فان ولدك معه ، وأكد عليه في أن يحضره ، فقال : لو أنه تحت قدمي هذه ما رفعها لك عنه ، فاصنع ما شئت ، فحينئذ أمر به للحبس وسجن معه ولدي يوسف أبا الأسود محمدا المعروف بعد بالأعمى وعبد الرحمن ، فتهيا لهما الهرب من نقب ، فأما أبو الأسود فنجا سالما ، واضطرب في الأرض يبغي الفساد الى أن هلك حتف أنفه ، وأما عبد الرحمن فأنقله اللحم فأنبهر ، فرد الى الحبس ، حتى قتل كما تقدم ، وأنف الصميل من خنقه ، فأصبح ميتا ، فدخل عليه مشيخة المضرة في السجن ، فوجدوه ميتا وبين يديه كأس ونقل ، كأنه بغت على شرابه ، فقالوا : والله انا لنعلم يا أبا جوشن أنك ما شربتها ولكن سقيتها .

من (عبد الله بن وادي آش) الى صديق طليطي :

● وله من أخرى الى ابن الحديدي بطليطة : قد سطع - أعزك الله - من سناك وسنائك ، وتضوع من نثاك وثنائك ، وانتشر من علاك وحلاك ، ما ضمخ مسكه اللوح ، وستر نوره يوح ، فسور سيرك تتلى في منازل الفضائل ، وصور غررك تجلى في محافل الأفاضل ، ولا غرو أن تنزع الأنفس الشاسعة تلقاءك ، وتتمنى لقاءك ، ولا بدع أن تمتد الأعين النازحة اليك ، وتود أن تقع عليك ، فالفضل موموق ، والنفيس مرموق ، وحرص الحوباء على مشافهة الأخلاء يقضى عليها باقتداح زند المخاطبة ، واستفتاح غلق المكاتب ، واذا عدم التناطق ، فقد وجب التباطق ، ولو أن التكاثر لا يقع الا بعد وقوع طير التعارف ، على ماء التآلف ، وتفيؤ النفس ، ظلال الأنس ، لانسدت أبواب المواصل ، وانبتت أسباب المراسلة . وما زلت مذ تنسنت أرج ذكراك ، وتوسمت نهج عليك ، أصبو اليك صبو الهائم ، وأظمأ نحوك ظمأ الحائم ، وأرتقب للامكان صالحة أتوصل بها الى مجاراتك في ميدان الاستدلال ، وأتوسل بها الى معاطاتك أفنان الالتئام والاتصال ، والزمن يأبى الا اللي ، فينهذ العوائق الي ، الى أن دهمني من ضروب خطوبه بعجائب ، واستقبلني من صنوف صروفه بغرائب ، قذفتني من سمائي ، وسقتني غير مائي ، فأيدي التغرب تتعاطاني ، وأقدام النوب لا تتخطاني . والله يحسن العقبي ، ويعقب الحسنى ، بمنه .

٢

جغرافية طليطلة

● [كورة طليطلة وما تشتهر به]

ومن أعظم كور الاندلس كورة **طليطلة** ، وهى من متوسط الاندلس ، وكانت دار مملكة بني ذي النون من ملوك الطوائف ، وكان ابتداء ملكهم صدر المائة الخامسة ، وسماها قيصر بلسانه بزليطة ، وتأويل ذلك : أنت فارح ، فعربتها العرب وسموها : **طليطلة** ، وكانوا يسمونها وجهاتها فى دولة بني أمية بالثغر الأدنى ، ويسمون سرقسطة وجهاتها بالثغر الأعلى ، وتسمى **طليطلة** مدينة الأملاك لأنها فيما يقال ملكها اثنان وسبعون انسانا ، ودخلها سليمان بن داود ، عليهما السلام ، وعيسى بن مريم ، وذو القرنين ، وفيها وجد طارق مائدة سليمان ، وكانت من ذخائر اشبان ملك الروم الذى بنى اشبيلية ، أخذها من بيت المقدس كما مر ، وقومت هذه المائدة عند الوليد بن عبد الملك بمائة ألف دينار ، وقيل : انها كانت من زمرد أخضر ، ويقال : انها الآن برومة ، والله أعلم بذلك .

ووجد طارق ب**طليطلة** ذخائر عظيمة ، منها مائة وسبعون تاجا من الدر والياقوت والأحجار النفيسة ، وايوان ممتلئ من أواني الذهب والفضة ، وهو كبير ، حتى قيل : ان الخيل تلعب فيه فرسانها برماحهم لوسعه ، وقد قيل : ان أواني المائدة من الذهب وصحافها من اليشم والجزع ، وذكروا فيها غير هذا مما لا يكاد يصدق الناظر فيه .

وب**طليطلة** بساتين محدقة ، وأنهار مخترقة ، ورياض وجنان ، وفواكه حسان ، ومختلفة الطعوم والألوان ، ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة ، ورساتيق مريضة ، وضياح بديعة ، وقلاع منيعة ، وبالجملة فمحاسنها كثيرة ، ولعلنا نلم ببعض متنزهاتها فيما يأتي من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى .

وب**طليطلة** قاعدة ملك القوطيين ، وهى مطلة على نهر تاجه ، وعليه كانت القنطرة التى يعجز الواصفون عن وصفها ، وكانت على قوس واحد تكنفه فرختان من كل جانب ، وطول القنطرة ثلاثمائة باع ، وعرضها ثمانون باعا ، وخربت أيام الأمير محمد لما عصى عليه أهلها فغزاهم ، واحتال فى هدمها ، وفى ذلك يقول الحكيم عباس بن فرناس .

أضحت طليطلة معطلة	من أهلها فى قبضة الصقر
تركت بلا أهل تؤهلها	مهجورة الأكناف كالقبر
ما كان يبقى الله قنطرة	نصبت لحمل كتائب الكفر

وسياتي بعض أخبار **طليطلة** .

● وذكر بعض المؤرخين أن الغرائب التى أصيبت فى مغنم الاندلس أيام فتحها كمائدة سليمان عليه الصلاة والسلام التى ألفاها طارق بن زياد بكنيسة

طليطلة وقليلة الدر التي ألفاها موسى بن نصير بكنيسة ماردة وغيرهما من طرائف الذخائر انما كانت مما صار لصاحب الاندلس من غنيمة بيت المقدس ، اذ حضر فتحها مع بختنصر ، وكان اسم ذلك الملك بريان ، وفي سهمه وقع ذلك ومثله مما كانت الجن تأتي به نبي الله سليمان ، على نبينا وعليه وعلى جميع الأنبياء الصلاة والسلام .

● وقال جماعة : ان القوط غير البشتولقات ، وإن البشتولقات من عجم رومة ، وانهم جعلوا دار ملكهم ماردة ، واتصل ملكهم الى أن ملك منهم سبعة وعشرون ملكا ، ثم دخل عليهم القوط ، واتخذوا **طليطلة** دار مملكة ، ثم ذكر تنصر ملكهم خشنندش مثل ما تقدم ، ثم ذكر أن عدة ملوك القوط ستة وثلاثون ملكا .

● [خبر ابن خلدون عن الأمم التي استوطنتها]

وقال قاضي القضاة ابن خلدون الحضرمي في تاريخه الكبير ، ما صورته : كان هذا القطر الاندلسي من العدو الشمالية من عدوتي البحر الرومي وبالجانب الغربي منها يسمى عند العجم الأندلوش ، وتسكنه أمم من افرنجة المغرب أشدهم وأكثرهم الجلالة ، وكان القوط قد تملكوه وغلّبوا على أهله لمئين من السنين قبل الاسلام ، بعد حروب كانت لهم مع اللطينيين حاصروا فيها رومة ثم عقدوا معهم السلم على أن ينصرف القوط الى الاندلس ، فصاروا اليها وملكوها ، ولما أخذ الروم واللطينيون بملة النصرانية حملوا من وراءهم بالمغرب من أمم الفرنجة والقوط عليها فدانوا بها ، وكان ملوك القوط ينزلون **طليطلة** ، وكانت دار ملكهم ، وربما تنقلوا ما بينها وبين قرطبة واشبيلية وماردة ، وأقاموا كذلك نحواً من أربعمئة سنة الى أن جاء الله بالاسلام والفتح ، وكان ملكهم لذلك العهد يسمى لذريق ، وهو سمة للوكهم ، كما هو جرجير سمة للوك صقلية ، انتهى .

● وكان الأولون من ملوك الأعاجم يتداولون بسكناهم أربعة من بلاد الأندلس : اشبيلية ، وقرطبة ، وقرمونة ، و**طليطلة** ، ويقسمون أزمانهم على الكينونة بها .

● قال ابن حيان والحجاري : انه لما استشهد عنيسة قدم أهل الاندلس عليهم عذرة بن عبد الله الفهري ، ولم يعده ابن بشكوال في سلاطين الأندلس ، بل قال : ثم تتابعت ولاية الاندلس مرسلين من قبل صاحب افريقية : أولهم يحيى بن سلمة ، وذكر الحجاري أن عذرة كان من صلحائهم وفرسانهم ، وصار لعقبه نباهة ، وولده هشام بن عذرة هو الذي استولى على طليطلة قسبة الاندلس ، وفي عقبه بوادي آش من مملكة غرناطة نباهة وأدب ، قال ابن سعيد : وهم الى الآن ذوو بيت مؤصل ، ومجد مؤثل ، وكان سرير سلطنة عذرة قرطبة .

قال : والأندلس أندلسان في اختلاف هبوب رياحها ومواقع أمطارها وجريان أنهارها : أندلس غربي ، وأندلس شرقي ، فالغربي منها ما جرت أوديته إلى البحر المحيط الغربي ، ويمطر بالرياح الغربية ، ومبتدأ هذا الحوز من ناحية المشرق مع المفازة الخارجة مع الجوف إلى بلد شنتمرية طالعا إلى حوز أغريطة المجاورة لطليطلة مائلا إلى الغرب ومجاورا للبحر المتوسط الموازي لقرطاجنة الحلفاء التي من بلد لورقة ، والحوز الشرقي المعروف بالأندلس الأقصى ، وتجري أوديته إلى الشرق ، وأمطاره بالرياح الشرقية ، وهو من حد جبل البشكنس ، هابطا مع وادي أبره إلى بلد شنت مرية ، ومن جوف هذا البحر وغربه المحيط ، وفي القبلة منه البحر الغربي الذي منه يجري البحر المتوسط الخارج إلى بلد الشام ، وهو البحر المسمى ببحر تيران ، ومعناه الذي يشق دائرة الأرض ، ويسمى البحر الكبير ، انتهى .

● ومن خواص **طليطلة** : أن حنطتها لا تتغير ولا تتسوس على طول السنين ، يتوارثها الخلف عن السلف ، وزعفران **طليطلة** هو الذي يعم البلاد ويتجهز به الرفاق إلى الآفاق ، وكذلك الصبغ السماوي ، انتهى .

● وأقاليم العالم سبع ، الأقليم الخامس منها يمر على **طليطلة** وسرقسطة وما في سمتهما إلى بلاد أرغون التي في جنوبها برشلونة ، ثم يمر على رومية وبلادها ، ويشق بحر البنادقة ، ثم يمر على القسطنطينية ، ومدبرته الزهرة .

● و**طليطلة** قاعدة ملك القوطيين ، وهي مطلة على نهر تاجه ، وعليه كانت القنطرة التي يعجز الواصفون عن وصفها ، وكانت على قوس واحد تكنفه فرختان من كل جانب ، وطول القنطرة ثلاثمائة باع ، وعرضها ثمانون باعا ، وخربت أيام الأمير محمد لما عصى عليه أهلها فغزاهم ، واحتال في هدمها ، وفي ذلك يقول الحكيم عباس بن فرناس :

أضحت طليطلة معطلة من أهلها في قبضة الصقر
تركت بلا أهل تؤهلها مهجورة الأكناف كالقبر
ما كان يبقى الله قنطرة نصبت لحمل كتائب الكفر

● وأعلم أن جزيرة الأندلس - أعادها الله للإسلام - مشتملة على موسطة وشرق ، وغرب :

فالموسطة فيها من القواعد المصرة التي كل مدينة منها مملكة مستقلة لها أعمال ضخام وأقطار متسعة : قرطبة ، و**طليطلة** ، وجيان ، وغرناطة ، والمرية ، ومالقة .

● وقال بعضهم في **طليطلة** :

زادت طليطلة على ما حدثوا بلد عليه نضرة ونعيم
الله زيننه فوشح خصره نهر المجرة والغصون نجوم

● ولما دخل الاندلس أمير المسلمين علي ابن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني ملك المغرب والاندلس ، وأمعن النظر فيها ، وتأمل وصفها وحالها ، قال : انها تشبه عقابا مخالبه **طليطلة** ، وصدره قلعة رياح ، ورأسه جيان ، ومنقاره غرناطة ، وجناحه الأيمن باسط الى المغرب ، وجناحه الأيسر باسط الى المشرق .

● ومنها الرصيف المشهور بالاندلس ، قال في بعض أخبار رومية : أنه لما ولي يوليش المعروف بجاشر ، وابتدأ بتدريج الأرض وتكسيورها ، كان ابتداءه بذلك من مدينة رومية الى المشرق منها والى المغرب والى الشمال والى الجنوب ، ثم بدأ بفرش المبلطة ، وأقبل بها على وسط دائرة الأرض الى أن بلغ بها أرض الاندلس وركزها شرقي قرطبة ببابها المتطامن المعروف بباب عبد الجبار ، ثم ابتدأها من باب القنطرة قبلي قرطبة الى شقندة الى استجة الى قرمونة الى البحر ، وأقام على كل ميل سارية قد نقش عليها اسمه من مدينة رومية ، وذكر أنه أراد تسقيفها في بعض الأماكن راحة للخاطرين من وهج الصيف وهول الشتاء ، ثم توقع أن يكون ذلك فسادا في الأرض وتغييرا للطرق عند انتشار اللصوص وأهل الشر فيها في المواضع المنقطعة النائية عن العمران ، فتركها على ما هي عليه . وذكر في هذه الآثار صنم قادس الذي ليس له نظير الا الصنم الذي يطرف جليقية ، وذكر قنطرة طليطلة وقنطرة السيف وقنطرة ماردة ، وملعب مربيطر .

● [**بيلتا طليطلة**]

ومن غرائب الاندلس : البيلتان اللتان **بطليطلة** ، صنعهما عبد الرحمن لما سمع بخبر الطلسم الذي بمدينة أرين من أرض الهند ، وقد ذكره المسعودي ، وأنه يدور باصبعه من طلوع الفجر الى غروب الشمس ، فصنع هو هاتين البيلتين خارج **طليطلة** في بيت مجوف في جوف النهر الأعظم في الموضع المعروف بباب الدباغين ، ومن عجبهما أنهما تمتلئان وتنحسران مع زيادة القمر ونقصانه ، وذلك أن أول انهلال الهلال يخرج فيهما يسير ماء ، فاذا أصبح كان فيهما [ربيع] سبعهما من الماء ، فاذا كان آخر النهار كمل فيهما نصف سبع ، ولا يزال كذلك بين اليوم والليلة نصف سبع حتى يكمل من الشهر سبعة أيام وسبع ليال ، فيكون فيهما نصفهما ، ولا تزال كذلك الزيادة نصف سبع في اليوم والليلة حتى يكمل

امتلاؤهما بكمال القمر ، فاذا كان في ليلة خمسة عشر وأخذ القمر في النقصان نقصتا بنقصان القمر كل يوم وليلة نصف سبع [حتى يتم القمر واحدا وعشرين يوما فينقص منهما نصفهما ولا يزال كذلك ينقص في كل يوم وليلة نصف سبع] فاذا كان تسعة وعشرون من الشهر لا يبقى فيهما شيء من الماء ، واذا تكلف أحد حين تنقصان أن يملأهما وجلب لهما الماء ابتلعتا ذلك من حينهما حتى لا يبقى فيهما الا ما كان فيهما في تلك الساعة ، وكذا لو تكلف عند امتلائهما افراغهما ولم يبق فيهما شيئا ثم رفع يده عنهما خرج فيهما من الماء ما يملؤهما في الحين . وهما أعجب من طلسم الهند ، لأن ذلك في نقطة الاعتدال حيث لا يزيد الليل على النهار ، وأما هاتان فليستا في مكان الاعتدال ، ولم تزل في بيت واحد حتى ملك النصراني - دمرهم الله - **طليطلة** ، فأراد الفنش أن يعلم حركاتهما ، فأمر أن تقلع الواحدة منهما لينظر من أين يأتي إليها الماء ، وكيف الحركة فيهما ، فقلعت ، فبطلت حركتهما ، وذلك سنة ٥٢٨ . وقيل : ان سبب فسادهما حين اليهودي الذي جلب حمام الاندلس كلها الى **طليطلة** في يوم واحد ، وذلك سنة ٥٢٧ ، وهو الذي أعلم الفنش أن ولده سيدخل قرطبة ويملكها ، فأراد أن يكشف حركة البيطتين ، فقال له : أيها الملك ، أنا أقلعهما وأردهما أحسن مما كانتا ، وذلك أني أجعلهما تمتلئان بالنهار وتحسران في الليل ، فلما قلعت لم يقدر على ردها ، وقيل : انه قلع واحدة ليسرق منها الصنعة فبطلت ، ولم تنزل الأخرى تعطي حركتها ، والله أعلم بحقيقة الحال .

● [**طليطلة**] هكذا ضبطه الحميدي بضم الطاءين وفتح السلام وأكثر ما سمعناه من المغاربة بضم الأولى وفتح الثانية . مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالاندلس يتصل عملها بعمل وادي الحجارة من أعمال الاندلس وهي غربي ثغر الروم وبين الجوف والشرق من قرطبة وكانت قاعدة ملوك القوطيين وموضع قرارهم وهي على شاطئ نهر تاجه وعليه القنطرة التي يعجز الواصف عن وصفها وقد ذكر قوم أنها مدينة دقيانوس صاحب أهل الكهف قالوا ويقرب منها موضع يقال له جنان الورد فيه أجساد أصحاب الكهف لا تبلى الى الآن والله أعلم وقد قيل فيهم غير ذلك كما ذكر في الرقيم وهي من أجل المدن قدرا وأعظمها خطرا ومن خاصيتها ان الغلال تبقى في مطاميرها سبعين سنة لا تتغير وزعفرانها هو الغاية في الجودة وبينها وبين قرطبة سبعة أيام للفارس وما زالت في أيدي المسلمين منذ أيام الفتوح الى أن ملكها الافرنج في سنة ٤٧٧ وكان الذي سلمها اليهم يحيى بن يحيى بن ذي النون الملقب بالقادر بالله وهي الآن في أيديهم وكانت **طليطلة** تسمى مدينة الأملاك ملكها اثنان وسبعون لسانا فيما قيل ودخلها سليمان ابن داود وعيسى بن مريم وذو القرنين والخضر عليهم السلام فيما زعم أهلها

والله أعلم . قال ابن دريد **طليطلاء** مدينة وما أظنها الا هذه . ينسب اليها جماعة من العلماء . منهم أبو عبد الله الطليطلي روى كتاب مسلم بن الحجاج توفي يوم الأربعاء الثاني عشر من صفر سنة ٤٥٨ . وعيسى بن دينار بن واقد الغافقي الطليطلي سكن قرطبة ورحل وسمع من أبي القاسم وصحبه وعول عليه وانصرف الى الاندلس فكانت الفتيا تدور عليه لا يتقدمه في وقته أحد . قال ابن الفرضي قال يحيى بن مالك بن عائذ سمعت محمد بن عبد الملك بن أيمن يقول كان عيسى بن دينار عالما متقننا وهو الذي علم المسائل أهل عصرنا وكان أفقه من يحيى بن يحيى على جلالة قدر يحيى وكان محمد بن عمر ابن لبابة يقول فقيه الاندلس عيسى بن دينار وعالمها عبد الملك بن حبيب وغالقتها يحيى بن يحيى . وتوفي سنة ٢١٢ **بطليطلة** وقبره بها معروف ، ومحمد بن عبد الله بن عيشون الطليطلي أبو عبد الله كان فقيها وله مختصر في الفقه وكتاب في توجيه حديث الموطأ وسمع كثيرا من الحديث ورواه وله الى المشرق رحلة سمع فيها من جماعة وتوفي **بطليطلة** لتسع ليال خلون من صفر سنة ٣٤١ .

● والأندلس جزيرة والا فليست بجزيرة على الحقيقة لاتصال هذا القدر بالأرض الكبيرة ، وعرض جزيرة الاندلس في وسطها عند **طليطلة** ستة عشر يوما . واتفقوا على أن جزيرة الاندلس مثلثة الشكل ، واختلفوا في الركن الذي في الشرق والجنوب في حيز أربونة ، فممن قال انه في أربونة وان هذه المدينة تقابلها مدينة برذيل التي في الركن الشرقي الشمالى أحمد بن محمد الرازي وابن حيان ، وفي كلام غيرهما أنه في جهة أربونة ، وحقق الأمر الشريف ، وهو أعرف بتلك الجهة لترده في الأسفار برا وبحرا اليها وتفرغه لهذا الفن .

اللغة العربية في مدينة طليطلة

بعد الفتح النصراني ووثائق المستعربين

من المعروف ان اسم « المستعربين » يطلق عادة في دراسات التاريخ على جماعات النصراني المحافظين على ديانتهم على طول العهد الاسلامي ، أى ، القرون التى عرفت أثناءها أرض شبه الجزيرة الايبيرية باسم « الأندلس » . ومن بين هذه الجماعات المتنوعة العناصر المتباينة التطور نجد جماعة مستعربى مدينة **طليطلة** وهى ذات مميزات خاصة منها الانفراد بمواصلة استعمال اللغة العربية كلغة رسمية عند انشاء الوثائق القانونية بعد سقوط **طليطلة** سنة ١٠٨٥ خلال مدة تزيد على قرنين اثنين .

أما الغرض الأساسى من هذه المقالة البسيطة فانما هو القاء الضوء على أحوال العربية لدى هؤلاء المستعربين من جهة وعلى تبين أسباب بقاء العربية لغة متداولة عندهم على مستوى الكتابة من جهة ثانية .

تعتبر حالة جماعة مستعربى **طليطلة** حالة فريدة فى اطار الفتح النصراني وتعمير ما جعله غير عامر من أراضى شبه الجزيرة الايبيرية ، ويرجع هذا الاعتبار الى أن هؤلاء المستعربين لم يدعوا استعمال العربية التى كانت بالنسبة اليهم وسيلة الثقافة وأداء التعبير فى العهد الاسلامي ، وذلك فى سياق سياسى وحضارى يختلف عن السياق الأندلسى والجو الاسلامي السابق اختلافا جوهريا . والبرهان القاطع على حفاظهم المذكور على العربية هو وجود عدد كبير يقرب من ألف ومائتى وثيقة مخصصة لأغراض شتى منها عقود البيع والشراء ومنها الهبات والقروض وعقود الايجار والنكاح والوصايا وهلم جرا . وقد حقق ونشر معظم هذه الوثائق المستشرق الاسبانى المشهور غونثالث بالنتيا González Palencia فى مؤلف هام جدير بالذكر والاحترام (١) .

(١) Los mozárabes de Toledo en los siglos XII y XIII (Madrid, 1926-1930),
أربعة مجلدات .

اننا سنعتمد في هذه المقالة على هذا التحقيق المذكور ، ثم على الدراسة اللغوية المفصلة التي قصدنا فيها تحليل خصائص اللغة العربية المنعكسة في نصوص مستعربى **طليطلة** (٢) لا سيما فيها الملامح الراجع وقوعها الى تأثير العامية الأندلسية في كتابة الوثائق لأنها ، أى ، تلك العامية الأندلسية ، كانت اللغة الأم المتداولة لدى مستعربى **طليطلة** في خلال القرن الثاني عشر م. على أقل تقدير .

فإذا تساءلنا عن سبب اختيار العربية لتحضير هذه الوثائق في الفترة الأولى بعد الفتح النصراني ، أى ، في أواخر القرن الحادى عشر م. والنصف الاول من القرن التالى ، فجميع ما عندنا من الشواهد يدل على أن هذا الاختيار كان في الحقيقة اضطرارا ، نظرا الى أن اللهجة الرومانسية المعروفة عادة باسم mozárabe باللغة الاسبانية لم تكن وقتذاك الا لغة حديث يومى غير صالحة لأغراض الثقافة العليا ، أضف الى ذلك أن اللغة اللاتينية لم يتقنها غير الاقلية النادرة جدا من رجال الدين المسيحيين المثقفين .

ولكن البيئة الاجتماعية المحيطة بالمستعربين كانت ولا بد أن تؤثر تأثيرا ملموسا في أحوالهم اللغوية لأن البعد عن دار الاسلام وعن مراكز الحضارة العربية أدى بهم منذ أواسط القرن الثاني عشر م. الى زوال تملكهم من زمام اللغة العربية والى فقدان قدرتهم على استعمالها الصحيح .

على أن هناك عاملا آخر حبال دون تركهم للعربية ، نعننى بذلك ورود جموع جديدة من نصارى هاجروا من مدن جنوبى الأندلس نتيجة لما تعرضوا له هناك من ظروف صعبة تحت سلطة المرابطين المغاربة المتسلطين على أراضيها في مثل تلك السنين (٣) . فعسى أن ساعد هؤلاء المستعربون الطارئون بثقافتهم العربية الأكثر رسوخا والوسع نطاقا على إبقاء العربية أداة تعبيرية في مدينة **طليطلة** .

وعند حلول القرن الثالث عشر م. وخاصة في نصفه الثانى تغيرت أحوال تلك المدينة تغيرا جليا ، فقد أصبحت اللهجة الرومانسية المعروفة بالقشتالية لغة الحضارة النصرانية أثناء عهد الملك ألفونسو العاشر الملقب بالحكيم في ممالكه ، اذ كانت هى اللغة التى صارت بديلة عن كل من اللاتينية والعربية في جميع مجالات الحضارة سواء أكان ذلك في ترجمة آثار التراث العلمى والادبى العربى أم فيما صدر من مراسم وأخبار وتواريخ مشهورة ودواوين المملكة . وأمست

(٢) I. Ferrando, El dialecto andalusí de la Marca Media: Los documentos mozárabes toledanos (XII y XIII), (Zaragoza, 1995).

(٣) انظر الى J. P. Molénat, L'arabe à Tolède du XIIème au XVème siècle, Al-Qanṭara (XV, 1994) 2, 473-496.

اللغة العربية مقتصرة على تحرير بعض العقود ، ومع أنها لم تخرج في حقيقة الأمر عن كونها عربية ، فإنها تحولت الى لغة مجمدة بعض الشيء لم تعد قادرة على تأدية معانى القانون والحضارة المستحدثة ، مما اضطر المؤلفون المستعربون الى اللجوء الى ألفاظ وعبارات وتراكيب رومانسية ضمن العقود المكتوبة بالعربية ، وفي آخر المطاف أصبحت العربية لديهم لغة ميتة لا رواج لها ، وقد حلت محلها القشتالية .

وهناك عامل اضافي آخر ذو أهمية كبرى حمل على ابقاء استعمال العربية في الوثائق الطليطلية ، وهو أن اللغة العربية كانت لهم بمثابة شعار مشهور يميزهم دون سائر الجماعات النصرانية في طليطلة ، لا سيما المهاجرون من شمالي شبه الجزيرة الايبيرية أو من جنوبي فرنسا ، الذين مع كونهم نصارى أيضا لم يتح لهم ما أتاحة الملك ألفونسو السادس للمستعربين من امتيازات ضرائبية شكرا على معاونتهم معه في تيسير فتح طليطلة ودخولها . فأضفى ذلك على جماعة المستعربين صبغة خاصة ناتجة عن تميزهم بلغتهم العربية وبطقوس دينية مفارقة لشعائر جيرانهم بعض المفارقة ، وباحتفاظهم بقوانين موروثية عن أسلافهم القوط (٤) . فأصبحت هذه المميزات كلها علامة كيانهم لم يريدوا فقدانها ولو اضطروا الى الكفاح والدفاع عنها في بعض الأحيان .

وبعد محاولتنا هذه لتحديد الدواعى المؤدية الى مواصلة الكتابة بالعربية بعد الفتح النصراني ، يجب علينا أن نعرف بأوصاف اللغة المنعكسة في الوثائق المذكورة ، وانما مقصدنا الآن هو أن نجيب على الأسئلة الآتية : هل نحن أمام لغة فصيحة أم عامية ؟ هل هى لغة خاصة بالثقفيين دون غيرهم أم لا ؟ وهل هى لغة مكتوبة فحسب أم لغة الحديث اليومي ؟ اذا أردنا اجابة على هذه الأسئلة المطروحة فمن المفروض علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أن غرض المؤثقيين عند تحرير الوثائق والعقود انما هو دائما وبلا استثناء الارتقاء الى أعلى مستويات اللغة ، أى ، العربية الفصحى بما لها من قواعد واعراب . هذا أمر طبيعى معروف ، فقلما نجد نصوصا رسمية أو قانونية مكتوبة بلغة تبعد عن مقاييس الفصحى وأبنييتها . ومن المعروف أن الناطقين بالعربية قديما وحديثا يستهدفون فى الغالب وعلى الرغم من الازدواج اللغوى الى استعمال المستوى الأعلى ، أى ، الفصحى فى جميع مكتوباتهم مهما كان نوعها فى حين أنهم مستخدمون للعامية ، أى ، المستوى الأسفل لأغراض غير متعلقة بالثقافة العليا من معاملاتهم اليومية وحديثهم العادى .

(٤) هذا القانون هو المعروف عندهم باسم Fuero juzgo

ومن الأدلة التي تبين أن الأساس اللغوي في تحرير الوثائق لا يختلف اختلافا مبدئياً عن اللغة الفصحى يعد وجود عدة ظواهر لسانية لا يمكن نسبتها الى النظام اللغوي العامى حسبنا أن نذكر منها بعضها كما يلي :

- ١ - التزام واع للاعراب في أغلب الأحيان مع الحفاظ على حصيلته الوظيفية
 - ٢ - ابقاء الالف المقصورة والالف الممدودة من علامات التأنيث .
 - ٣ - وقوع المثني في حالات غير منحصرة في أعضاء الجسم المزدوجة وأسماء الاعداد وأمثالها فقط ، وتجاوز ذلك الى أسماء أخرى بل وفي الألفاظ السدخيلة .
 - ٤ - أما مضارع الأفعال فما زالت ترد منه في هذه الوثائق صيغها الثلاث من مرفوع ومنصوب ومجزوم مع أن النصوص محتوية على بعض الأخطاء والاختلاط فيما بينها .
 - ٥ - الاستمرار في استعمال الأفعال المزيدة بالالف للدلالة على التعدية على خلاف المعتاد في لغة أكثر المولدين .
 - ٦ - تغلب على لغة هذه الوثائق مطابقة الاسماء والافعال المعهودة في الفصحى وتفضيلها على لغة «أكلوني البراغيث» .
- ان هذه القائمة وان كانت غير كاملة ، تدل دلالة وافية على أن الخضوع لقواعد الفصحى ومقاييسها هو في الواقع من أبرز مميزات لغة وثائق المستعربين على خلاف ما ادعاه المشتسرق الفرنسي ج. ب. مولينا J. P. Molénat (٥) ، القائل بأن « المستوى اللغوي الوحيد المجسم في وثائق المستعربين هو مستوى العامية » وبأن « عربية المستعربين المدونة لم تكن لغة رسمية على الإطلاق » . ونحن نرى عكس ذلك ، أي ، أن مثل هذه الوثائق لا يجوز تدوينها - بطبيعة الأمر - بغير لغة فصيحة شائعة ذات شهرة وشأن .
- مع ذلك كله ، وبعد تصفية الشكوك الخاصة بالمستوى اللغوي الذي هو قوام الوثائق الطليطلية ، فان ثمة واقعا آخر لا ينكر ، وهو أن نية محرريها ، أي ، كتابة وثائق نموذجية من حيث اللغة لم تتحقق تماما ، ان تتخللها أخطاء في جميع أبواب اللغة من رسم وصرف ونحو ومعجم مما يطلعنا على كفاءتهم المحدودة ، وما لقوا من مصاعب عند تصديهم لهذه المهمة .

(٥) في البحث المذكور نفسه ص ٤٨١ - ٤٨٢ .

ويمكننا تقسيم هذه الأخطاء التي حرمتهم من درجة الاتقان لعملهم الى ثلاثة أصناف ، أولها التصحيحات وثانيها الظواهر العامية وثالثها التأثير باللهجات الرومانسية اما القشتالية واما اللغة المعروفة بالأعجمية ، أى ، رومانسية الأندلسيين .

— أما الصنف الأول وهو ما يسمى بالتصحيحات المزورة أو Pseudocorrecciones فإنه منقسم الى نوعين مختلفين .

أ — أولهما التصحيح المائل الى المستوى الأسفل infracorrección وهو قريب من اللحن ، أى ، استعمال صيغ شبيهة بالصيغ العامية عوضا عما يقابلها بالفصحى لجهله أو نسيانه .

ب — وثانيهما التصحيح المائل الى المستوى الأعلى أو ultracorrección وهو قريب من التفصح ، أى ، اتخاذ صيغ فصيحة في غير محلها وذلك تجنيبا للصيغ العامية الموافقة للفصحى على غير وعي بذلك من الناطق أو الكاتب ، ضرب مثلا استعمال «مفاعيل» للجمع بدلا من «مفاعل» في مثل «المرافيق» أو «الوامير» عوض «مرافق» و «أوامر» ، وذلك خوفا من الخطأ المعاكس الكثير الوقوع عند قولهم «المفتاح» مثلا بدلا من «المفاتيح» ، أو كقولهم «للبايعان» أو «الى البايعون» ، علما منهم بأن علامتى الرفع في الجمع السالم والمثنى قد اختفت من كلامهم ، ان استبدلت بهما علامتا النصب والجر في جميع الحالات ، الامر الذى جعلهم يقولون «باع البايعين أو البايعين» .

— أما تأثير لغة الوثائق بالعامية ، فانما سبب ذلك أنها ، وليست الفصحى ، كانت لغة الأم لجماعة المستعربين الى أواخر القرن الثانى عشر م. على حسب تقديرنا . ومن عواقب هذا التأثير وقوع خصائص عديدة منتمة الى النظام اللغوى المخالف للنظام الفصيح . نقدم منها فيما يلى كشفا ملخصا خاصا بأبواب اللغة المختلفة :

١ — فى باب الأصوات ، تنعكس الامالة الأندلسية على درجتها الأولى ، أى ، حدوث صوت متوسط بين الألف والياء أو بين الفتح والكسر [e] فى كتابة الاسماء الرومانسية التى يقع فيها صوت [e] فى مقطع منبور تقابله ألف فى الرسم العربى مثلا «طراشة» Teresa ، «بلانسية» Valencia ، «اشتافن» Esteban . أما الدرجة الثانية من الامالة ، وهى حدوث الياء أو الكسر بدلا من الالف أو الفتح ، فليس عندنا ما يكفى من الشواهد والأدلة القاطعة ، ان لم نجد الا كلمات رومانسية مكتوبة على ظهر بعض الوثائق يقابل فيها الحرف الرومانسى [i] ألفا عربية : Bisagra وهو باب الشقرة ، و Dirabengaz وهى دار ابن غاز ، و Gerindote

وهو جنان داود ، وهناك اختلاط كثير في رسم الدال والذال مما تتولد كلمات غريبة الرسم مثل «الذليل» ، و «حذود» ، و «عزاده» ، و «مذكور» ، و «الدى» ، و «دهبا» . وأخيرا نشير الى أن ايقاع العربية المتولد من الشعور بطول مقاطع الكلام قد استبدل به في حزمة اللهجات الاندلسية ايقاع معتمد على تناوب وقوع النبرة ، أى ، الضغط التنفسي عند التلفظ ببعض تلك المقاطع (٦) . فمن آثار هذا التغير الايقاعي تقصير المقاطع غير المنبورة مثل ما نلاحظ في «المبتعون» ، و «المنادة» و «السنهجين» بدلا من «المبتاعون» ، و «المنادة» و «السنهجين» . وبالعكس يقع تطويل المقاطع المنبورة مثلا «يكتب» ، و «أسفال» و «مسليم» عوض «يكتب» ، و «أسفل» و «مسلم» .

٢ - باب تصريف الأسماء والأفعال . مما يجدر ذكره في هذا الباب استخدام وزن «فعال» اسما لصاحب الحرفة مثلا «براج» ، و «جمار» ، و «لبار» و «قواس» وربما استعملوا وزن «فعالي» ولعله راجع الى تأثير العربية الجنوبية البائدة ، مثلا «قرمادي» ، و «حمامي» ، و «كتاني» . وكذلك نجد المثني التحليلي ، أى ، المركب من كلمة «زوج» ومن صيغة الجمع مثلا «زوج بيوت» و «زوج مرافق» بدلا من بيتان» و «مرفقتان» . ومن نفس الباب أن ضمير المتكلم المفرد من الفعل المضارع يرد في بعض الاحيان نونا مثلا «ناخذ» وان كان جمعا فالحقت به الواو مثلا «نصطادوا» حسب القاعدة المطردة في اللهجات المغربية . أما الافعال المزيدة فيلاحظ أن وزن «أفعل» قد انخفضت نسبة استعماله وقام مقامه وزن «فعل» مثلا «جوز» و «زول» عوض «أجاز» و «أزال» . أما الفعل المبني للمجهول فربما تؤدي معناه أفعال مزيدة بالتاء أو النون ، فنجد مثلا «تكتب» و «انبا» بدلا من «كتب» و «بيع» مع ملاحظة أن الصيغة الفصيحة أكثر شيوعا وانتشارا .

٣ - باب التراكيب . ان الخصائص التي ينعكس فيها نظام اللهجة في التركيب هي ظهور ما يسمى «بتنوين الربط» «ا» الذي يربط بين الاسم وصفته في كل المواقف وليس فقط في حالة النصب : «وفيه أرض ان بيضاء» ، «هي الآن غرس ان غرسه» . أما الاضافة فنجدها أحيانا على صيغتها التحليلية المركبة من حرف «متاع» والمضاف : «الأرض متاع القصيل» ، «الجينة متاع الدير» وهلم جرا . يستخدم كذلك حرف «ل» للتعبير عن المفعول به : «غفر الله له» ، «ورأيا لشنجه» (٧) .

(٦) وفقا على ما اقترحه في كتابيه F. Corriente, A grammatical Sketch of the Spanish Arabic dialect bundle (Madrid, 1977), 3.1.1., F. Corriente, Arabe andalusí y lenguas romances (Madrid, 1992), 2.1.3.1.2.

(٧) شنجه اسم من اسماء النصارى .

ومن الجدير بالذكر وجود السابق الفعلي «ك» للتعبير عن المستقبل المحتمل أو المستحيل من جهة : «المال الذي سيكون له في المستقبل» ، «أتفق أن كياخذ» ومن جهة أخرى للدلالة على الحاضر أو العمل المستمر ، كما هو الحال في بعض لهجات المغرب : «حيث كنتدبح الكباش» . أما الضمير العائد في الجمل الموصولية ، فتحذف بكثرة : «الدارين التين ذكرنا» ، «الغرس الذي اغترس ولد الباي» . وفي الأخير نلاحظ أداة النفي «لس» الموجودة في نصوص أندلسية أخرى .

— أما القسم الثالث من الصعوبات اللغوية فهو تأثير اللغة الرومانسية التي قامت بدور الطبقة السفلى *adstrato* أولا والطبقة المجاورة *adstrato* ثانيا . أنه لا بد من وجود آثار لغوية ترجع الى هذه اللغة الرومانسية المتولدة المشتقة عن اللاتينية العامية وهي المعروفة لدى الباحثين الغربيين باسم اللهجة المستعربية التي كانت فيما سبق اللغة الأم للمستعربين قبل اتخاذهم العربية وسيلة للثقافة وآلة للتفاهم . وما زالت — على ما يبدو لنا — هذه اللغة تتداول فيما بعد لكنها عاشت ظروفًا صعبة وانحطاطًا جعلها لغة مقتصرة على مرتبة الدونية تجاه العربية . ان آثار هاتين الطبقتين تكمن في صيغ وظواهر تميل ميلا الى الاندماج في النظام اللغوي العربي الاندلسي . بيد أن هناك طبقة لغوية أخرى وهي اللغة القشتالية التي أصبحت تسيطر على سائر اللغات في المنطقة انطلاقًا من القرن الثالث عشر م. وهي التي قامت بدور الطبقة العليا *superestrato* وآثارها ليست مندمجة في القواليب الاندلسية الا نادرا . ومن التأثيرات الموجودة في الوثائق .

أ — على مستوى الأصوات اقتباس الفونيمين الرومانسيين /p/ و /c/ الهامشي الوظيفة ليس في الكلمات الدخيلة الرومانسية الأصل فحسب ، بل في كلمات عربية بحتة . والميل الشديد الى اسقاط التقابل الفونيمي بين الدال والذال ، واستعمال النبرة عوض الكمية كالاساس الايقاعي الرئيسى ، وامتداد التفخيم الى الأصوات المرفقة المجاورة للأصوات المفخمة بما في ذلك من اعتبار التفخيم فونيميا فوق مستوى الوحدات *suprasegmental* . أو ، في نفس الاطار ، اسقاط التفخيم .

ب — على مستوى التصريف عدم تفريق الجنس النحوى في مخاطب الفعل المضارع المفرد أو الأمر من أمثال «وقال لها : اخرج» ، «تريد (للمؤنث)» ، واستعمال اسم المفعول بدلا من اسم الفاعل في الأفعال اللازمة : «مبطولة» ، «مصلوحة» ، واستخدام بعض اللواحق الرومانسية الأصل في كلمات عربية : «صخيرة» وهي صخرة صغيرة والكلمة العربية الحق بها لاحق التصغير الرومانسى /—ol/ ، /—uel/ ، أو في كلمات غير عربية الاصل مندمجة في العربية :

«شدكون» أو شادكة كبيرة وذلك عن طريق لاحق التكبير الرومانسي /—on/ .

ج - من التأثيرات الأساسية على مستوى التركيب التردد في اختبار الجنس النحوي لبعض الأسماء مثل «البير» التي ترد مذكرا في بعض الاحيان : «بير مر» وذلك اعتمادا على كونه مذكرا في الرومانسية ، أو «باب» و «كرم» الذان يأتيان مؤنثين مرات ومذكرين مرات أخرى : «الباب الشارعة» ، «الكرم المذكورة» لأن الجنس الرومانسي لهتين الكلمتين هو المؤنث . وكذلك نجد بعض الحروف على معانيها ووظائفها العادية في الرومانسية المختلفة عن المعاني العربية : «من» و «ل» وذلك نتيجة عن ترجمة مباشرة غير جدية للتركيب الرومانسي . ومن الجدير بالذكر أن فعل «كان» نجده في مواقف لا يتوقع وجوده فيها في العربية لكنه مفروض الاستعمال في الاسبانية . أضف الى ذلك عددا لا بأس به من تراكيب تحاكي التراكيب الرومانسية دون العربية (٨) .

د - ان التأثير الرومانسي على مستوى المعجم يجب اعتباره تأثيرا مهما بدون شك ولا ريب مع ملاحظة أن تحديد أبعاده المعينة ليس بعمل سهل ، على غرار ما قيم به مع المسردين الأندلسيين المشهورين لبيطره ذي الكالا وريمند مرتي اللذين لا تزيد فيهما نسبة الكلمات الرومانسية الاصل على خمس بالمائة (٩) لامعان النظر في هذا الموضوع ينبغي قراءة مقالة من مقالاتنا (١٠) حيث تتوفر قائمة كاملة فيها الكلمات الرومانسية الاصل في وثائق مستعربى طليطلة واطافة الى القائمة توجد ملاحظات وتعليقات شتى فيما يخص أصل هذه الكلمات وتأريخها ، وتقسيمها من حيث مجال دلالتها . والمجال الذي كثرت فيه الكلمات الرومانسية الدخيلة هو مجال المصطلحات الدينية . أما مجالات التقنية والمواد والملابس فهي على أنها مهمة لا تصل الى نفس الدرجة في الأهمية . والمجال الأقل اقبالا للدخيل هو مجال الطبيعة وعلم الاحياء .

وبعد أن قدمنا الملامح العامة للغة الوثائق الطليطلية ، نستطيع أن نحاول تحديد المستوى اللغوي الموجود فيها تحديدا أدق . كما سبق ذكره . تشكل هذه الوثائق مجموعة مميزة الاسلوب بلغة تقرب من الفصحى ، لكن بوقوع عدد كبير من سمات عامية الموثقين ، وعدد لا بأس به من التصحيحات الراجعة الى انقطاع محرري الوثائق عن مصادر الحضارة العربية الاسلامية المعاصرة ، الى جانب

(٨) قد شرحنا البعض من هذه التراكيب المقلدة في كتابنا المذكور آنفا ، ص ١٠٠

(٩) انظر الى كتاب الاستاذ كورينطي السابق الذكر F. Corriente, *Arabe andalusí y lenguas romances*, 141-142.

(١٠) I. Ferrando, «Los romancismos de los documentos de Toledo», *Anaquel de Estudios Arabes* (VI, 1995), 71-86.

مقتبسات عديدة عن اللغات المجاورة لها . كل هذا يجعل من لغة الوثائق في آخر المطاف لغة قريبة من النظام اللغوي الذي عرفه الباحث اليهودي ي . بلالو باسم «العربية الوسطى» (١١) مع ملاحظة أنه ليس عندنا مستوى لغوي محدد متجانس بل بالاحرى عدة ظواهر لسانية تتخلل نصوصا تهدف الى المستوى الفصيح .

وعلى صعيد آخر من المهم أن نواجه الآن قضية أخرى من القضايا المثيرة للكثير من الجدل لم نأخذها بعد بعين الاعتبار في هذه المقالة وهى : أظلت العربية لدى مستعربي طليطلة أداة للتفاهم والتعامل اليوميين ؟ من الحجج التى يدلى بها عادة على هذا البقاء نجد أولا كل الخصائص المنتمية الى النظام اللغوي العامى السابقة ذكرها ، وثانيا وجود بضع فقرات في الوثائق تعيد حوارا أو مناقشات يومية حية سجلت بلغة تقرب من العامية ، والهدف من ذلك تدوين كلام الناس كما جرى لاثبات صحة الوثيقة القانونية المحتوية عليه . فهذا ما نلاحظه على سبيل المثال في الوثيقة رقم ١٠٠١ الى تحررت عام ١١٩٧ حيث نشاهد مناقشة بين شخصين بخصوص رد مال قرض . في هذا الحوار نجد الكثير من ظواهر العامية الاندلسية مثل اسباق المتكلم من الفعل المضارع بالنون : «ناخذ» ، و «نبيعه» الى آخره . من الاكيد أن مثل هذا الحوار أستعملت فيه اللغة العامية وليس الفصحى (١٢) ، وهذا هو سبب تسجيله عن طريق عبارات وكلمات عامية . والحجة الثالثة مضمرة في جملة موجودة في أسفل الوثائق ابتداء من أواخر القرن الثانى عشر م . نصها : «فسر عليهم بلسان عجمى فهموه واعترفوا بفهمه» ونحن نعتقد أن المراد بهذه الجملة أن بعض الشهود لم يعودوا يفهمون العربية فهما كافيا وكانوا اذا في حاجة الى ترجمة أو تفسير بلغة أعجمية . ويبين ذلك فيما نظنه أنه قبل هذا الوقت كان كل واحد من المستعربين في مدينة طليطلة قادرا على فهم العربية والتكلم بها . وهناك حجة أخرى تؤكد بقاء العربية لغة حديث وهى ما ذهب اليه بعض الباحثين (١٣) من أن اللهجة المستعربية الرومانسية كانت على وشك الانقراض في أيام الفتح النصرانى فصارت العربية الوسيلة الوحيدة

(١١) انظر الى كتابه J. Blau, *Studies in Middle Arabic and its Judaeo-Arabic variety* (Jerusalén, 1988).

(١٢) ولا اللهجة المستعربية الرومانسية كما ادعاه الباحث الاسبانى غالميس وهو يرى أن لغة المناقشة المذكورة كانت المستعربية ، وذلك في المقالة الآتية :

A. Galmés, «La lengua de los mozárabes de Toledo: un diálogo en la calle», *Simposio Toledo hispano-árabe* (Toledo, 1986), 135-151.

(١٣) من أمثال D. J. Wasserstein, «The language situation in al-Andalus», *Studies in the muwašṣah and the kharja* (Oxford, 1991), 1-15 J. P. Molénat, في المقالة المذكورة ، ص ٤٨٣

للتفاهم حينذاك نظرا الى أن اللاتينية لم تخرج عن كونها لغة الدين المجمدة من جهة وأن القشتالية لم تزدهر بعد من جهة أخرى .

وفي ختام هذه الكلمات البسيطة نقول على وجه التلخيص ان الاحوال اللغوية لدى مستعربى مدينة طليطلة في القرنين الثانى عشر والثالث عشر م. تميزت بتعايش العربية والرومانسية . لكن العربية التى كانت اiban القرن الثانى عشر اللغة السائدة المسيطرة على سائرهما ، بدأت انطلاقا من القرن الثالث عشر م. تفقد شهرتها ويندر استعمالها المتسع سابقا على جميع ميادين النشاط ويقل شأنها تجاه اللغة القشتالية الجديدة بالرغم من حسن بلاء المستعربين فى الدفاع عن كيانهم وتقاليدهم ومنها استعمال العربية .

اكنائيو فيراندو

الحضور الاسباني في شعر عبد الوهاب البياتي

أهدى هذا المقال الى طليطلة عرفانا مني بدورها المنسى بشكل شبه كامل في التراث العربي الحديث ابداعا وفكرا . ومن العجيب أن هذا النسيان يكشف عن غيبة الاستراتيجية العربية وعن لون من الاتباع حتى في الابداع ؛ فقد سقطت طليطلة مبكرا وبسقوطها كان شيئا لم يكن ، وكأنها لم تستمر بلغتها العربية . بل وبعض طقوسها الاسلامية . وكأنها لم تكن خلية نحل لأعمال الترجمة ونقل عناصر التفوق العربية مطورة الى باقى اسبانيا والى كل الغرب .

لم تعط المصادر العربية القديمة طليطلة حقها بسبب سقوطها المبكر واتباعا لهذه الغيبة الطليطلية في المصادر العربية غابت في العصر الحديث . ومن هنا جاء تصوّر لهذه الاتساعية العربية في عصر رأسماله الابداع . ويؤيد ذلك أمران : الأمر الاول النصوص العربية الكلاسيكية التي تظهر في هذا العدد من مجلة المعهد المصري . أما الثاني فهو هذا المقال الذي اكتبه عن شاعر عاش فترة غير هينة في اسبانيا ، ولعله أكثر الشعراء المعاصرين احتفالا بالتراث الاندلسي وبالحاضر الاسباني واستخداما له في شعره .

ومع ذلك فلا نرى لطليطلة في أشعاره أثرا يتناسب مع دورها التاريخي . ومن ثم فهذا المقال شاهد على ذلك . وهو دعوة مني للتأمل في تاريخ هذه المدينة التي كانت مفصلا للنقل من الحضارة العربية وقود حضارة جديدة . فهل ينشأ اليوم مركز عربي لتصنع المستقبل العربي كما صنعت طليطلة المستقبل العربي منذ قرون غير بعيدة ؟ أقصد مركزا للترجمة الواعية ذات الاهداف الاستراتيجية مثل ترجمات طليطلة التي أشار أميركو كاسترو ، في تاريخه لاسبانيا الاسلامية ، الى خصوصية هذه الترجمة التي لم تكن حرفية . بل كانت تختار ما يفيد وما يكون نواة للجديد .

* * *

ثمة اهتمام جلي باسبانيا ظهر مبكرا لدى عبد الوهاب البياتي ، في شعره ونثره ، فمدن كمدريد وغرناطة وقرطبة وطليطلة أخذت تطل على قراء شعره في مساحة معاصرة منذ دواوينه الأولى ، مخالفا آخرين من مجاليه وسواهم في تناول الموضوعات الأندلسية المطروقة في الشعر العربي المعاصر .

وحظيت هذه الحواضر الاسبانية بحضور بارز الى جانب مثقفين ومبدعين من بينهم سلفادور دالى وبيكاسو وفديريكو غارثيا لوركا ورفائيل ألبرتي وأنطونيو ماتشادو ، وأحداث سياسية اجتماعية كالحرب الأهلية الاسبانية (١) .

(١) نود الإشارة الى أن البياتي ظل يتردد . بصفة يومية طوال عقد الثمانينات . على مقهى ذي طابع شرقي في وسط العاصمة الاسبانية ، وكان نقطة التقاء لمريدى الشاعر العربي من عرب وأجانب، ومع مرور الوقت نسي الناس اسم المقهى «فويما» Fuyma « واطلقوا عليه تسمية «مقهى البياتي»، وكان البياتي قد اختاره لأنه كان يذكره بمقاهى الشرق العربي . غير أنه تحول في منتصف التسعينات الى محل أمريكي مجاورة لروح العصر !

هذا اضافة الى عناصر وشخصيات هيسبانية ، أى من الدول الناطقة بالاسبانية : كالشاعر المكسيكى أوكتابيو باث والشاعر التشيلى بابلو نيرودا والرئيس التشيلى المغدور سلفادور الليندي ومواطنهما الرسام روبرتو متا ، والشائر الأسطورة تشي غيفارا ورفيق دربه الكوبي فيدل كاسترو ، والبطل الثورى المكسيكى اميليانو زاباتا ، ولا عجب من هذا الزخم الهيسباني ، من اسبانيا وأمريكا الناطقة بالاسبانية ، فهذه القارة بكل ما فيها من ثورات وانكسارات تمثل انسان القرن العشرين بأماله وهمومه ومآسيه الذى يعد بدوره الهم الاول للبياتي شاعراً وانساناً ، فى قرن تآزرت فيه سبل الظلم والبربرية ضد الانسان ، وكلها قضايا تمثل محور شعر البياتي .

والحضور الاسبانى من خلال الحرب الاهلية بمضاعفاتها : الدور البطولى للعاصمة الاسبانية مدريد فى المقاومة ضد الفاشيست واغتيال فدريكو غارثيا لوركا فى الايام الاولى لاشتعالها وما ترتب على حسمها لصالح اليمين من تشريد للجمهوريين ، الى جانب الرموز الهيسبانية ، كلها تدخل فى سياق الرؤيا - وليست الرؤية - الاجتماعية والتاريخية لشعر البياتي التى تتمحور حول القوى الصاعدة وهى «تصنع التاريخ وتقاتل ضد القوى التقليدية الراكدة» حسبما يشير الدكتور محيى الدين صبحى فى دراسته القيمة عن الرؤيا فى شعر البياتي (٢) . لهذا فان اعمال البياتي لهذه الرؤيا واسقاطها على هذا السياق الاسبانى والهيسبانى جاء فى لحظة تاريخية تلاقت مع فكره السياسى .

غير أن هذا الحضور أو اهتمام البياتي باسبانيا لا يرتبط بالحنين لما هو أندلسى على عكس شعراء وكتاب عرب آخرين قصرُوا هذا الجانب على وصفه بعضهم بالفردوس المفقود ، أى الأندلس أو ما اعتبره نزار قباني «وجعا تاريخيا لا يحتمل» . وبالرغم من أن اهتمام البياتي انصب فى اسبانيا المعاصرة فان الأندلس ظهرت فى مرحلة متأخرة فى شعره على أثر زيارة قام بها لهذا البلد فى مطلع شهر نوفمبر ١٩٧٣ بعد انتهاء منفاه القاهري وعودته الى بغداد . وكانت تلك الزيارة ، اضافة الى الصداقات التى كانت تجمعها ببعض المثقفين الاسبان ، سبباً فى اختياره مدريد للعيش فيها طوال عقد الثمانينات .

كانت محطته الاسبانية هذه بمثابة تجربة غنية قربته من بعد آخر لما هو هيسبانى أو أمريكى لاتينى . اضافة الى اقترابه المادى والفكرى من أمريكا اللاتينية الذى أسفر عن قصائد فى ديوان «بستان عائشة» ، فضلاً عن ترجمته

(٢) د. محيى الدين صبحى ، الرؤيا فى شعر البياتي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٨ ، ص ٢٨ .

بعض قصائد الشاعر المكسيكي أوكتابيو باث وغارثيا لوركا في أحد كتب محطته الأردنية «رسالة الى ناظم حكمت وقصائد أخرى» .

وقد فاق حضور اسبانيا في شعر البياتي حضور أى بلد أجنبي آخر ، بل فاق حضور بلدان عربية كثيرة ، حتى ليتمكن مقارنته بحضور بلد آخر يعشقه البياتي هو مصر ، وان كان لأسباب مختلفة في حالة عن أخرى ، من بينها وضع ماضى مصر وحاضرها في الوطن العربي وفترة المد الثورى والقومى التى عاشها الشاعر العراقى في القاهرة عبد الناصر .

بيد أن مدريد وغارثيا لوركا هما العنصران الهيسابانيان اللذان سيحظيان بنصيب الأسد في هذا السياق في شعر البياتي ، وذلك لأسباب عقائدية واضحة ، فالدور البطولى لمدريد في الحرب الاهلية و «حفيد هوميروس» المغدور على يد الفاشيست كانا مما لا شك وراء هذا الاهتمام البارز من قبل البياتي .

مدريد

احتلت الاشارات الاسبانية مكانا بارزا ومبكرا لدى البياتي ، ففي أول ديوان له في المنفى «المجد للأطفال والزيتون» برزت مدريد الى جانب طهران وشيكاغو في قصيدة «رفاق الشمس» لتكون صرخة من أجل الحرية في المدن الثلاث التى جمع بينها قهر الانسان . الا أن العاصمة الاسبانية تظهر في هذه القصيدة مدينة مفتوحة اذ لها أبواب ، وهى ميزة تفتقر اليها المدينتان الأخريان :

وعلى أبواب مدريد انتظرنك طويلا
ولعينيك ، رفيق الشمس ، خضبنا الحقولا
وافترشنا الأرض في أسواق طهران القديمة
وأكلنا الشوك والصبار في أحياء شيكاغو الدميمة

* * *

انه الشمس التى من أجلها ناضل آلاف الرفاق
في الهوى تشرق ، في ليل العراق
وعلى أبواب مدريد ، وفي أسواق طهران القديمة
وعلى الموتى ، وفي أحياء شيكاغو الدميمة (٣)

وكانت هذه أول مرة يقترب فيها البياتي من مدريد ثم واصل استدعاءها في ديوان «كلمات لا تموت» لتشاركها في ذلك موسكو ونهر الفولغا الى جانب لينين في

(٣) عبد الوهاب البياتي ، الاعمال الكاملة ، المجلد الاول ، ص ٣١٠ - ٣١١ ، دار العودة بيروت .

قصيدة مهداة الى مكسيم غوركي لأسباب أيديولوجية معروفة عن هذا الشاعر العربى . لقد كانت مدريد للكثير من مثقفى العالم ، اليساريين منهم ، رمزا للحرية والصمود في وجه الفاشست ، انطلاقا من دورها في الحرب الاهلية الاسبانية . الا أن البياتي اتخذ منها موقفا عدائيا في بعض الأحيان ، وهو موقف يدخل في اطار موقفه هو وجيله الشعري من المدينة عامة . لم يكن اختيار هذه المدينة صدفة ، بل للطابع السياسى الذى اكتسبته أو لعبته في الحرب الاهلية التى تركت بدورها حضورا مكثفا لها في آداب العالم المعاصرة .

ولم يقتصر حضور مدريد في شعر المنفى لدى البياتي على المدينة بعينها ، اذ تضمنتها قصائد أخرى كتلك التى خص بها الفنان الاسبانى العالمى بابلو بيكاسو والتى يربط فيها مدريد بالجرجر وحقائب السفر ، رحيله وسفره الدائم بين جغرافية العالم حيث ذاق مرارة المنفى والغربة بمعنيهما المادى والفلسفى . وتصل به المزاوجة بين هذه المدينة الرمز والبعد الغنائى في قصيدة «الى هند» ، شريكة حياته ، اذ تزاخم في أهميتها بغداد التى يحن اليها في منفاه القاهري ، في منتصف الستينات ، دون أن يفوته تضمينها بعدا رومانسيا في اطار السياق العام للقصيدة :

عينك مدريد التى استعدتها

عينك قندهار

بحيرتان عبر غابات النخيل وسهوب النار (٤)

مدريد - غارثيا لوركا

غير أن البياتي عند معالجة جريمة اغتيال الشاعر فدريكو غارثيا لوركا في قصيدة «الوريث» يلصق بالعاصمة الاسبانية تهمة مشاهدة جريمة اعدام «حفيد هوميروس» رميا بالرصاص ، في اشارة واضحة الى الشاعر الغرناطى ، والمعروف أنه قتل بطريقة مجانية وعبثية على يد قوات الحرس المدنى الموالية للجنرال فرانكو في غرناطة ، لأسباب ليست محسومة الى اليوم ، ابان اشتعال الحرب الاهلية الاسبانية (١٩٣٦ - ١٩٣٩) ، وان كان من الثابت أن الحسد والغيرة اضافة الى أشعار كتبها صديقه رفائيل ألبرتى ضد الفاشست ونسبت الى غارثيا لوركا - بثتها اذاعة الجمهورية ونشرتها المجلة اليسارية El Mono Azul «بدلة العمل الزرقاء» - كانت من الاسباب الرئيسية لهذه النهاية المجانية لأعظم شاعر اسبانى في النصف الاول من القرن العشرين .

(٤) المجلد الثانى ص ٢٠٥ .

ومما لا شك فيه أن الشاعر العربى العراقى كان على دراية بأن نظيره الغرناطى اغتيل فى مسقط رأسه ، الا أنه كان يهدف الى تأكيد موقفه الآتى ازاء هذه المدينة التى يشعر ازاءها بكراهية عابرة ، ففى القصيدة نفسها يشير الى ارم ذات العماد المدينة الأسطورية التى صب عليها الله غضبه لخطاياها حسب النصوص الدينية . وبالرغم من ذكر هذه المدينة الظالم أهلها فان البياتى لم يرغب فى مقارنتها بمدرید وان كان قد أضفى على هذه الأخيرة طابعا عدوانيا فى بعض أشعاره .

والبياتى بإشارته غير المباشرة الى غارثيا لوركا بأنه «حفيد هوميروس» ، وهى صفة تنسحب على كافة الشعراء ، يضيف بعدا آخر على ما هو اسبانى فى نتاجه الشعرى . وابتداء من هذه القصيدة ، من ديوان «الذى يأتى ولا يأتى» ، اكتسب الشاعر الغرناطى حضورا مكثفا طغى على كافة العناصر الاسبانية والهيسبانية عند البياتى الذى لم يكتف بوصفه السابق له فأضاف اليه نعتا هو «آخر السلالة» موحيا بذلك بأنه منقطع النظير بين أقرانه ، ليؤكد على مرتبته العالية بين من تعاملوا مع الكلمة الشعرية فى العالَم المعاصر . ويعد غارثيا لوركا من أكثر الأقنعة التى لجأ اليها البياتى ووظفها فى نتاجه ، خاصة فى شعر المنفى :

تنقطع الجذور

وأخر السلالة

حفيد هوميروس فى مدرید

يعدم رميا بالرصاص ، ارم العماد

تغرق فى ذاكرة الأحفاد

مات المغنى ، ماتت الغابات

وشهر يار مات (٥)

ظلت أشعار البياتى تغازل مدرید ابتداء من ديوانه الثالث ، «المجد للأطفال والزيتون» ، حتى دواوينه الأخيرة ، لتظهر مقترنة بموضوع اسبانى آخر ذى شعبية واسعة هو مصارعة الثيران دون أن يتخلل عن استذكار غارثيا لوركا الذى يموت مناضلا فى هذه المدينة . وتظهر مدرید على صلة بكل ما هو غير مرغوب من ظلمة الليل أو الظلم والموت والتشوه والعوز ، ففيها يموت الفنان ، الشاعر ، ليعت فى مكان آخر تحت أقنعة جديدة بحثا عن مملكته المفقودة فى هذه المدينة . وهى أحاسيس تقاسمها البياتى مع كتاب اسبان ذاقوا مرارة المنفى وضاجعوا الهزيمة ، هزيمة الجمهوريين فى الحرب الأهلية ، ومن بينهم الشاعر

(٥) المصدر نفسه ص ٢٤٩ .

رفائيل ألبرتي ، صديق غارثيا لوركا وآخر شاعر على قيد الحياة من جيل الـ ٢٧ ،
الذي يوشك أن يتم قرنا ، اذ ولد في نهاية سنة ١٩٠٢ ، وفي هذا السياق يقول :

يكتب فوق حائط السجن ، وفوق جبهة المدينة
أشعاره الحزينة
مناضلا يموت في مدريد
مضرجا بدمه وحيد
تحت قرون الثور أو في ساحة الاعدام
* * *

رأيته : يولد في مدريد
في ساحة الاعدام أو في صيحة الوليد
متوجاً بالغبار
تحوم حول رأسه فراشة من نار (٦)

هذا دون أن ينسى البياتي محاكاة شخصية أدبية اسبانية أخرى هو دون
كيخوتي في منازلة أعداء الانسانية والحرية ممتطيا صهوة فرسه الخضراء .
ويواصل الشاعر مشاعره العدائية تجاه العاصمة الاسبانية ليضعها في مصاف
مدن الثورات المغدورة ، وكان الشاعر الأمريكي اللاتيني تشي غيفارا ، بما يعنيه
في هذا السياق ، الرمز المناسب لتحقيق مقصده بهذا الصدد . ويصل الى ذروة
هذه المسيرة في ربطها بالليل حالك الظلام والنار ، في اشارة واضحة الى واقع
البلاد السياسي الرازح تحت وطأة النظام الشمولي للجنرال فرانكو الذي أشعل
نيران الحرب الاهلية بانقلابه على الجمهورية الثانية ليأتى عليها ، ويئدها وهي
في المهة :

في زمن المنشورات السرية ،
في مدن الثورات المغدورة ،
«جيفارا» العاشق في صفحات الكتب المشبوهة
يثوى مغموراً بالثلج وبالأزهار الورقية
* * *

وبنار الليل القادم من مدريد
يبيع الجزارون لحوم الشعراء المنفيين (٧)

(٦) المجلد الثالث ، ص ٢٥٩ - ٢٦١

(٧) المصدر نفسه ، ص ٢٦٤ - ٢٦٨

الشاعر رفائيل ألبرتي

ازاء هذا الوضع ، أى وأد الجمهورية الاسبانية الثانية ، عاش كثير من شعراء ومثقفى اسبانيا في تجربة المنفى التي دامت عقوداً . وكان من بين هؤلاء الشاعر رفائيل ألبرتي الذي تنقل منفا طوال أربعة عقود بين جغرافيات العالم من شمال افريقية الى باريس والأرجنتين وروما ، والذي تعرف اليه البياتي في مدينة ستالينغراد في حضور الزعيمة الشيوعية الاسبانية دولوريس ايباروري «باسيوناريا» ، وكان ذلك في منتصف الستينات ، ثم التقيا مجددا في منفى ألبرتي بروما .

غير أن هذا اللقاء لم يكن عابرا إذ أدى الى صداقة بين الشعارين ، العربي والاسباني ، تركزت بوصول البياتي الى مدريد حيث عاش طوال عقد الثمانينات تقريبا ، وكان وصوله الى العاصمة الاسبانية بعد عامين من عودة ألبرتي من منافيه . وأفضى ذلك الى أن يخص البياتي الشاعر الاسباني بقصيدة مطولة ، استلهم فيها واقع البلاد المترتب على تلك المواجهة الدامية بين أنصار الجمهورية واليمين ، استوحى فيها حياة شاعر اسباني آخر مات في المنفى بجنوب فرنسا هو أنطونيو ماتشادو الى جانب الشاعر الأسطورة غارثيا لوركا ، وكلاهما مات ضحية الحرب الاهلية وان كان ذلك بطريقتين مختلفتين .

في قصيدة «الى رفائيل ألبرتي» ، من ديوان «قمر شيراز» ، نجد أن «خييط النور» بما يعنيه في شعر البياتي - إذ أنه يرمز الى الخط الفكرى للشاعر - ، لم يعد مقصورا على غرناطة بل منح هذه الميزة لحاضرة أندلسية أخرى ، هي طليطلة . هذا دون أن ينسى البياتي استلهام الغاية الاسبانية بما ترمز اليه عند رفائيل ألبرتي نفسه من خلال سيرته الذاتية في «الغاية الضائعة» ، هذه المرحلة الغضة الخضراء من طفولته التي عاشها على ساحل الأطلسي في بلدته بويرتو دي سانتا ماريا باقليم الأندلس .

وتلحق قصيدة البياتي في أفق البحر ، العنصر الطبيعي الهام والمحوري في شعر ألبرتي الذي تردد صداه في هذه القصيدة التي حملت الشاعر العراقي ليجوب من خلالها آفاق اسبانيا المعاصرة مجسدة برموزها الثقافية ، من منفيين وأموات .

يوصل البياتي استلهامه للواقع الاسباني في هذه القصيدة المهداة الى ألبرتي ، فيضفى على مدريد طابع الحنين من خلال هذا الشاعر الاندلسي الذي يبكيها من منفاه في روما . وفي أبياتها لجأ الى تقنية الوقفات والحوار مع محور القصيدة نفسها ونعنى به ألبرتي الذي يبكي وطنه ومدريد في المنفى ، في مدينة موصدة

الأبواب أمام الشعراء حيث يموت بعضهم كمدأ في المنفى في حين ينوء بعضهم الآخر بالفقر القاتل :

«وقفنا تحت عمود النور ، رأينا : نار الشعراء
الاسبان المنفيين الموتى : لوركا - ماتشادو...ناديتك ألبرتي !
فأجاب : الشعر
وأخر طفل في المنفى يبكي الوطن الأم
ويبكي مدريد (٨)

مدريد - لوركا مرة أخرى

وفي موضع آخر ، في قصيدة «الموت في الحب» في ديوان «الموت في الحياة» ، تكتسب مدريد صفة جديدة أكثر ايجابية ، إذ يربط بينها وبين الولادة ، ورمزية سنابل القمح ، ليولد فيها عالم جديد . غير أن هذه الولادة ، الأمل ، لن تتم الا تحت سماء عالم جديد ، في مدريد ، وهي مشروطة بالطوفان الذي سيغسل عار البشرية ووجه هذه المدينة القبيح الذي داسته سنابك خيل الحرس الأسود ، أى الحرس المدني الذي استخدمه فرانكو في قمع الشعب . والولادة في هذه القصيدة تحيل الى العذراء التي وضعت المبعثر بالحب والحرية تحت جذع نخلة ، ضمن استلهاهم البياتي لأساطير حضارات حوض البحر المتوسط ، ان يحط في ممفيس ويحمل القارئ الى أوليس وأوفيليا وعائشة . هذا دون أدنى رغبة في تفسير الشعر على أنه انعكاس للمواقع ، ان أن شعر البياتي ابداع للمواقع ، واغناء له من خلال توظيف الأدوات الانسانية المتاحة من تجارب وأساطير في قصائده :

أيتها العذراء
هز بجذع النخلة الفرعاء
تساقط الأشياء
تنفجر الشموس والأقمار
يكتسح الطوفان هذا العار
نولد في «مدريد»
تحت سماء عالم جديد (٩)

(٨) المصدر نفسه ، ص ٤١٠

(٩) المجلد الثاني ، ص ٣٣٠

لجأ البياتي الى الرمز الشخصي والعام ، الى الرمز الجماعي ، مستلهما الشخصيات التاريخية والأساطير والأقنعة ، من خلال التراث العربي والانسانى، ليصل الى الولادة ، الى عالم جديد ، عبر الموت ، وهو مسار تمثل في هذه القصيدة ، فعائشة ليست الا روح العالم المتجدد من خلال الموت والانبعاث .

يعد الشاعر غارثيا لوركا أحد أبرز العناصر الاسبانية في شعر عبد الوهاب البياتي ، ان احتل حيزا كبيرا ومحوريا الى جانب مدريد ، فكلاهما شكلا معا لحمة أكثر من قصيدة . وكان هذا الشاعر الاندلسي والحرب الاهلية الاسبانية سببا رئيسيا في اهتمام البياتي المبكر باسبانيا ، منذ الأربعينات . وهو من الشعراء القلائل الذين ترجم لهم البياتي أشعارا ، ان ترجم له سبع قصائد نشرها في «رسالة الى ناظم حكمت وقصائد أخرى» .

كان هذا الاهتمام وراء قيام البياتي برثاء غارثيا لوركا ، ليصبح الشاعر الوحيد الى جانب التركي ناظم حكمت اللذين خصهما بمرثية ، وان كان قد خص الشاعر اللبناني خليل حاوي الذي انتحر اiban الاحتلال الاسرائيلي لبيروت بمرثية أخرى ، لكنها جاءت في مرحلة متأخرة ، في ١٩٨٣ ، أثناء اقامته بمدير . لقد جمعت صداقة حميمة بين البياتي وناظم حكمت طوال منفاهما في موسكو في نهاية الخمسينات ومطلع الستينات ، أى أن علاقة مباشرة كانت قائمة بينهما ، وهو مبرر كاف لهذا التكريم الشعري من قبل الشاعر العراقي . اضافة الى أن الشاعر التركي قد خص البياتي سنتنذ بمقاليتين في الصحافة الروسية نشرهما البياتي مترجمتين في «حرائق الشعر» .

أما سبب اهتمام البياتي بغارثيا لوركا ، فقد أقرب به في سيرته الذاتية «تجربتي الشعرية» ان يؤكد أن أشعاره - هو وشعراء آخرون - لها قدرة النفاذ من خلال الموسيقى والصورة والرؤية الى وجدان الانسان المعاصر في الوقت الذي تنطوى فيه على نوع من الالتزام الواعى النابع من نفوسهم «ووجدت في أشعارهم كل خصائص بلادهم وقسماتها التي تصل الى التصور الانسانى الكامل ، خصائص الانسان الحي في تشيلي واسبانيا» (١٠) . هذا الى جانب ما يعنيه على وجه الخصوص هذا الشاعر ومسقط رأسه ، غرناطة ، للشاعر العربي ، ان اتخذ منحى مكثفا ، فاق ما عناه لثقفى العالم التقدميين .

(١٠) عبد الوهاب البياتي . تجربتي الشعرية ، الاعمال الكاملة ، الجزء الثانى ، دار العودة ، بيروت ، ص ١٨

فضلا عن هذا فان البياتي اتخذ من الشاعر الغرناطي نموذجا لعصر بأكمله : انه المثقف الشهيد ، الشاهد على تداعيات الصراع الذى فجره القتل ، وجعل منه بطلا أسطوريا ورمزا للمغدور بهم من المثقفين والغرباء في أوطانهم . ويلمح الى أن غارثيا لوركا كان توقع مصرعه ، وهو ما يتسق مع الواقع فما زال هناك غموض يحوم حول مغادرته مدريد وعودته الى غرناطة فور اندلاع لهب الحرب الأهلية مع علمه أن الفاشيست قد سيطروا عليها ، وهم المستأون منه ومن أفكاره ، فكثيرا ما تعرض أيامئذ للالهانة من جمهور مسرحياته في العاصمة لطرحة أفكار عدها الحضور المحافظ خارجة على قيم المجتمع ، وهى وقائع مسجلة ومعروفة لدارسي الأدب الاسباني المعاصر .

وفي احدى قصائد البياتي الطويلة والمكثفة في هذا السياق الاسباني ، «الى ارنست همنغواي» نجد لغارثيا لوركا حضورا الى جانب مدريد وغرناطة ، اضافة الى «الحرس الأسود» وكتب الرحالة الاسباني والشيخ الأكبر ابن عربى المتصوف الأندلسي . وكلها عناصر يختزل عبد الوهاب البياتي من خلالها العذاب والموت والدم ، سمات اسبانيا التى يعانى فيها انسان العصر تحت قبضة النظام الفاشي الذى حكمها طوال أربعة عقود بالنار والحديد . كان صراعا بين قوى الظلام والانسان الذى صورته هذه الأبيات ، مستعينا في ذلك بالتراث العربى الأندلسي ليعكس الواقع الاسباني المظلم ، فالموت والدم في كل مكان الى جانب قمع الحرس المدنى المتهم بتنفيذ اغتيال الشاعر الغرناطي في ضواحي غرناطة . وهى الحادثة التى عالجها شريط سينمائى للممثل الكوبى المعروف أندي غارثيا وعرض فى مطلع سنة ١٩٩٧ فى دور العرض باسبانيا ، سبقه فى ذلك الكاتب الايرلندى ايان جيبسون فى المجلدين الكبيرين اللذين وضعهما عن حياة لوركا وموته ونشرهما فى منتصف الثمانينات .

تجمع بين هذه القصيدة وقصيدة أخرى هى «محنة أبى العلاء» تقنية تداعى الخواطر اذ يربط الشاعر الغرناطي بمبدع آخر اهتم باسبانيا وحربها الأهلية ومصارعة الثيران فى أعماله ، هو هيمنغواي وروايته المعروفة «لمن تقرر الأجراس ؟» . فمن خلال محنة المعرى استلهم البياتي شخصيات جمع بينها التمرد والعذاب والاضطهاد مثل غارثيا لوركا وغاليليو غاليلي والمعرى نفسه ، اذ كانوا شهودا فاعلين للثورة ورموزا لتمرّد الانسان على الظلم والظلام والقهر والفقر :

لمن تغنى هذه الجنادب ؟

لمن تضىء هذه الكواكب ؟

لمن تدق هذه الأجراس ؟
وأين يمضي الناس ؟

* * *

يا ليل ! يا نعاس !
لوركنا ونور العالم الأبيض في الأكفان (١١)

غير أن التحدي لازم هذا الانسان من خلال جملة تنسب الى غاليليو ، وهي ذات دلالة واضحة في هذا الصدد ، «ولكن الأرض تدور» ، وقد وضعها البياتي عنوانا جانبيا لهذه القصيدة وللمقطع الأخير منها . أما غارثيا لوركنا فقد بلغ مصيره المحتوم حاملا النور في هذه القصيدة في جو من الحزن والحسرة والحنين الى بغداد ، رغم التحدي واللمحات الوجودية والتضحية التي تنسحب على شخصيات هذه القصيدة الطويلة ، المكونة من عشر مقطوعات - قصائد دائرية . ومن خلال التقنية عينها ، أى تداعى الأفكار ، يتوالى استلهاهم شخصيات أخرى في القصيدة - الديوان «الذى يأتى ولا يأتى» في قصيدة «طردية» على وجه التحديد التي تدور حول مقتل غارثيا لوركنا ، كشيخ المعرة ، ذي الحبسين ، وكاثرين بطلة رواية هيمنغواي «وداعا للسلح» التي ماتت لتهب الحياة ، وعمر الخيام ، وكلهم يجمعهم العذاب والتضحية ، الى جانب المطاردة التي تنتهى بقتل الشاعر الغرناطى :

الأرنب المذعور عبر الغسق الغارق في الضباب
تنهشه الكلاب

بكم تبيع أيها الصياد !

شهادة الميلاد ؟

كاثرين ، وهى تلد الحياة

ماتت ، وهذا الأرنب المذعور يصبغ في دمائه مخالب الكلاب والأعشاب

* * *

لوركنا يجبر واقفا للموت في الميلاد

أمامه ، كانت كلاب الصيد تجرى

تنبح الجالاد (١٢)

وعنوان القصيدة يستدعى صورة المطاردة من خلال لقطات سينمائية ، فالصياد وكرابه وراء الفريسة «الأرنب المذعور» ، وتستمر دائرة هذه اللقطات

(١١) عبد الوهاب البياتي ، الاعمال الكاملة ، المجلد الثانى ، ص ١٦٢

(١٢) المصدر نفسه ، ص ٢٢٧

بظهور كاثرين التي تموت وهي تلد ، بينما المعرى الضريع يحدج السماء بنظرة
أزدراء ، لتنتهي بصيد الفريسة ومقتلها : مقتل غارثيا لوركا . غير أن مقتل
الشاعر ، في القصيدة ذاتها ، لم ينل من عزيمة البياتي الذي يأبى الانحناء أمام
الهزيمة ، إذ يصر على المقاومة ، وهي من ميزات شعره ، ليصل الى ذروة التحدي
باستلهاام التراث العربى الاندلسى ممثلا في خطبة طارق بن زياد التي ألقاها في
جنده ، بعد عبور المضيق ، حين أحرق السفن ليقع طريق العودة أو التقهقر
ليواصلوا فتح الاندلس ، إذ لا خيار سوى النصر ، وفي هذا اسقاط على انسان
العصر :

اياك والفرار
أمامك البحر ومن ورائك العدو بالمرصاد
الموت في كل مكان ضرب الحصار (١٣)

غرناطة

يلاحظ أن موت غارثيا لوركا ، الذى صورته البياتي على أنه وقع في مدريد ،
بدأ يلح الى موقعه الحقيقى ، أى في غرناطة ، في قصيدة «الموت في غرناطة» دون
أن يشير صراحة الى ذلك ، إذ اكتفى بأن وظف «معلم الصبيان» ليعلم في غرناطة
أن الفاشيست قتلوا الشاعر ومثلوا بجثته على نهر الفرات ، في حين يصر على أنه
سيبعث من التراب كالعنقاء التى يذاجيها بالرغم من يديه المبتورتين . وقد لجأ
البياتي الى السرد في معالجته لهذه الحادثة .

وقد جمع البياتي في هذه القصيدة بين غارثيا لوركا وشخصية تاريخية أخرى
لقيت حتفها ، أو صفيت على يد الخصوم ، الشهيد الحسين بن علي ، فكلاهما
شهيدي ، كل من منظور خاص ، وكلاهما لقييا «موتا ثوريا ونبتيا ، بذرة خصبة
من شأنها أن تثمر مولدا أجمل ، حياة جديدة وأسمى «حسب المستعرب الاسباني
بدرو مارتينيث مونتابيث (١٤) .

(١٣) المصدر نفسه ، ص ٢٢٦

(١٤) انظر :

Pedro Martínez Montávez, *Exploraciones en la literatura neoárabe*, Instituto Hispano-Arabe de Cultura, p. 49.

قام الدكتور محمد الجعيدى ، الاستاذ في جامعة مدريد أوتونوما ، بنشر فصل «ثلاث مدن اسبانية
في شعر عبد الوهاب البياتي» من هذا الكتاب الى العربية ونشرته دار ايف للطباعة والنشر ،
بيروت ، ١٩٨٢

ويواصل الشاعر مسيرة صهر العناصر الرمزية والأسطورية ، ليتولد لدى المتلقي شعور بأنها قصيدة مشحونة بالعناصر وأن هذه العناصر مكررة في بعض الأحيان وحافلة بالاستطراد في أحيان أخرى . إلا أن علاقة متينة ومبررة تربط فيما بينها وتحكمها .

ويمثل الموت ، وبشكل خاص الموت الغاضب أو المضحي ، عنصراً موحداً بين القصائد التي تتطرق الى ما هو اسباني . وهذا الخيط الموحد بين أبيات هذه القصائد قلما يأتي رمزيا ، وفي حالة كهذه ، وعندما يلجأ الشاعر الى الرمز ، يأتي الموت ممثلاً في فراشة ترمز اليه أو الى روح الميت حسب معتقدات حضارات الهلال الخصيب القديمة ، كما هو معروف ، وهو ما يلاحظ في قصيدة «الموت في الحب» (١٥) . غير أن اغتيال غارثيا لوركا يمثل مركز ومرجعية كل أنواع الموت، إذ تدور حوله أو تسير في خط مواز لمقتله . اضافة الى اسقاط وقائع الحاضر على التاريخ من خلال استقطاب التاريخ عبر الحوادث المساوية المتشابهة . ومن هنا جاء اختياره لمقتل الحسين الثائر الشهيد .

كان اختيار غارثيا لوركا له مبرره في التوجه السياسي والفكري للبياتي ، وبالرغم من يأسه أمام استشهاد هؤلاء الثوار فإنه يتغلب على هذه الحالة بالاصرار على أنهم سوف يبعثون ، فالبعث هو طريق الخلاص : الثورات ، التي ستنتقم بدورها لشهائدها . كما أن دماء هذا الشهيد لم تذهب سدى بل لسبب يوتوبى ، من أجل المدينة الفاضلة التي ينشدها شعر البياتي ، في الوقت الذي يحاول فيه اعادة الأمور الى نصابها من خلال الكلمة المكتوبة . ويرى محمد زفزاف أن البياتي دفع قضية غارثيا لوركا الى مستوى عال من الرمزية والوضوح ، فهذا الشاعر الغرناطي لم يمت في اسبانيا ، بل في العراق ، على نهر الفرات ، إذ أعدمه السفاحون الفاشست (١٦) .

يحقق حضور الشاعر الغرناطي في شعر البياتي ذروته في «مراثي لوركا» ، إذ يجمع في مقطوعاتها الست بين غارثيا لوركا ومدريد وغرناطة ، إلا أن الشاعر لم يظهر بوضوح في مراثيه ، إذ اكتفى البياتي بجعله العنصر المشكل لنسيج القصيدة . كما أنه يرصد في المراثي شخوصا وعناصر أسطورية وأحداثا تاريخية ، يجمع بينها خيط موحد : الموت ، في جو من الحزن والتشاؤم . وبداية القصيدة ذات دلالة واضحة في هذا السياق ، في الوقت الذي يدفع الشاعر بزخم

(١٥) عبد الوهاب البياتي ، الاعمال الكاملة ، الجزء الثاني ، ص ٢٢٨

(١٦) محمد زفزاف ، «النموذج الثوري في شعر البياتي» ، في مأساة الانسان المعاصر في شعر

البياتي ، ... ص ٨٤ - ٨٧

الأساطير العراقية القديمة ممثلة في «انكيديو» ليصور الموت الأسطوري أو أول وقفة للإنسان أمام الموت للتأمل فيه :

يقرر بطن الأيل الخنزير
يموت «انكيديو» على السرير
مبتئساً حزين
كما تموت دودة في الطين (١٧)

يستمر هذا الجو القابض للروح والحزين في «مراثي لوركا» وقد سبق أن ظهر في قصائد أخرى إلى جانب الاضطهاد والحزن . إنها حالة من الكرب والاضطراب والحلم ، وطريق مليئة بالعقابات ، حتى ليصل الإنسان إلى حالة يقف فيها ما بين الحياة والموت :

مدينة مسحورة
قامت على نهر من الفضة والليمون
لا يولد الإنسان في أبوابها الألف ولا يموت (١٨)

ويصل هذا النهج إلى ذروته بظهور شخصية «بياتية» ، هي النخاس ، رمز الفشل الثوري الذي يرتكب المستحيل : بيع غرناطة وعائشة والعنقاء . وفي الوقت الذي يوحى فيه بأن الخيانة كانت سبب موت الشاعر الاندلسي ، يربط مسقط رأسه ، غرناطة ، بالبراءة واليتم ، لينتهي إلى الدعوة إلى الثورة انتقاماً من القتلة الذين أراقوا الدماء ، دماء غارثيا لوركا ، ودنسوا المدينة وحولوا بياض ثلوجها إلى ليل حالك الظلام ، بارتكابهم هذه الجريمة الشنعاء . وبالرغم من هذا الجو القاتم الذي يخيم على القصيدة بمقطوعاتها الست ، فإن الطفولة السعيدة ، طفولة الشاعر الاندلسي ، تطل من أبياتها إلى جانب غرناطة و «خيط النور» الذي ربط البياتي بإسبانيا قبل وطوال منفاه الاختياري في مدريد . وهذا الخيط ، حسبما أوحى الشاعر ، يرمز إلى فكره التاريخي ، تقدمه في خط مستقيم نحو الحرية ، حرية الإنسان :

غرناطة الطفولة السعيدة
طيارة من ورق ، قصيدة
مشدودة بخيط هذا النور
تهتز فوق السور
غرناطة البراءة (١٩)

(١٧) عبد الوهاب البياتي ، الأعمال الكاملة ، المجلد الثاني ، ص ٣٤٤

(١٨) المصدر السابق ، ص ٣٣٥

(١٩) المصدر نفسه ، ص ٣٤٧

قرطبة - غارثيا لوركا

وقرطبة هي المدينة الاسبانية الثالثة ، بعد مدريد وغرناطة ، التي احتفى بها البياتي في شعره ، غير أن حضورها أقل كثافة من المدينتين الآخرين ، إذ جاء بطريقة عابرة ، فقد خصها بإشارة في قصيدتين ، الأولى «عن الموت والثورة» ، مهداة الى تشي غيفارا ويظهر فيها غارثيا لوركا مجددا ، و «الزلزال» المهداة الى الشاعر المغربي عبد اللطيف اللعبي ورفاقه إذ يخلط الشاعر بين غرناطة وقرطبة ، ويعود ليربط بين غرناطة والشاعر غارثيا لوركا ، الا أنه يخلط بين غرناطة وقرطبة ، فهو تارة يشير الى أن موت الشاعر وقع في زنزانة الخليفة الأخير في قرطبة والملك الأخير فيها أيضا ، والمعروف أن الملك الأخير ، أبو عبد الله الصغير ، سلم غرناطة ولم يكن في قرطبة ، وأن غارثيا لوركا قتل في غرناطة وليس في قرطبة . ومع ذلك يبدو أن تبادل الأدوار بين غرناطة وقرطبة تم عن قصد من قبل البياتي ، إذ يشير الى الحمراء بحدائقها الغناء .

حيث القمر الولي في عيون قارعى طبول الملك الأخير
في «قرطبة» يغيب في البحر
... حيث الشاعر الأندلسي في سجون العالم الجديد
في زنزانة الخليفة الأخير في «قرطبة» يموت (٢٠)

وكما يلاحظ فان الشاعر يسقط الماضي على الحاضر ليختلط الواقع بالخيال عبر ومضات وإشارات أندلسية وأخرى معاصرة .

وفي الوقت عينه يعرج على كوبا الثورة إذ نجد أن عائشة بما تعنيه تتوقف لأن الثورة لا تصل الى كوبا في عهد الظلم والاستبداد ، هذا بينما الشاعر الغرناطي يساق معصوب العينين قبل صياح الديك ، قبل شروق الفجر ، أي قبل الثورة ، في حين ذبلت الزهور على ضفتي نهر الوادي الكبير بقرطبة التي يصر الشاعر على الربط بينها وبين لوركا :

«توقفت عائشة ، فالباص لا يذهب في الليل
الى كوبا ، ولا يعود ...
قال : أعود - غارسيا لوركا - إذا ما انتصف الليل
وفي الوادي الكبير نامت الزهور

العاشق الأندلسي عصبوا عينيه وقتلوه
قبل أن ينتصف الليل وقبل أن يصيح الديك (٢١)

وضمن حشده للصور الاسبانية والهيسبانية يعرج من جديد على غيفارا الذي يمثل الوجه الآخر للوركا المثقف الشهيد ، أو الوجه النظري ، في حين أن الزعيم الثوري يمثل الوجه العملي ، شهيد الثورة الذي شهر سلاحه في وجه أعداء البشرية في محاولة لاعادة العدالة الى الأرض التي تفتقر اليها بعيدا عن يوتوبيا الشاعر الذي لا يرى الخلاص في هذا العالم ، بل في البعث .

بابلو بيكاسو

كان الفنان التشكيلي بابلو بيكاسو اسبانيا آخر تمتع بحضور خاص ومبكر في شعر البياتي ، ففي ١٩٦١ خصه بقصيدة «الى بابلو بيكاسو» ، من ديوان «النار والكلمات» عالج فيها بطريقة تصويرية لوحاته وألوانه وفرشاته دون أن تخلو الأبيات من اشارة واضحة الى العاصمة مدريد وأخرى رمزية لغارثيا لوركا . وتعكس هذه القصيدة مناخ احدى محطات منافى البياتي المتعددة في اطار تأويل بعض لوحات الفنان الاسباني العالمي ومراحل الفنية ، اذ ينتقل بينها عبر أخيلة مركبة . في هذا الاطار يكتسب اللون الأزرق ، رمز احدى المراحل الفنية عند بيكاسو ، درجة قريبة من الأخضر ليستحيل الى فيروزى ، بينما يعرج على روح العصر في بزوغ الفجر حاملا معه النصر (٢٢) .

ومع مرور الزمن اكتسب هذا الفنان حضورا أكثر في أشعار البياتي خاصة بعد الزيارة التي قام بها لباريس حيث كان يقيم بيكاسو ، ففي «حجر السقوط» ، من ديوان «الكتابة على الطين» ، عساد ليعرج عليه وعلى لوحاته عبر صور جديدة وتواتر أخيلة تصويرية مع اللعب بالألفاظ بغية تغيير وظائف المعنى .

ويواصل البياتي استلهامه لنتاج بيكاسو عبر رحلة في متحف اللوفر ، خاصة لوحة «المهرج» في قصيدة «قصائد حب على بوابات العالم السبع» - في الديوان الذي حمل العنوان نفسه - التي ترمز الى العبث والانسحاق حسب الدكتور محيى الدين صبحى (٢٣) اضافة الى مرحلته التكعيبية .

(٢١) المصدر نفسه ، ص ٣٣٦

(٢٢) كارمن رويث بربابو «اللون في شعر البياتي» ...

Carmen Ruiz Bravo-Villasante, «El color en al-Bayati», en *Actas de las Primeras Jornadas de Literatura Árabe Contemporánea...*, pp. 383-300.

(٢٣) محيى الدين صبحى ، الرؤيا في شعر البياتي ، ... ص ٣٢٤

غير أن المقطوعة الاولى من مقطوعات القصيدة السبع - يعود الشاعر لتناول الرقم سبعة المعروف بتواتر ظهوره في روحانيات وأساطير كثير من الحضارات الانسانية - تنتهي بالانتحار ، كناية عن الانسحاب واعتزال الحياة . أما المقطوعة التالية فتعرض لظروف تلك الحياة التي يرفضها ، وهو ما يتماشى مع المناخ القاتم الخانق الذي يسيطر على القصيدة اذ يقترب الشعر من النثر . والقصيدة في مجملها تلخيص لتجربة الشاعر العاشق ، وهو أسلوب طريقه من قبل عبر شخصيات تاريخية استلهمها باسقاطها على تجربته الشعرية والفكرية ، من بينها الحلاج والمعري واخناطون . في هذا السياق أو في اطار الظروف التي حملته على الاستسلام يربط بين «نيسابور» و «أركاديا» فكليتهما قضى عليهما على يد الساحر ، ومعروف أن الاولى كانت مدينة العشق قديما في حين كانت الأخيرة مدينة السلام والسكينة في العصر الحديث .

وفي الديوان نفسه يعود الى بيكاسو في قصيدة «الكابوس» ، التي لجأ فيها الى التكثيف ، اذ استلهمها بالعودة الى جحيمه التصويرى من خلال لوحاته بألوانها وبهولاناته ، لينتهي الى مدريد من خلال شخصية عازف القيثارة التي سبق له أن وظفها في قصائده الاسبانية . انه يلتقط الأفكار والرؤيا التي طرحها في القصيدة السابقة ، غير أنه يضيف اليها عنصر الموت في هذه المدينة ضمانا للبعث في مدن أخرى وفي ظروف أفضل .

واضح أن اختيار البياتي لهذا الفنان الاسباني لم يكن جزافا بل عن وعى تام بشخصية وفن بابلو رويث بيكاسو ، فكلاهما ناضل ووظف فنه من أجل الحرية ، فمن المؤكد أن بيكاسو لو لم يكن ثوريا أو متمردا لما اهتم به الشاعر العراقي ولا بفنه . وكان اشتراكهما في الالتزام سببا اضطر كليهما الى المنفى ، وهو العنصر الذي جمع بين البياتي وشعراء اسبان آخرين تمتعوا بحضور في نتاجه الشعري والنثري مثل أنطونيو ماتشادو ورفائيل ألبرتي .

أمريكا اللاتينية - الأندلس

والى أمريكا اللاتينية أو الهيسبانية يعود البياتي عبر زميله التشيلي بابلو نيرودا الذي يهديه قصيدة «القربان» ليرثيه ليس وحده بل معه عهد الرئيس المغدور سلفادور الليندي الذي اغتيل أثناء مقاومته القوات الفاشية تحت قيادة الجنرال بينوتشيت عام ١٩٧٣ (٢٤) .

(٢٤) أذكر أن البياتي قام بمشاهدة الشريط السينمائي الأمريكي «مفقود Missing» : بطولة الممثل جاك ليغوند ، في إحدى دور عرض السينما في العاصمة الاسبانية ، في منتصف الثمانينات ، وكان عن الاعتقالات الجماعية والمذابح التي ارتكبتها نظام الجنرال بينوتشيت ابان الانقلاب الذي =

ومات حسرة عليه صديقه الشاعر نيرودا . والقصيدة ذات الروح السياسية مليئة باللوحات الواقعية ، انها تقترب من الواقع الذى لم يره البياتي لأسباب جغرافية وسياسية ، وان كان تصويره ليس صعبا على شاعر أراد أن يكون فاعلا في قصيدته هذه ، فقد استعرض التاريخ القديم والحديث للقارة الامريكية من مذابح الانديز والهنود الحمر باسم الدين الى المال والبترول ومناجم النحاس والجوع :

رأيت الدم فى شوارع القارة مكتوبا به الانجيل والمنشور
مطبوعا به جبين نيرودا ...
ورأيت الدم فى شوارع القارة ،
نيرودا على خريطة التكوين يستقرىء أقمار
براكين الهنود الحمر ، غابة من النعاس ،
ليل البحر يستلقى على أسرة العمال فى مناجم النحاس
كان الجنرال - القاتل المأجور
وهو خائف ، يذيع من دبابة ، بيانه الاول ...
حامل القربان ألقى وردة فى النهر
قال : اشتعل أيتها الأنهار فى القارة باسم الفقراء (٢٥)

يلاحظ أن ديوان «سيرة ذاتية لسارق النار» من أكثر أعمال البياتي احتفاء بما هو اسباني وأندلسي وأمريكي لاتيني ، فقد عالج هذه المواضيع فى ست من مجموع ثمان هى قصائد الديوان كله ، أى فى كل من «المخاض» و «قصائد عن الفراق والموت» و «الزلال» ، و «السيمفونية الغجرية» و «القربان» و «الموت فى البسفور» المهداة الى ناظم حكمت . ومما يجدر ذكره أن مولد هذا الديوان جاء اثر أول زيارة قام بها البياتي لاسبانيا فى يناير ١٩٧٣ .

كانت قصيدة «قصائد عن الفراق والموت» ومعها «السيمفونية الغجرية» نتاجا مباشرا لتلك الرحلة ان استلهم فى الاولى حكاية شعبية اسبانية عن أمير عربى أندلسى كان له سبعة أولاد أغوت الجنية أصغرهم ، وقد لجأ فيها الى تقنية القصص الشعبى فى السرد وذلك عبر أسلوب سردى على غرار الحكايات الشعبية، يخلط فيها بين المخيلة الشعرية والموروث الشعبى . وقد وظف فيها مضمون أغنية

=قاده على نظام الرئيس المنتخب سلفادور الليندى . وقد عاد ليشاهد الشريط أكثر من مرة وفى كل مرة كان يبدو غاية فى التأثير أمام عدة مشاهد فى الشريط ، غير أن دلائل التأثير بانته عليه أكثر أمام مشهد قيام قوات الانقلاب بملاحقة حصان أبيض اللون بعد حرق كتب المثقفين اليساريين . وقد أكد لى أنه لم يتأثر منذ سنين بشريط سينمائى بالنحور الذى تأثر فى بهذا الشريط .
(٢٥) عبد الوهاب البياتي ، الاعمال الكاملة ، الجزء الثالث ، ص ٣٦٢ - ٣٦٤

من أغانى الغجر ، استمع اليها فى منطقة «ساكرو مونتى» على مشارف غرناطة قرب قصر الحمراء التى يسكنها الغجر وفيها تكثر ملاهيهم التى يغنون فيها ويرقصون «الفلامنكو» ، وهو الفن الذى لجأ اليه فى القصيدة الثانية «السيمفونية الغجرية» التى غاب عنها الطابع السياسى الذى وسم الكثير من أشعاره عن اسبانيا اذ أنها من وحى زيارته لاسبانيا واستلهامه لغناء ورقص الفلامنكو . لذا فقد تحولت الى قصيدة حب لجأ فيها الشاعر الى بعض المفردات الصوفية عن وعى اذ استحضّر روح الاندلس بصوفيّتها ممثلة فى قطبها «الشيخ الأكبر» الذى خصه بفاتحة ديوان «قصائد حب على بوابات العالم السبع» .

غير أن القصيدة الفلامنكية يمكن تلخيصها فى أنها رقصة حب تصويرية ، عرج البياتى من خلالها على الحوار التصويرى بين رجل وامرأة ، غجرى وغجرية ، وهى اشارات سبق أن وظفها فى «قصائد عن الفراق والموت» ، التى صور فيها ثنائية الحب والموت مستخدما مضمون أغنية من أغانى الفلامنكو ، غناها فى حضوره مغن غجرى فى منطقة «ساكرو مونتى» .

بستان عائشة : ديوان اسباني المولد

فى نهاية المطاف نصل الى ديوان «بستان عائشة» لنجد أنه أكثر دواوين البياتى احتفاء بما هو اسباني وهيسباني ، اذ يتضمن سبع قصائد تدور حول هذا الموضوع : «الى خورخى لويس بورخيس» ، «مجنون اشبيلية» ، و «الى بيثنتى أليكساندرى» ، و «الولادة» ، و «مدريد فى عيد الميلاد» ، و «الى أكتايو باث» ، و «الى أسماء البياتى» ، الى جانب اثنتين مهادتين الى مستعربين اسبانيين ، الأولى «نار الشعر» الى بدرو مارتينيث مونتابيث ، و «نهر المجرة» الى فيديريكو أربوس . وهو الديوان الذى ولد كاملا تحت خيمة اسبانيا ، ففيها عاش عشر سنوات ، وقد كتبه خلال عقد الثمانينات ، قبل رحيله مجددا الى بغداد بشهور ، أى أنه لم يكن من قبيل المصادفة أو الاستلهام عن بعد . من هنا كان لهذا الزخم الاسباني والهيسباني مبرره بعد معايشة الشاعر لواقع هذا البلد بنفسه واقترابه من أمريكا اللاتينية عبر العاصمة الأم لقارة الامريكية ، مدريد .

نختار منها القصيدة التى يفتتح الشاعر بها هذه المجموعة وهى قصيدة مكشفة ، الأكثر شاعرية بين قصائد الديوان وقد أهداها الى الأعمى البصير خورخى لويس بورخيس يلجأ الى اشارات مجزأة من سياقات عديدة تدور حول استعارة دائرية لحياة هذا الكاتب الأرجنتيى ، العمى – البصيرة ، منعطفا صوب قصر الحمراء أحد رموز الحضارة العربية فى الاندلس التى تشبع بها وتمثلها بورخيس فى أعماله الأدبية ومحاضراته فى بوينوس آيريس فى شبابه ، ثم

يعود البياتي ليئن ويجتر وضعه الشخصى فى ملكوت المنفى . وهذه الاستعارة يدركها المتلقى المطلع على بورخيس دون حاجة الى الكثير من الخيال والثقافة ، ولكن شرط التسليح بحساسية جمالية ليسبح فى معنى كلمات القصيدة التى تفضى بمكنون عالم هذا المبدع - بورخيس - الحياتى والثقافى . كل هذه الدائرة رسمها البياتي عبر التركيز والتكثيف والاقتصاد اللغوى ، وهى ظاهرة صبغت جل قصائد هذا الديوان ، وان لم تكن مستجدة على الشاعر الذى كثيرا ما استعان بالاشارات والومضات اللغوية ليختزل ويقدم معنى شاملا لمسيرة ما :

أعمى ، لكنك تبصر فى عين الكلمات
تتقرى باللمس المرأة
ورفوف الكتب الغراقى بالنور
ونار اللوحات ...
أعمى لكنك تبصر
وجهى الآخر تحت قناع الموت
وضياعى فى ملكوت المنفى :
من منا الأعمى
فى سجن الحرية ؟ (٢٦)

والى جانب بورخيس يخوض البياتي فى عالم مبدعين آخرين هما : الشاعر المكسيكى أوكتابيو باث والشاعر الاسبانى بيثنتى أليكساندرى ، وكلاهما حائز نوبل للآداب . وفى حالة الشاعر الاسبانى يعود البياتي الى رسم الليل الذى جثم على أنفاس اسبانيا طوال أربعة عقود ، أى نظام الجنرال فرانكو ، وخاصة على مثقفى هذا البلد الذين عاشوا منفى داخلها فى غالبيتهم . ها هو يقول فى مطلع القصيدة :

فى بهو الليل الاسبانى ، فتاة نائمة
يحرسها شعبان
وعلى قدميها يجثو عبد
ينفخ فى ناي ذهبى (٢٧)

وفى هذا الديوان يعود البياتي مجددا الى مدريد فى نسق عصرى ، بعيدا عن دورها فى الحرب الاهلية ، اذ ينقل القارئ الى أجواء الاحتفالات الدينية فى

(٢٦) عبد الوهاب البياتي ، بستان عائشة ، دار الشروق ، القاهرة/بيروت ، ١٩٨٩ ، ص ٢٣ - ٢٤
(٢٧) بستان عائشة ، ص ٣٦

اسبانيا ليرسم وسطها صورة المسيح المحمول فى المراكب والى جانبه لمحة يومية من الحياة فى المدينة ، وذلك فى قصيدة «مدريد فى أعياد الميلاد» .

وعائشة حسب البياتى قتلها الحب والفراق ، وكان وراء ذلك الدافع الاجتماعى والسياسى ، وهذه الجريمة يتحمل وزرها عصر ماتت فيه القيم الروحية وكتب على البشر العشاق أن يجوبوا العالم ويلفوا حول أنفسهم حاملين معهم جحيمهم وهم يجوبون من منفى لآخر ليشيعوا موتاهم ... ولكن هذا القاتل، العصر بأكمله ، لم يكن فى حسبانها أن عائشة لن تموت لأنها العنقاء . فكلما احترقت وتحولت الى رماد نهضت وعادت الى الظهور على شكل فراشة أو قصيدة أو انجاز فنى أو عادت الى الظهور بلحمها ودمها فى عصر آخر . غير أنها كائن بلا لحم ودم ، انها روح وروح فقط . وبستانها هو نشيد جديد للأرض التى فقدت عذريتها .

د. خالد سالم

